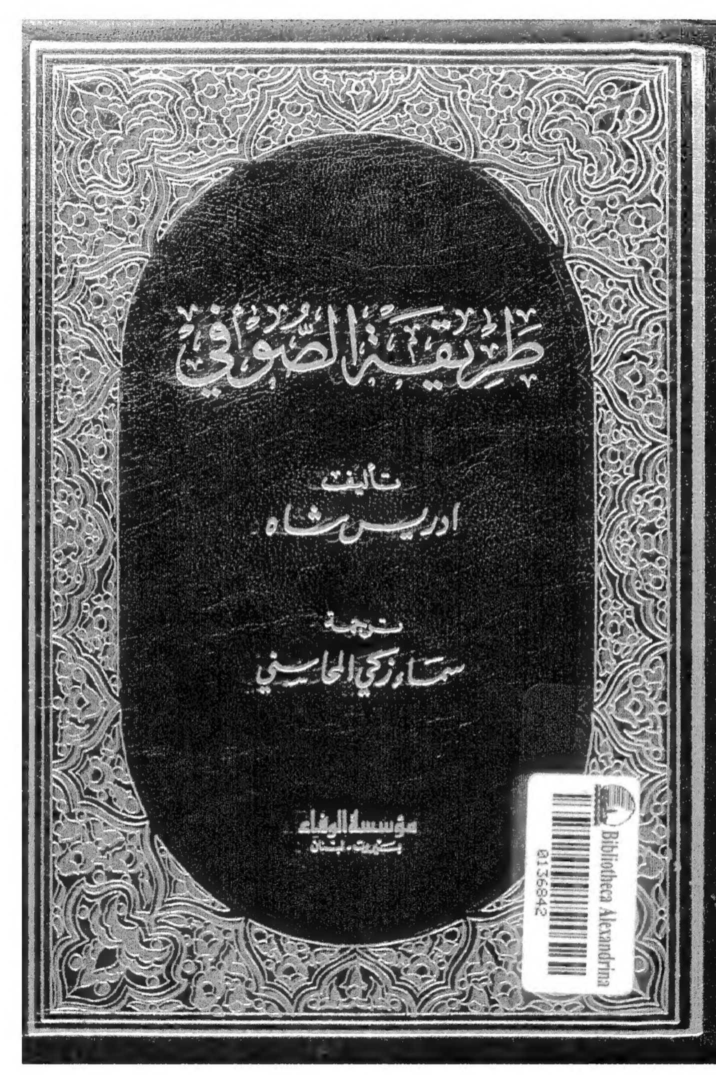

طريقة الصوفي
تأليف
ادريس شاه
ترجمة
سماء زكي المحاسني
مؤسسة الوفاء
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina
0136842

طريقة الصوفي

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



مؤسسة الوفاء: بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤٥٧ - ت: ٣١٢٦٢٠

طريقة الصوفي

تأليف

ادريس شاه

ترجمة

سماء زكي المحاسني

مؤسسة الوفاء
بيروت - لبنان

«إدريس شاه»

المؤلف إدريس شاه كاتب أفغاني معاصر معروف في الأوساط الغربية وله جمهور كبير من القراء في الشرق والغرب .

ولد عام (١٩٢٤) ، ينحدر من أصل أفغاني ، وقد كان والده السردار إقبال علي شاه عالماً ودبلوماسياً ومؤلفاً لعديد من الكتب .

له حوالي (٣٠) كتاباً نشرت باللغات الأوروبية البارزة وببعض اللغات الشرقية منها : الصوفيون ، حكايات الدراويش ، السحر الشرقي ، رحلة إلى مكة ، انطباعات ، حكمة الحمقى ، مآثر الملا نصر الدين ، حكايات عالمية ، كاراكوش (رواية) وهي أحدث مؤلفاته (١٩٨٧) ، وطريقة الصوفي ، وهذا الكتاب الاخير نشر لأول مرة عام (١٩٦٨) وطبع طبعات متوالية ،وهو أول كتاب من كتبه ينقل للغة العربية .

وهذا الكتاب من أهم كتبه في التصوف سواء في محتواه أو في طريقة عرضه للموضوع ، ويثير فيه انتباه كل من أولئك الذين يقفون إلى جانب التصوف وأولئك الذين يعترضون عليه ، وقد شرح فيه للقراء في الغرب والشرق الفكر الصوفي إنطلاقاً من المفكرين الصوفيين أنفسهم وعبر أقوالهم وآرائهم التي نقلت عنهم في المؤلفات الصوفية أو من التراث الشفهي الحيّ .

يعمل منذ الستينات مديراً للدراسات في معهد البحث الثقافي في كنت بانجلترا ، وحالياً وقته موزع بين بريطانيا والشرق الأوسط ، متزوج من السيدة (كاشفي) وله ثلاثة أولاد يدرسون في الجامعات البريطانية والأمريكية .

ألقى عدة محاضرات في أوروبا وأمريكا وله ترجمة شخصية في عدد كبير من المعاجم والتراجم العالمية .

قال عنه البروفسور لويس ماين ، مدير معهد الأنثروبولوجيا بباريس :

«لقد أسهم إدريس شاه في المعرفة الإنسانية إسهاماً حقيقياً بمؤلفاته الغنية بالفكر الفلسفي والشرقي» .



المؤلف

هذا الكتاب هو الترجمة العربية للأصل باللغة الانجليزية :

The Way of The Sufi

By

Idries Shah

London, 1971

القسم الأول من الكتاب وهو بعنوان : دراسة التصوف في الغرب حلقة بحث عقدت في جامعة ساسكس Sussex (كلية التاريخ) في ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٦ .

مقدمة

التصوف الإسلامي فلسفة تدعو إلى نشر المحبة بين الناس والعبادة والاتصال الروحي بالله الخالق سبحانه وتعالى .

على أن الحياة الروحية في الإسلام لم تلق من عناية الباحثين والدارسين ما هي جديرة به ، وهي حياة تعرضت لتأثيرات مختلفة وتطورت بشكل ملحوظ من تدين إلى زهد إلى تصوف .

وقد كان التصوف وما زال موضوعاً تدور حوله استفسارات وتساؤلات وقد تناوله كبار المفكرين والكتاب في الوطن العربي بالبحث والتمحيص فألفوا حوله كتباً عديدة .

أما في الغرب فقد بحث فيه المستشرقون وعلى رأسهم نيكلسون وماسينيون وآربري وغيرهم ، ونقلوا أمهات الكتب الصوفية إلى اللغتين الانجليزية والفرنسية ، مثل كتاب « اللمع في التصوف » لابن السراج ، ودواوين الشعر الصوفي كديوان جلال الدين الرومي وديوان الحلاج وغيرهما ، بالإضافة إلى دراساتهم ومؤلفاتهم العامة في التصوف الإسلامي .

على أن الصوفية لم تدرس في الغرب إلا منذ مائة وخمسين عاماً وكانت في ذلك الحين كما ذكرت ، على أيدي هؤلاء المستشرقين .

وفي هذا العصر قدم كاتب أفغاني كبير هو البروفسور « إدريس شاه » شرحاً للفكر الصوفي من خلال مؤلفاته الكثيرة باللغة الانكليزية ، فأتيح للغرب أن يتعرف على الفكر الإسلامي والحياة الصوفية في الإسلام .

ويمتاز هذا المفكر الإسلامي المعاصر بسعة أفقه وعمق ثقافته الإسلامية والشرقية . وقد تجلى هذا في كتاباته ومحاضراته ، وكان لجولاته الكثيرة في بلدان الشرق والغرب أثر بعيد في تكوين ثقافته الموسوعية في ميدان الفلسفة والتصوف الإسلامي ، وكان في هذه الجولات مرافقاً لوالده « السردار إقبال علي شاه » ، وهو أيضاً من كبار الكتاب الأفغانيين وله مؤلفات هامة .

وقد استقى « إدريس شاه » من خلال لقاءاته بالمتصوفين ودراساته الطويلة مادة لكتبه التي بلغ عددها ما يزيد على الثلاثين كتاباً معظمها يختص بالبحث في التصوف الإسلامي والشرقي ، كما أنه ينتمي إلى المدرسة النقشبندية في التصوف .

وهو مرجع موثوق في الأدب الصوفي الفارسي والشعراء الصوفيين الأعلام كالرومي والشيرازي وجامي وغيرهم . .

وقد أبرز « إدريس شاه » مدى التشابه بين ما جاء به كبار الكتاب الإسلاميين من أعلام الصوفية كالغزالي وبين الكتاب المحدثين الذين جاءوا بنظريات نفسية سبقهم إليها الكتاب الإسلاميون منذ قرون .

فلا غرو أن لقيت كتب«إدريس شاه» هذا الاستحسان ، فنال عدداً من الجوائز التقديرية .

وأحدث أعمال هذا الكاتب الأفغاني الكبير كتابه « كاراكوش » «Kara-kush» أو « النسر » وهي أول رواية يكتبها وتدور حول كفاح الشعب الأفغاني من أجل استقلاله ، وقد استقبلت أيضاً في الدوائر الأدبية الشرقية والغربية بحفاوة بالغة كعمل أدبي رائع امتاز ببساطة الأسلوب وجماله ، واعتبرها النقاد ملحمة

بطولية ، إضافة إلى كونها موسوعة شاملة عن افغانستان والشعب الأفغاني .

وتدرس كتب « إدريس شاه » في الجامعات العالمية وفي أقسام الدراسات الشرقية والفلسفية .

وقد صدر عام ١٩٧١ كتاب بمناسبة مرور (٧٠٠) عام على ولادة المتصوف الكبير « جلال الدين الرومي » ، ضم مجموعة من الدراسات بعنوان « الدراسات الصوفية في الشرق والغرب » ، وهي مجموعة بحوث نوهت بذكر الكاتب الأفغاني المعاصر « إدريس شاه » وبما قدمه من خدمات جليلة في مجال الدراسات الصوفية المعاصرة .

وقد اشترك في كتابة البحوث ما يزيد على أربع وعشرين مفكر من مختلف أنحاء الشرق والغرب ، منهم البروفسور جون باومان رئيس الدراسات الشرق أوسطية في جامعة ملبورن ، والدكتور عبد العزيز السيد ، والدكتور زكي المحاسني الشاعر والأديب السوري ، والدكتور سامي حمارنة .

وقد عمل البروفسور « إدريس شاه » مديراً للدراسات في معهد البحث الثقافي في «كنت» بانجلترا منذ عام ١٩٦٦ وحتى الآن ، وألقى عدداً كبيراً من المحاضرات في جامعات كثيرة في الولايات المتحدة وجنيف وغيرهما .

ويتضح في كتبه ومؤلفاته تأثره بمعاني الحياة الصوفية وما يتخللها من إشراق روحي وسعادة نفسية ، ويعود إليه الفضل في تعريف العالم الغربي على الثقافة الروحية الإسلامية وما ذخرت به من معاني سامية ورقي فكري تجلى في الأدب الصوفي الرائع .

ولعلي أتفق مع والدي الراحل الدكتور زكي المحاسني في الإعجاب بأسلوب هذا الكاتب المبدع ، إذ يقول في إحدى مقالاته عنه :

ـ « بقي أن أقول كلمتي في طريقة تأليفه ومنهجه وبيانه وقدرته الكلامية ، فإنه ذو طرائق علمية لا يأتيها البطلان وهي سر تفوقه في التأليف ، وأما أسلوبه

وبيانه فإنه يضاهي بهما أكابر الكتاب البريطانيين وكل من كتب بالانجليزية السليمة البليغة ، وهذا سبب احتلال كتبه محلها من الاعتبار لدى الغربيين » .
وكتاب «إدريس شاه» [طريقة الصوفي] الذي انتقيته لنقله إلى اللغة العربية كتاب جديد من نوعه ، وهو ليس كتاباً عادياً يسير على نهج من سبقوه إلى الكتابة عن الفكر الصوفي ، ولا يحوي دراسة جامدة للنظريات والأبحاث التي تدور حول الفلسفة الصوفية ، لكنه يشرح لنا النظرة الصوفية إلى الحياة والكون من خلال المنابع الأصيلة للفكر الصوفي ومن أقوال المتصوفين الحقيقيين بأسلوب أدبي جميل وممتع ، كما نلمح في هذا الكتاب كما في كتبه الأخرى دعوة إلى المحبة والإخاء والأخلاق السامية والارتفاع فوق الماديات والشكليات . وقد ركز في كتابه على التراث الصوفي ، وهو مصدر استقى منه هذا الأدب الصوفي من شعر ونثر ، فنجد مقطوعات من قصائد في الشعر الصوفي امتزجت بخواطر ذاتية تأملية وحكم أخلاقية ، وفيه حديث عن المدارس والطرق الصوفية ، ويقدم لنا أيضاً تعاليم المعلمين الصوفيين كأساس للبحث في مبادىء التصوف .

وربما كان أهم ما يمتاز به الكتاب مقدمته الوافية المزودة بقائمة للمراجع والحواشي الدقيقة ، عرض فيها المؤلف بين يدي القارىء المشاكل الجادة التي تثار حول التصوف الإسلامي وناقشها ، ومنها اشتقاق اللفظ (صوفي) وما دار حوله من أفكار وآراء الباحثين وما جاء به كبار المستشرقين مثل المستشرق الانجليزي المعروف « رينولد نيكلسون » حول هذه المسألة ، كما عرض للدراسات المعاصرة حول التصوف وما قدمه المستشرقون والمفكرون في الغرب في هذا الصدد وركز على إغفال بعضهم الحديث عن التصوف في الإسلام كما فعل « رسل » في كتابه « حكمة الغرب » إذ لم يتطرق للبحث في هذا الفكر أو ذكره .

ووضح « إدريس شاه » أيضاً في مقدمته أهمية الاتصال المباشر بالمصادر الصوفية لما له من أهمية في فهم الأفكار الصوفية الحقيقية من منابعها الأصيلة سواء بالاتصال الشخصي أو بواسطة المصادر المؤلفة والمدونة .

وانتقل للبحث في ناحية أخرى لا تقل أهمية عما سبق وهي إساءة فهم الأفكار التي جاء بها المتصوفون بسبب بعض الممارسات والرياضات الصوفية التي أسيء استخدامها ولتعدد الأماكن التي ظهرت فيها المؤلفات الصوفية الأصلية .

وأوضح علاوة على ما تقدم الصعوبات التي يتعرض لها الباحث أو الطالب لدى دراسته موضوع التصوف والمخاطر التي يتعرض لها الفكر الصوفي عند نقله ، وفي القسم الثاني من الكتاب ينتقل المفكر الكبير « إدريس شاه » للحديث عن أعلام التصوف الإسلامي كالغزالي والخيام والعطار وابن عربي والرومي والشيرازي ، ويبين ما لهؤلاء الاعلام من شأن وأثر في الفلسفة العربية والإسلامية ، وما كان لهم من تأثير عميق في الفكر الأوربي ، وفي مقدمتهم الإمام المتصوف الغزالي .

ثم يمضي في القسم الثالث للبحث في أربع طرق من الطرق الصوفية المتميزة وهي الطريقة الششتية والقادرية والسهروردية والنقشبندية ، فينقل إلينا منتخبات من أقوال أتباع هذه الطرق ، كمحاولة للتعبير عن هذا التيار الصوفي ومنهجه في الحياة الروحية ، وقد نوع في النصوص المنقولة وأوضح أثر المعلمين الصوفيين في تهيئة التلميذ أو المريد وفقاً للطرق الصوفية المتنوعة .

ونلتقي على صفحات كتاب « طريقة الصوفي » في القسم الرابع منه بحكايات العارفين ويستهلها بلقاء مع الخضر تليه حكايات أخرى كثيرة وأقوال لكبار المتصوفين في الإسلام أمثال الشبلي والفضيل بن عياض وسهل التستري وأبي يزيد البسطامي وهلال السمرقندي وغيرهم .

وقد حشد « إدريس شاه » في القسم الخامس من كتابه قصصاً تعليمية معبرة عن أساليب المتصوفين في التفكير والسلوك ويقول في مقدمته لهذا القسم :

« تشكل هذه القصص التعليمية جزءاً من نشاط المتصوفين وهي أساس المعرفة الصوفية والهدف منها هو كشف معاني الصوفية ومغزاها » .

أما القسم السادس من الكتاب فهو موزع بين قسمين هما : موضوعات المشاهدة الذاتية ومباحث تأملية ، وقد أخذت موضوعات المشاهدة الذاتية من أقوال الصوفيين وكتاباتهم لأنها حوت المادة الفكرية الملائمة للدراسة الذاتية وفيها تأملات فكرية في الحياة وفي الصورة المثلى للمتصوف وما يجب أن يتوفر فيه من صفات كسعة التفكير والصبر ولبس الصوف والسياحة في الأرض والتواضع وما إلى ذلك . .

وتحدث في مباحثه التأملية أيضاً عن أمور كثيرة منها على سبيل المثال ، الخدمة ، البحث ، الجهد ، التلمذة ، الأستاذية ، الأدب ، المظاهر ، الحب ، الحالات ، التوبة . .

وانتقى البروفسور « شاه » في القسم السابع من كتابه نصوصاً أخرى من المؤلفات الصوفية المتوافرة تبرز قيمتها لدى تلاوتها ، ويمكن قراءتها بشكل جماعي ، فمنها مثلاً قول لعلي رضي الله عنه إذ يقول :

« شرف المرء علمه ، والحكماء مشاعل تنير طريق الحق ، وفي المعرفة فرصة الإنسان في خلود الذكر ، فإذا كان الإنسان يموت فإن الحكمة باقية إلى الأبد » . وقد أضافت النصوص الصوفية إلى قيمة الكتاب فلا شك أنها حصيلة قراءات المؤلف وإن دلت على شيء فهي تدل على سعة إطلاعه وتعمقه في دراسة التصوف وفلسفته فقد حفل كتابه بمقطوعات أدبية رائعة من التراث الصوفي ونجده في القسم الثامن من الكتاب يلفت انتباهنا إلى موضوعات ذات شأن بالنسبة للمتصوفين منها : التذكر ، وحدة المعرفة ، البركة ، آل البيت ، المتصوف ، تعاليم الصوفيين ، الطاعة وغير ذلك . .

وقد اتخذ المؤلف في القسم الأخير من هذا الكتاب من بعض الأسئلة والاستفسارات عن التصوف ومفهومه ، وسيلة لإيجاز النواحي الهامة في هذا الموضوع ، فقدم لنا طائفة من المسائل في مجموعتين الأولى بعنوان « الصوفية والإسلام » ، والثانية بعنوان « الفهم العميق » ، فيجد القارىء أجوبة على الأسئلة

التي تشغل فكره عن التصوف والمتصوفين .

ولقد استطاع الأديب الأفغاني « إدريس شاه » أن يشارك في الدراسات الصوفية مشاركة فعالة في هذا الكتاب وغيره من الكتب فكان مجدداً في كتابته ، واضحاً في أسلوبه بالإضافة إلى غنى كتابه بالنصوص والأقوال التي قربت للقارىء في الغرب مفهوم الصوفية ، وهو لم يلجأ إلى الدراسة التقليدية كغيره من المؤلفين الذين بحثوا في التصوف الإسلامي والشرقي ، ولعل ذلك من حسنات هذا الكتاب الذي أقدمه للمكتبة العربية بعد اقتناعي بالحاجة إليه وإلى ما يماثله من مؤلفات ، وقد وصل « إدريس شاه » إلى هذه النتيجة بالجهد المضني في قراءة المؤلفات المطولة وانتخاب المقطوعات الشعرية والنثرية فنجح في تقديم الفائدة والمتعة الروحية للقارىء وجعلنا نمعن التفكير في عظمة الحياة الروحية في الإسلام وما حملته إلينا من قيم سامية خالدة على مر السنين .

ولقد استحق هذا الكتاب التقدير عندما صدر في الغرب ككتاب متميز في مادته وأسلوبه ، ومن الطريف أن الإذاعة البريطانية اختارته كأشهر كتاب في الفترة التي ظهر فيها ، ونال استحساناً كبيراً من النقاد الذين كتبوا عنه في الصحف والمجلات العالمية ففي الملحق الأدبي للتايمز كتبت الأديبة البريطانية المعاصرة « دوريس ليسنج » تقول :

ـ « إنه كتاب يمنحك الكثير عن الفكر الصوفي وقد استهله المؤلف بحديث شائق دار حول مشكلات التعريف بالصوفية ضمن مجموعة من المفاهيم الراسخة عنه والتقاليد الموروثة ، وهو بحث بني على دراسة وتمحيص » .

والله أسأله أن ينتفع القراء العرب بهذا الكتاب لأنه يقدم لهم ما قد يشكل عليهم من أمور تتعلق بهذا الجانب الروحي من الثقافة الإسلامية العظيمة .

والله ولي التوفيق   دمشق في ١٩٨٩/٢/١

المترجمة

سماء زكي المحاسني

الصـوفية عبـارة عن اطراح مـا في يـدك وعـدم الجـزع على مـا يصيبـك أو ينـزل بك . . !!

« أبو سعيد ابن أبي الخير »

لا تنظر في هيئتي ولكن خذ ما في يدي

« جلال الدين الرومي »

المحتويات

مقدمة المؤلف

المتصوف هو ذلك الذي يفعل ما يفعله الآخرون عندما يكون هـذا واجباً ، وهو ذلك الذي يفعل ما لا يمكن أن يفعله الآخرون عندما يطلب منه ذلك .

نوري موجودي

يقر كثير من الناس بحيرتهم إزاء موضوع المعرفة الصوفية ويجد المرء نفسه قد توصل إلى استنتاج هو أنهم يودون ذلك .

على أن بعضهم الآخر يأخذ الأمور ببساطة متناهية ، وذلـك لمبررات أكثر وضوحاً ، فالصوفية في نظرهم جماعة محبة أو تأمل أو شيء ما كالاصطفاء .

وإذا نظر شخص ما ليس له إهتمام كبير بالموضوع إلى الحركات والأفعـال الصوفية المتنوعة فسوف يجد الملامح العامة للتصوف بارزة له بوضوح .

كمـا أن هناك ارتبـاطاً بين الحكمـاء الصوفيين والكتـاب والتعاليم الصـوفية والنوادر والمعرفة المباشرة بالله أو بالحقيقة الروحية والمبادىء الصوفيـة من ناحيـة وبين الصلة الاجتماعية والنفسية لبعض الأفكار الإنسانية .

ولمـا كان المتصـوف إنسانـاً « لا زمـان » و« لا مكـان » لـه ، فهـو يمـارس تجربته الصوفية ضمن البلد الذي يوجد فيه أو المناخ أو الثقافة .

أما دراسة النشاط الصوفي في الثقافات المتباعدة فهي وحدها ليست ذات قيمة إلا لأولئك الذين يعملون في إطار المنهج المدرسي الضيق ، إذ أن اعتبار الأنشطة الصوفية مجرد ممارسات دينية أو ظاهرة أدبية وفلسفية يؤدي إلى تشويه أو تحريف للطريقة الصوفية ، كما أن محاولة استخراج نظرية أو أسلوب عنهما ، أو محاولة دراستها على حدة محاولة غير مجدية .

لقد وضعت هذا الكتاب لإبراز الأفكار والأفعال الصوفية ، لا لنظرة مجهرية للأمور أو للمنظر إليها كتحف تحفظ في متاحف ، ولكن وفقاً لصلتها وارتباطها بالمجتمع الحالي أو بما ندعوه العالم المعاصر .

لندن ، ١٩٦٨ إدريس شاه

القسم الأول

دراسة الصوفية في الغرب

دراسة الصوفية في الغرب

آراء حول التصوف :

لنفترض أن أحد الطلاب سمع مؤخراً عن الفكر الصوفي ، ولم تكن لديه معرفة سابقة بالموضوع ، ولديه ثلاث مصادر للمعلومات للرجوع إليها حول هذا الموضوع .

المصدر الأول المراجع العامة والكتب التي ألفها أولئك الذين جعلوا من التصوف والصوفية شغلهم الشاغل ، والمصدر الثاني مؤسسات غايتها تدريس الصوفية أو استخدام مصطلحاتها وممارسة تدريباتها الروحية .

أما المصدر الثالث فهو الجماعات الصوفية المعروفة أو المتصوفون ، ولا ينحصرون في دول الشرق الأوسط .

وربما لم يكن هذا الطالب مدعواً للاعتقاد بأن الصوفية يمكن أن يطلق عليها اسم « التصوف الإسلامي » أو « عقيدة الدراويش » فماذا يتعلم ؟ وما هي المشاكل التي يواجهها في تعلمه ؟

إن أول ما يتعرض له الطالب في بحثه هو أصل كلمة التصوف Sufism ويكتشف أنها كلمة ألمانية الأصل يعود استعمالها إلى عام ١٨٢١ م[1] . لكن

البحث في الأصل اللغوي متعذر على الطالب الذي يريد دراسة التصوف دون أن يكون متقناً للغات الغربية .

ويجد الطالب أن هناك كلمات أخرى بديلة لكلمة التصوف ، فعليه البحث في كلمات أخرى « كالقادرية » نسبة إلى الشخص الذي أوجد الطريقة القادرية في التصوف ، وهو عبد القادر الجيلاني (توفي عام ١١٦٦ م) أو ربما لقي صدفة بعض الكتب التي تتحدث عن «أهل الحقيقة» أو «العارفين» أو « المقربين » ، وربما وجد الكلمة العربية « المتصوف » وتعني الشخص الذي يجاهد ليصبح متصوفاً .

وهناك جماعات يطلق عليها اسم « البناة » أو « الملامتية » ، كما أن بعض الجماعات الأخرى تمثل معتقدات وجمعيات غربية كالماسونية[٢] على أن هذه الأسماء تبدو غريبة أو غير مستحبة للإنسان الغربي المعاصر ، وهذه وحدها مشكلة نفسية رغم كونها خفية .

وربما اتجه الطالب أو المستفسر نحو كلمة « الصوفي » نفسها لعدم وجود تسمية موحدة للتصوف ، فيتبين أنها كلمة شائعة بدأ استخدامها منذ ألف سنة خلت[٣] ، سواء في الشرق الاوسط أو في أوربا الغربية[٤] .

ولا زالت كلمة الصوفية تستعمل كوصف لخلاصة أفكار وممارسات معينة لكنها ليست محددة بما يطلق عليه الناس اسم « الدين » .

إذن فالطالب يجد أكثر من تعريف للكلمة ، لكن مشكلته الآن اصبحت معكوسة ، فبدلاً من التوصل إلى إسم مجرد لا ينتمي إلى فترة زمنية ، يحصل على تفسيرات عديدة لكلمة « الصوفي » بحيث لا يتوصل إلى تفسير موحد على الإطلاق .

إن كلمة « صوفي » كما يقول أكثر المؤلفين الذين كتبوا عن التصوف ، مشتقة من الكلمة العربية « صوف » وتعني المادة أو النسيج الذي تصنع منه

الألبسة البسيطة التي كان يرتديها أهل الحقيقة من المتصوفين المسلمين[٥] .

وقيل إن هذه الألبسة صنعت من الصوف تقليداً للباس الزاهدين من المسيحيين الذين كانت تعج بهم الصحارى في سوريا ومصر وغيرهما من بلدان الشرقين الأدنى والأوسط .

على أن هذا التعريف ، رغم كونه مقبولاً ، لا يحل المشكلة بالنسبة للتسمية ، ناهيك عن الأفكار الصوفية التي تعبر عنها الصوفية .

كذلك فإن اللغويين يؤكدون أيضاً بأن الصوف يقصد به ما يكسو الحيوانات[٦] ، وبأن هدف الصوفي أو المتصوف هو الاتجاه نحو الكمال أو ارتقاء العقل البشري ، وليس منافسة الحيوان .

غير أن المتصوفين وهم من برعوا في الرمز ، لم يستخدموا هذه التسمية ، كذلك هناك الحقيقة المحيرة وهي أن أصحاب المجلس[٧] أو (إخوان الصفا) اشتق لقبهم هذا من عبارة (أصحاب الصفاء) ، ويعتقد أنهم من أهل الحقيقة زمن الرسول (ص) الذي توفي عام ٦٣٢ م) وقد كونوا جماعة خفية أو سرية في عام ٦٢٣ م ، وهناك آراء لبعض علماء النحو تشير إلى احتمال اشتقاق كلمة « صوفي » في الأصل من كلمة (صفوة أو صافٍ وهي مختصرة من كلمة الصفوة أي النخبة من الشرفاء) .

لكن بعض الباحثين ارتابوا في هذه الآراء بحجة أن الأسماء المستعارة لا تتقيد بقواعد علم الإملاء .

إذن فالاسم اكتسب أهميته بما يقدمه من آراء متنوعة عن الصوفية ومعانيها المختلفة ، وسنرى هذه المعاني والآراء فيما يلي :

يعتقد الصوفيون بأن نوعاً معيناً من التفكير يمكن أن يؤدي إلى رقي الفكر تحت ظروف محددة وبجهود خاصة ، وينتج عنه قدرات متميزة تبدو كامنة في الإنسان العادي[٨] ، ومن هنا فإن التصوف هو التعالي عن الحدود العادية .

فليس من المدهش إذن أن يرتبط معنى كلمة الصوفي في أذهان بعضهم بمعنى الكلمة اليونانية التي كان يُعبر بها بعضهم عن الحكمة الإلهية (Sofia) والكلمة العبرية القبلانية[أ] Ain Sof (اللامتناهي المطلق) .

وربما تفاقمت المشكلة للطالب عندما يصل إلى هذه المرحلة من البحث فيجد في مصدر موثوق هو « دائرة المعارف اليهودية » أن العلماء اليهود يعتبرون أن طائفتي (القبالا والهاسيديم) وهي من الطوائف اليهودية المتصوفة ، من أصل صوفي[٩] .

ولن يتشجع الطالب إذا عرف أن الصوفيين أنفسهم يقولون أن معرفتهم امتدت آلافاً من السنين ، وينكرون أن تكون أفكارهم قد اشتقت من الأفكار الأخرى ، ويؤكدون أنها تشبه[ب] الهرمسية والأفلاطونية والفيثاغورثية[١٠] .

ويمضي الطالب في حيرته ، ولكن لا بأس ، فقد التقط شيئاً من الضوء حول المشاكل التي قد يتعرض لها الباحث في الأفكار الصوفية ، واكتشف بنفسه الصراع الجدلي للباحثين في هذه القضية .

وربما كان الملاذ المتوقع هو تقبل هذا الطالب لشروح وتفسيرات من اختصاصيين في الموضوع كالبروفسور « ر . P . نيكلسون » ، أو إذا أتجه بأسئلته واستفساراته لأحد المتصوفين ليجيبه عليها .

ويرد بعض الباحثين الأوربيين كلمة الصوفية إلى الأصل اليوناني للكلمة وهو « سوفوس » أي « الثيوصوفية »[١١] ، كما يذكر لنا نيكولسون .

لكن « نولدكه Nöldeke » بيّن أن الكلمة مشتقة من الصوف ، وأنها كانت في الأصل تشير إلى زهاد المسلمين الذين تشبهوا برهبان النصارى في ارتدائهم

(أ) القبلانية : فلسفة دينية سرية لدى أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط ، مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً .

(ب) الهرمسية : مجموعة من الآراء مدونة في كتب مصرية قديمة ، سميت بهذا الإسم نسبة إلى هرمس وهو الإسم الذي أطلقه اليونان على الإله المصري تحوت .

غليظ الصوف ، دليل ندمهم على ما فعلوا من ذنوب ، وعلى نبذهم متاع الحياة الدنيا[١٢] .

وقد نشر الكتاب الذي جاءت فيه هذه الفكرة المميزة ، إن لم تكن مجازفة عام ١٩١٤ ، وقدم نيكلسون قبل ذلك بأربع سنوات ترجمته لكتاب « الرؤيا ، أو الكشف Revelation ، وهو من أقدم الدراسات عن التصوف باللغة الفارسية ، وضعه الهجويري في القرن الحادي عشر ويعد من أوثق النصوص المتعلقة بالتصوف ، ويوضح « الهجويري » في كتابه (وقد نقله نيكلسون في ترجمته الانجليزية) ، أن كلمة « الصوفي » Sufi ليست اشتقاقاً[١٣] ، لكن نيكلسون تجاهل هذا الرأي ولم يبد دهشته ، ولكن ربما اهتدى إلى رأي هام حول الصوفية فقد فكر بأن أي كلمة في اللغة لا بد أن يكون لها اشتقاق ، لكنه انصرف عن هذه المسألة ، رغم إدراكه في شعوره الباطن أن مسألة « عدم الاشتقاق » متعذرة ، فاستمر في البحث عن اشتقاق الكلمة .

أما المفكرون أمثال « نولدكه » أو غيره فربما يفضلون تقبل كلمة « الصوف » على الخوض في مسألة « عدم الاشتقاق » .

وهذا هو السبب الأكيد وراء قول الأب الدومينيكاني العالم سيبريان رايس «Cyprian Rice» (وهو تلميذ نيكولسون وأحد المعجبين به) ، بعد نصف قرن من نشر الترجمة الانجليزية لكتاب الهجويري :

- « . . . ومن عادتهم في لبس الملابس الصوفية الخشنة عرفوا بالصوفيين »[١٤] .

على أنه ربما كان حل هذا الاشكال أو التناقض الظاهري بين وجود كلمة ما وعدم وجود اشتقاق لها في أيدي المتصوفين أنفسهم أو من هم قريبون منهم ومطلعين على تدريباتهم وتراثهم الشفوي .

ومهما يكن من أمر فإن الصوفيين ينظرون إلى أصوات الحروف ص و ف

على أنها ذات مغزى وتأثير على الذهن ، ومن هنا فإن المتصوفة هم أصحاب « الصُوف » .

وبعد أن ناقشنا هذه المشكلة المحيرة (التي توضح الصعوبات التي تعترض طريق الفهم الصحيح للأفكار الصوفية عندما ينظر إليها المرء نظرة معينة) ، تبرز لنا مشكلة جديدة تحل محل المشكلة السابقة ، إذ على المفكر المعاصر أن يهتم بتفسير الفكرة التي تقول بأن الصوت يؤثر على عقل المرء ، ولكن ضمن الحدود التي يرسمها بنفسه ، وربما تقبلها من الناحية النظرية طالما من الممكن التعبير عنها بعبارات مسلم بها لدى تبادل الرأي[١٥] .

فإذا قلنا إن للأصوات تأثيراً على الإنسان فهي تتيح له الفرصة لاكتساب خبرات ما وراء الطبيعة ، بيد أن هذا المفكر ربما ألح لدى سماعه هذا على أنه مجرد إيمان بالقوى الخفية وكلام بدائي كالكلام عن ترتيب الكلمات : أو م - ماني - پادم - هوم ، أبراكادابرا » وغيرها .

على أننا إذا لم نتخذ الجانب الموضوعي بل اتخذنا الوجه الحالي للفكر المقبول يمكن أن نقول له بدلاً من ذلك ما يلي :

إن العقل البشري يمكن تشبيهه بحاسب آلي (كومبيوتر) ، فهذا الحاسب يستجيب لتأثيرات ذبذبات الصوت والنظر واللمس وما إلى ذلك ، وفقاً لطرق مبرمجة أو معدة ، ويتشبث آخرون بالرأي الذي يقول إن الأصوات الممثلة بالرموز (ص وف) تخضع كغيرها للاستجابة التي يبرمج لها العقل .

إذن يمكن للمفكر أن يضم هذا المثال البسيط إلى أسلوبه الحالي في التفكير .

إن المشكلة الخاصة بدراسة الفكر الصوفي تكمن في أن كثيراً من التواقين للقيام بهذه الدراسة ليسوا في الحقيقة على استعداد للتفكير في وجود خلافات بين المتصوفين حول الصوفية وذلك لأسباب نفسية .

ولا يسعنا في هذا الوصف البسيط أن نلم بهذه الخلافات التي أثبتتها تجارب كثيرة لبعض الأشخاص .

كما أن ميل الشخص الذي يقوم بدراسة الفكر الصوفي للرفض التام لهذه الآراء لن يساعد في حل المشكلة ، إذ أن جوابه المعتاد هو الجواب التالي :

« إن التفكير بالمصطلح الذي تقترحه ربما حطم أسلوبي الثابت في التفكير » .

ومثل هذا الشخص مخطىء تماماً في اعتقاده ؛ فهو بالنسبة للصوفي رجل يستخف بقدراته الخاصة .

وربما لجأ هذا الشخص إلى محاولة أخرى هي تفسير أو إعادة شرح الأفكار الصوفية التي قدمت له بلغة (أنثروبولوجية ، إجتماعية ، سفسطائية نفسية) تقترب من مفهومه .

وفيما يتعلق بالمثال الذي طرحناه يمكن التعبير عن الموضوع بالعبارة التالية :

ـ « نعم ، لقد أوضحت نظرية تأثير الصوت هذه ضرورة الرجوع إلى الاشتقاق الأكثر دنيوية وهو الصوف » .

على أن هذا النمط من التفكير لن ينجح على نطاق واسع ، فالأفكار الصوفية متواجدة في دراسات أكثر من خمسين مليوناً من المفكرين الأحياء الذين يرتبطون بطريقة ما بالتصوف ، إلى جانب وجودها بين الجماعات البدائية أو في طيات كتب بلغات غير حية .

حدود الدراسات المعاصرة للتصوف :

إن مشكلة الدراسات المعاصرة للتصوف تتمثل في الميل الشديد حاليا لتصنيف جميع الناس والأشياء والأفكار في فئات خاصة أو طبقات محددة .

وربما كان هذا التصنيف إلى فئات جيداً ، فمن يمكنه أن يستغني عن ذلك ؟

ولكن عندما ندرس أي موضوع من الموضوعات ويكون هناك أختيار محدد للعنوان ، يبدو الأمر مشابهاً لقول « هنري فورد » عند إختيار إحدى السيارات لأحد الزبائن :

ـ « يمكنك أن تأخذ أي سيارة ملونة بشرط أن تكون سوداء اللون » .

ويبدو أن المتسائل غير دار بهذه المشكلة وانشغاله ببضع فئات يشابه مشكلة الصوفي عندما يحاول نقل أفكاره الخاصة في ظروف غير مواتية .

وفيما يلي مثال توضيحي اختير من تجربة حديثة وأقدمه لأنه سيعطينا عَرَضاً وليس في « نمط » معين شيئاً ما عن الأفكار الصوفية لدى المتصوفين .

فقد ذكرتُ في كتاب نشر لي مؤخراً[١٦] أن الأفكار الصوفية وبعض النصوص التي نقلت حرفياً عنها ، مأخوذة من تعاليم ونظريات متنوعة كتعاليم الفروسية (في العصور الوسطى) ، وتعاليم الأشخاص التالية أسماؤهم :

القديس جون الصليبي[١٧] ، القديسة تيريزا من أڤيلا[١٨] ، روجر باكون ، جيبر[١٩] Geber أب الكيمياء الحديثة[٢٠] الملقب بالصوفي ، رايموند لولي الماجوركي[٢١] ، جورو ناناك Guru Nanak مؤسس السيخية[٢٢] ، جستارو مانوروم[٢٣] ، بالإضافة إلى التعاليم الهندية الڤيدانتية[٢٤] .

وهناك أيضاً بعض الإجراءات النفسية الفاسدة التي تسربت إلى الأدب الغربي الخاص بالسحر والشعوذة[٢٥] ، علاوة على الأفكار النفسية الحقيقية التي يُعتقد أنها اكتشافات حديثة[٢٦] .

ولقد أدى ظهور هذا الكتاب « الطريقة الصوفية » إلى ردود فعل متفاوتة ومميزة لدى النقاد وغيرهم[٢٧] ، فافتتن به بعضهم لا لبواعث طيبة في كل الأحوال ، غير أنني أقصد بهذا الكلام بعضهم الآخر .

لقد جمعت واستخلصت في كتابي هذا النتائج التي أسفرت عنها الدراسات العلمية التي أعدها هؤلاء الباحثون ، وكثيراً ما كانت هذه النتائج دفينة في الرسائل العلمية والكتب التي لا تقرأ إلا نادراً ، ومعظم الدراسات أعدها مستشرقون واختصاصيون في الموضوع .

ولقد أتيت بمادة « حية » من المصادر الصوفية نفسها وكانت هذه المادة كثيرة جداً وغنية في نظر بعض القراء ، رغم أنها مختارات من الكتب التي ألفها علماء التصوف ، ومع هذا فقد كان لكثير من النقاد اطلاع جيد على عمل يقع ضمن دائرة اختصاصهم .

وقد كان لأحد الاختصاصيين المعروفين بعض التحفظات حول عملي ، فضلا عن أولئك الذين هاجموا ما ظنوا هم أنهم وجدوه في عملي !

وفي حديث لي مع اختصاصي بالموضوع بعد ذلك بفترة وجيزة ، ذكرتُ أنني لم أقتصر في بحثي على مصادر موثوقة كمؤلفات البروفسور آسين Asin ولانداو Landau وريبيرا Ribera وتاراشاند Tara Chand وغليوم Guillaume ، وغيرهم من الباحثين البارزين فحسب ، وضمنت اسماءهم في دراستي وأسماء كتبهم ، بل اقتبست في بعض الأحيان من كتب ألفها بعض الباحثين القدماء أمثال « لولي » Lully ، وباكون وجيبر وغيرهم من الذين تحدثوا عن المتصوفين وكتبهم أو بحثوا في التصوف بصفة خاصة .

ولم يكن رد الفعل عند هذا الخبير تأييدي في أن الخبراء في الموضوع يجب أن يكونوا أشد ثقة بعملهم ، لكنه أخذ يكرر اسم الشخص الذي انتقدني ، ثم استند إلى مقعده وضحك ضحكة خافتة ثم قال :

ـ « لقد عرفتَه الآن ، فأمامك اختياران ، إما أن تدحض آراءه أو أن تتقبل عمله » .

وقد افترضت أن القراء سيتناولون الكتاب بعناية وأن الحقائق الموجودة فيه

ستكون حجة في الرد على المتقدين ، وذلك كان «الخطأ» في تناول الموضوع ، بدلاً من ذكر المصدر وبناء « حجة » قوية لا يمكن مهاجمتها خطوة فخطوة .

وزعم صديقي أنني خططت لعزل أحد المؤلفين الموثوقين فلم أذكره في كتابي ، أما الناقد الأصلي فقد اندفع أيضاً في الهجوم مفترضاً ، وهذا أيضاً خطأ ، أنني أغفلت مادة جيدة ، لأنني لم أكرر بعض الآراء باندفاع .

وما يدعو للدهشة أكثر ، بالنسبة للمشاكل التي يتعرض لها المرء في دراسة الأفكار الصوفية ، وجود من يدرسون هذه المشاكل ممن هم على اطلاع بالمصادر العلمية المتوفرة وإن لم يكونوا اختصاصيين في الموضوع .

ومن هنا ، لو نظرنا لما شاع في المؤلفات الغربية ، نجد على سبيل المثال أحد المؤلفين وهو أستاذ يكتب حول فلاسفة الشرق(٢٨) ، فتتبين أنه من بين مائة ألف كلمة توجد فقط حوالي ثلاثة آلاف كلمة عن التصوف (أي صفحة واحدة من ثلاثمائة صفحة في الكتاب) .

وقد ألف هذا الأستاذ أيضاً كتاباً عن فلاسفة الغرب(٢٩) ، ورغم تأثر المفكرين الشرقيين والغربيين على حد سواء بالصوفية فقد أغفل هذا التأثر ولم يشر إليه إطلاقاً .

وللفيلسوف الانجليزي الكبير « برتراند راسل » أيضاً كتاب هام بعنوان « حكمة الغرب » Wisdom of The West(٣٠)، ذكرفيه مفكرين من الغرب كانت علاقتهم بالفكر الصوفي واضحة ، غير أنه لم يذكر شيئاً عن التصوف أو الصوفيين .

ويمكن القول بأن هذه الكتب موجهة بصفة عامة للقارىء العادي وقد ألفها باحثون ، إلا أنها تفتقر إلى بعض المعلومات .

وأعتقد أنه لم يكن لدى القراء العاديين أو الدارسين من غير الشرقيين الذين

يرجعون إلى مثل هذه الكتب وسائل كافية لمعرفة ما تركه هؤلاء الباحثون في كتبهم التي ألفوها .

تحقيق المؤلفات الصوفية بالاتصال المباشر :

من الظواهر المكشوفة التي يواجهها أي شخص في دراسة الأفكار الصوفية التكرار المستمر لنظريات ليس لها برهان أو تأكيد ، قدمت على أنها حقائق من قبل « اختصاصيين » في الموضوع أو آخرين ممن يفتقرون إلى الموضوعية .

إن دراسة الصوفية تقوم أساساً على الاتصال المباشر ومن المعروف أن الأفكار الصوفية تنتقل إما بالرمز أو بالإشارة أو بالدليل الواضح) وعندما نفتقر إلى هذا العنصر في دراستنا ونعتمد على الكتب فقط ، في هذه الحالة نكون تحت رحمة أولئك الذين يقدمون لنا كل الآراء الذاتية[٣١] .

وهناك من يقول إن الصوفية نشأت عن الإسلام ، ومنهم بعض المدافعين عن الصوفيين الذين يكتبون حول هذا الموضوع لأسباب حميدة .

ويقول آخرون أنها نشأت على العكس من ذلك ، كرد فعل ضد الاتجاه الإسلامي ، ويعتقد بعض الدارسين أن أفكار التصوف أخذت عن المسيحية ، وآخرون يعزونها إلى الثنائية أو الثنوية الفارسية[أ] ، أو إلى الصين أو الهند ، وينفي بعضهم ذلك .

وهناك من يؤيد النظرية التي تقول بأنها نشأت عن الأفلاطونية المحدثة أو الشامانية[ب] ، وهناك مزيد من هذه الأقوال او الآراء .

ويبدو الأمر كما لو أن أشخاصاً يتناقشون في أن الحديد يأتي من السويد أو من اليابان . . .

(أ) مذهب يقول بوجود مبدأين يديران العالم/ المترجمة .

(ب) دين بدائي من أديان شمالي آسيا وأوربا يتميز بالإعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف/ المترجمة .

ويمكننا أن ندعو الأفكار الصوفية « علم نفس » ، لا لأن هذه الكلمة تصف الصوفية بشكل وافٍ ، بل لأن كلمة « الحكمة » ليست كلمة شائعة في الوقت الحاضر .

ومع ذلك فيجب التنويه بأن واضعي المعاجم لا يفهمون ما نرمي إليه ، وهذا هو السبب في صعوبة فهم الأفكار الصوفية .

وبالنسبة لمشكلة الدراسات الموجودة فإن الصوفية تؤيد كثيراً منها ، ويمكننا أن نجد مادة مأخوذة من الصوفية وأفكاراً متميزة منها ، كما نجد أساليب وحكايات وأساطير وأحياناً أشعار للمتصوفين وتتمثل هذه الأشعار في ظاهرة التروبادور[٣٢] ، وفي أسطورة وليم تل السويسرية[٣٣] ، وفي سحر الشرق الاوسط في « الملاك البراق »[٣٤] ولدى جوردجيف وأوزبنسكي[٣٥] ، ولدى موريس نيكول ، والسويدي داج هامرشولد[٣٦] ، وعند شكسبير[٣٧] ، وفي علم نفس « كينيث وولكر »[٣٨] ، وفي حكايات هانس كريستيان أندرسن[٣٩] ، وفي أعمال السير ريتشارد بيرتون (وهو نفسه متصوف على الطريقة القادرية)[٤٠] ، وفي سلسلة من الكتب صدرت حديثاً عن تعليم اللغة الانجليزية أصدرتها مطبعة جامعة أوكسفورد[٤١] ، وفي كتب الأطفال الحديثة[٤٢] ، وفي معتقدات « السحرة »[٤٣] ، وفي رموز الروزيكرو زيانيين[٤٤] ، وفي الإشراقية[٤٥][أ] ، وفي كثير من أعمال الباحثين في العصر الوسيط في الغرب[٤٦] ، وفي سحر طائفة البهاكتي لدى الهندوس[٤٧] رغم أن السحر شائع في الغرب كنظام تراثي هندوسي .

وفي الكتب الباطنية للمذهب الاسماعيلي[٤٨] ، وفي تعاليم الحشاشين[٤٩] ، أو في تعاليم وفنون « زن » ذات الأصل الياباني[٥٠] ، أو في تلك المؤلفات المعروفة بارتباطها باليوجا[٥١] ، وفي المادة المتعلقة بالفرسان تمبلر[٥٢] ، وفي الأدب النفسي وفي أعمال تشوسر ودانتي أليجيري[٥٤] .

(أ) نسبة إلى الإشراق وهو ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضانها بالإشراقات على النفوس عند تجردها .

وهكـذا فنحن هنا نعـدد المصادر لكننا لا نحصيها فهي أكثر من أن تحصى .

سوء فهم الأفكار والأقوال الصوفية :

ما هي الفكرة الصوفية ؟ وكيف يُعبر عنها ؟ وأين نجدها ؟

يمكن التعرف على كثير من الأفكار الصوفية بسهولة ويسر لأنها مأخوذة عن الصوفيين إما لمضمونها أو لعلاقتها الفعلية بالنصوص الفلسفية .

على أن المشكلة تكمن في عـدم وجـود تـدوين لبعض الأفكـار التي استطاعت أن تنفذ بعيداً وبعمق في نواحٍ كثيرة من الحياة والفكر في الشرق والغرب ، فليس هناك من يتقبل هـذا سـوى عقل الصوفي الـذي لا يفكر في المادة .

وتبعاً لذلك فإننا نطرح بعض السؤالات :

هل الصوفية أو التصوف نوع من أنواع السحر الشاماني ، هل هي فلسفة ، أم أنها دين أو جماعة باطنية ، وهل هي ممارسات شعوذة أم أنها المنبع الرئيسي لكل فنون الأدب والشعر ، وهل يمكن أن يكـون التصوف شيئاً شبيهاً بـالانظمة العسكرية كالفروسية مثلاً أم هو نوع من العمل التجاري أو السحر ؟

ويلتقي الطالب الـذي تعرف على أنماط خاصة وعامة من التصـوف بمشكلات جدية تتعلق بتحديد مواقع الأفكار والممارسات الصوفية في الشرق والغرب ، فهناك مثلاً مئات من الأشخاص في أوروبا وأمريكا يمارسون « رقص الدراويش ودوران المولوية » .

وهناك فـن دراويش يمكن التعرف إليه بسهولة[٥٥] ، فقد كانت ممارسة هـذا النوع من الرقص « محرمة » على شعب قونية في آسيا الصغرى ، وذلك لأسباب محلية ، وقد ذكر لنا جلال الدين الرومي هذا في كتاباته[٥٦] ، كذلك فإن

أولئك المتأثرين بالنمط الغربي الذي يتبع أسلوب « جوردجيف وأوزبنسكي » ومنهم ألوف من الناس لا يقرون بأن رياضاتهم وأساليبهم معروفة ومستخدمة في بعض المدارس الصوفية ، وهي مختلفة ، غير أنها أكثر ملاءمة للمجتمع .

ومن هنا فإن ما تحرزه الصوفية يتأثر بسبب سوء الفهم أو سوء الاستخدام ، وهناك ظاهرة حديثة أخذت تنتشر في الغرب هي ممارسة بعض الرياضات الروحية والأفكار التي يعرفها آلاف الناس هناك باسم « السوبود »[٥٧] ، وتقتفي هذه الأفكار أثر الطرق النقشبندية والقادرية ، لكنها في استعمالاتها الحديثة قلبت رأساً على عقب ، ففي الاجتماع الذي يعقده « السوبود » ويدعى لاتيهان[٥٨] ، ينتظر العضو في هذه الجماعة ممارسة بعض التدريبات التي يُعتقد أنها من تأثير الإله فيه ، وتختلف مواقف أفراد الجماعة فبعضهم قليل التأثر وبعضهم الآخر يتأثر تأثراً عميقاً ، وما يلفت الانتباه هو أن إتجاه « السوبود » يجعل للتجربة الروحية أثراً وقيمة ، فتجد كثيراً من الناس غير المتأثرين سائرين على غير هدى ، في حين أن البقية يترسخ إيمانهم بالحركة الصوفية .

أما فيما يتعلق بالأفكار والمجاهدات الصوفية فإن الأشخاص الذين لا يشعرون بالحالات الذاتية ، أو الذين مروا بها وتأثروا فيها ، ثم توقف إحساسهم بها يصبحون مؤهلين للوصول إلى المرحلة التالية[٥٩] من المقامات الصوفية ، وبالنسبة للمتصوف فإن الذي يجهل هذا يبدو كالرياضي الذي يحاول اختبار عضلاته ويظن أن التدريبات لم تعد مجدية له لأنه فقد الإحساس بقوة عضلاته . وتلك هي المشكلة الحقيقية التي تبرز أمام الطالب في دراسة الأفكار الصوفية الأصيلة من خلال هذه الأفكار الشائعة .

وكنتيجة لنقل هذه الأفكار ظهرت مصطلحات صوفية ، فلا يمكن للطالب أن يطرح جانباً « جماعة السوبود » في دراسته لموضوع التصوف .

وهناك مسألة أخرى خاصة بالتصوف تثير كثيراً من المعارضة وهي احتواء الأدب الصوفي لمادة أو أفكار تعد سابقة لزمانها ، ومعظم الكتب الصوفية التي

ترجمت إلى اللغات الغربية وهي كتب موثوقة ، تتضمن تعابير تبدو مفهومة على ضوء المكتشفات «الجديدة» في علم النفس ، بل إنها تشرح المكتشفات الفنية والعلمية وتبرزها .

وفي هذه الحالة تصبح الادعاءات التي كانت تبدو فيما مضى ، ادعاءات غريبة ومستحيلة ، أموراً ممكنة .

وقد ذكر لنا المستشرقون في الغرب وغيرهم من الباحثين ، أن كثيراً من المتصوفين قد تحدثوا عن أمور نفسية ونظريات في علم النفس وخطوات في المعالجة النفسية ، ومن هؤلاء المتصوفين جلال الدين الرومي (من الأفغان)(٦٠) وقد توفي عام ١٢٧٣ م ، والحكيم سنائي (من خراسان) وقد عاش في القرن الرابع عشر(٦١) ، والغزالي (من فارس)(٦٢) ، وقد توفي عام ١١١١ وابن العربي (ولد في اسبانيا) وقد توفي عام ١٢٤٠ م(٦٣) ، وربما لم تكن النظريات النفسية التي تحدث عنها هؤلاء مفهومة لو لم توجد « البنية الخلفية » المعاصرة لهذه الأفكار والنظريات في الغرب وقد سميت « الفرويدية » Freudian ، والجونجية Jungian وغير ذلك من التسميات .

وكان الناس ينظرون الى ادعاءات الصوفية بأن الإنسان نشأ من البحر وأنه تطور عبر فترة هائلة من الزمن ، على أنها هراء ، حتى وضع أصحاب النظرية الداروينية يدهم على هذا الموضوع (٦٤) وهم مسرورون .

كذلك فإن في الصوفية إشارة إلى القوى الكامنة في الذرة(٦٥) ، وإلى « البعد الرابع »(٦٦) وإلى « النسبية »(٦٧) ، وإلى غزو الفضاء(٦٨) ، وإلى التخاطر Telekinesis ؛ وتختلف النظرة إلى هذه الأمور فتارة تعد حقائق وتعزى في أحيان أخرى إلى تفسيرات علمية أو قدرات انسانية في الحاضر والمستقبل . ويمكن الحكم على المعرفة التي أحرزها الصوفيون في الماضي وغيرها من الظواهر المماثلة على ضوء ما توصل إليه العلم في الوقت الحاضر ، أو ربما لا زالت بحاجة إلى بعض التحقيق من قبل العلماء .

وقد ذكر « ابن العربي » منذ سبعمائة عـام ، أن عمر الإنسـان المفكر يعـود إلى أربعين ألف سنة ، بينما تقرر العقائد اليهودية والمسيحية والإسلامية أن تاريخ الخليقة لا يتجاوز أربع أو ستة آلاف سنة حسب « التواريخ » المدونة ، ومع ذلك فإن بعض البحوث والدراسات الحـديثة تعيـد تاريـخ الإنسان إلى مـا قبل (٣٥) ألف سنة على وجه التقريب[٦٩] .

ومن الأمور السخيفة التي لا تزال موجودة في بعض الدوائر الصوفيـة إصرار بعض المؤلفات على مخاطر الهواجس المنغرسة في نفوس الناس ، كذلك إشارة هذه المؤلفات الى الخلط ما بين المعرفة والعاطفة من جهة والمواهب الروحية من جهة أخرى ، وإلى الخوف الذي يشعر به المتعصبون للدين .

وقد أصبح لدى كثير من الناس معرفة تفوق معرفة رجـال الدين في العقـود القليلة الماضية[٧٠] .

والمشكلة الثـانيـة هي أنــه رغم أن العلمـاء سيتــظرون التحقق من هـذه الكتابات أو ينقبون فيها ، فـإن المشتغلين بالقـوى الخفية من السـذج سيتجمعون حـول « الصوفي » الـذي يتحدث عن هـذه الأمور ويعـزوها إلى التصـوف ، فهي تتطلب معرفة الأمور الخفية والسيطرة على النفس ودرجة عالية من الشعور وما إلى ذلك . .

ويبدو أن هؤلاء الناس الاتكاليون وغير المتزنين في بعض الأحيان ، مصدر إشكال بالنسبة للصوفي يفوق ما يثيره الشكوكيون من إشكال .

أما المؤمنون فيثيرون إشكالاً أيضاً ، لأنهم عندما يعجزون عن التوصل إلى المعرفة السحرية السهلة يتحـولون إلى تلك الجمـاعات (ذات الأهـداف الحسنة ومـا إلى ذلـك) التي تبـدو في نـظرهم قـادرة على إرضـاء تعـطشهم إلى معـرفـة المجهـول أو غير العـادي ؛ أو التي تقدم لهم « طرقاً مختصـرة » ، ولا ننفي أننا نستخدم العبارة التالية ولكن مع شيء من التعديل :

« مهما يكن من أمر ، فقد أعد أهـل البدايـات من الصوفيـة طرقـاً مختصرة

للوصول إلى معرفة الله ، إن السبل المؤدية إلى الله هي بقدر عدد أرواح الناس[٧١] » .

ويوجد مثل هذه الجماعات أو الهيئات في بريطانيا وأمريكا ، فإذا طالعت المؤلفات الصادرة عنها فإنك تجد مثلاً مطبوعاً يتضمن ادعاءاً بأن المتصوفين يفضلون الحمية الغذائية على المواد النباتية ، وأن التلاميذ يجب أن لا يتمسكوا بأي «عقيدة أو لون أو طائفة» قبل تنمية [القوى الخفية] الموجودة لديهم» .

أما الحركات الأخرى التي أطلقت على نفسها اسم الصوفية فكل منها تجعل من مؤسسها مثلاً أو نموذجاً للكمال الإنساني ، وتتيح لأتباعها مجموعة من الطقوس الدينية لممارستها .

وتقوم أكثر من جماعة من هذه الجماعات بإقامة الحفلات الموسيقية التي تلقي السالك في خضم نشوة كبيرة ، على الرغم من وجود تعاليم في بعض المؤلفات بأن الموسيقى غير مستحبة[٧٢] ، وما يهم الصوفية هو هذه التعاليم لا المعلم نفسه .

ومن هنا فإن المكاسب في التعاليم الصوفية تتأثر بالخسائر التي سببها الممارسة الخاطئة والمطالعة المتحيزة .

ولقد أدت الهجرات الآسيوية ـ العربية (ومعظمها من عدن والصومال) ، وهجرة الهنود والباكستانيين إلى بريطانيا ـ إلى ظهور شكل آخر من أشكال « التصوف » يتركز في جماعات من المسلمين المتعصبين الذين يجتمعون لأداء الصلاة الجماعية التي تثير وجدانهم وتحدث فيهم نوعاً من التنفيس ، وهي جماعات تستخدم مصطلحات أهل التصوف وما شابهها ، ولها فروع كثيرة في المدن الصناعية والموانىء في بريطانيا .

ولم تعد المشكلة مقتصرة على المشاركين في الدراسات الصوفية الذين لن

يتمكنوا من البحث في الأفكار الصوفية (طالما أن لديهم اعتقاد بأنهم يحيطون بها إحاطة تامة) ، لكن هناك أشخاصاً كعلماء الاجتماع أو الانثروبولوجيا أو أشخاصاً عاديين لا يدركون أن هذه الجماعات لا تمثل الصوفية على الإطلاق ، كما أن المسيحية لا تتمثل في ملاعبة الثعبان أو في ممارسة لعبة البنجو Bingo في الرياضيات .

وهنا نعيد القول بأن المكاسب التي تحرزها الصوفية زهيدة جداً ؛ أما الخسارة فهي ليست قليلة .

إن هذه الحلقات الدينية كغيرها من الحلقات أو الجماعات في العالم الإسلامي الممتد من مراكش إلى يافا ، هي جماعات من المتعصبين للدين الذين يتخذون لعبادتهم شكلاً صوفياً .

وتتألف بعض هذه الجماعات من أشخاص هستيريين ، أما بعضهم الآخر فلم يسمع عن أي شكل من أشكال التصوف[٧٣] ، ويبدو لهم ما يقوله « ابن العربي » عن « الملائكة » مثلاً ، بأنها « قوى تتخفى في قدرات الإنسان » ، انتهاكاً للمقدسات ، ومع ذلك فهم يحترمون « ابن العربي »[٧٤] .

وليس من المستحيل أن ينظر الباحثون إلى هؤلاء كمتصوفين حقيقيين أو ممثلين للأفكار الصوفية (وذلك للجوئهم إلى أساليب الدعاية الحديثة ونشر المال الكافي والحماس المطلق) .

وربما كان من الصواب أن نقول إن الدين قضية كبيرة وأكثر أهمية من أن تترك لاشخاص ليس لديهم الخبرة الكافية أو لرجال الدين فهؤلاء يميلون إلى « خلط » التقى بالتصوف ، وهذا خطأ قديم ، فقد كان « الغزالي » في نظر الغرب عالماً في اللاهوت أو في الدين واسع الأفق ، عاش في فترة العصور الوسطى ، أما القديس « ياهوسافات » St. Jehosaphat فيعد بالنسبة لهم كبوذا ، وقيل أيضاً إن القديس شارلا مبوس St. Charlambos المعروف عند اليونان لم يكن إلا الحاج بكتاش معلم الدراويش ومؤسس الطريقة البكتاشية[٧٥] Bektashis ، أما

القديس المسيحي « ثيرابيون » الذي عاش في القرن الخامس عشر فهو الشاعر الدرويش «ترابي»[٧٦] .

ونلمس مثل هذه التحويرات في بلدان الشرق حيث يتخطى المتحمسون أهل التصوف ويؤكدون أن التصوف الحقيقي يتمثل في سلوكهم الغريب ، وقد أدى هذا بدوره إلى وجود مشكلة حساسة لم يدركها كثير من الغربيين المشغوفين بالتراث الصوفي ، فكان التلاميذ يواجهون الأمر إما ببرد فعل قوي أو بقبول تام ودون توجيه أي نقد ، وذلك بعد اقتناعهم بأن هذه هي الصوفية .

وفي بريطانيا كما في غيرها من البلدان الغربية أمثلة على « التحول الصوفي الزمني » ويبدو أحياناً في هيئة أشخاص ليسوا على جانب من الأهمية مستعدين للهجوم على المطبوع من المؤلفات « للبرهنة » على أن بعض القوى الخفية التي شاهدوها لدى المجذوبين من المتصوفين قد استعملت في الغرب[٧٧] . وربما لم يكن من الغريب مقارنة هذا الوضع بوضع منطقة متخلفة مثلاً وصلت إليها الأفكار التقدمية لكن سكانها لم يفهموا هذه الأفكار إلا فهماً سطحياً لافتقارهم إلى المعلومات المنهجية الصحيحة فاتبعوها دون فهم عميق .

ويميل المرء للتفكير«بجماعات الكارجو»Cargo Cults[٧٨] ، وهي جماعات أقل تحضراً ، ويبني أتباعها سفناً هوائية من الصفيح أو القصدير معتقدين أن بإمكانهم صنع الأعاجيب من الأشياء الطيبة التي تمدهم بها السماء[٧٩] .

ومع ذلك فليست هناك حاجة حقيقية لمعلومات أساسية فيما يتعلق بالأفكار الصوفية ، كما أن هناك الكثير من المعلومات لم يُبحث فيها ولم يستوعبها أولئك الذين كان يمكنهم ذلك .

وهناك مشكلة هامة أيضاً هي تعدد الأماكن التي ظهرت فيها المؤلفات الصوفية ، إذ توجد كتابات عديدة عن الصوفية والمتصوفين نشر بعضها بعد قيام مؤلفيها بالمراقبة الممتازة والاستقصاء والعمل الميداني في كل من آسيا وأفريقيا وأوربا ، وتظهر هذه الكتابات الصوفية في الصحف العامة من حين لآخر ، على

أن هذه الكتابات يمكن إغفالها لأنها ليست دائماً بأقلام اختصاصيين معروفين ، أو لأنها أبصرت النور في مجلة غير موثوقة في هذا « المجال » ، وفيما يلي مقتطفات من بعض الأمثلة الحديثة : فقد وصف الكاتب « أ . م . بورك O.M.Burke في مجلة « بلاكوود[٨٠] « «Blackwood's magazine» ، في مقالين رائعين نشرا في عددين عامي ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، أفكار الصوفيين وتدريباتهم في الباكستان ومراكش وتونس وغيرها من البلدان ، وقد أبرز النظريات والرياضات الصوفية المعروفة جيداً في التصوف والتي قد لا تتواجد دوماً في المؤلفات التي تتحدث عن التصوف بشكل مباشر .

وظهرت في عام ١٩٦١ في إحدى الصحف في مدينة نيودلهي دراسة جيدة[٨١] عن المعتقدات والأفكار الصوفية في باريس ، كما نشرت إحدى الدراسات التي صُورت فيها بدقة الأفكار الصوفية وبرامج المعالجة النفسية في مجتمع المتصوفين بآسيا الوسطى وما تفرع عنها في سائر أنحاء العالم ، وكان الكاتب هو أحد العلماء المصريين في الفيزياء ، وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة علمية متخصصة عام ١٩٦٢[٨٢] .

على أن كتب المستشرقين لا تتضمن مثل هذه الدراسات ومثلها الكتب التي وضعها أولئك المعنيون بالقوى الخفية .

وهناك مقالة هامة كتبها شخص آخر ، وناقش فيها التراث الشفهي الحي « للتعاليم الباطنية » في الشرقين الأوسط والأقصى ، وقد نشرت هذه المقالة عام (١٩٦٠) في «المجلة المعاصرة»[٨٣] The Contemporary Review ولكن لم يشر أحد قبل الآن إلى هذه المقالة ، كذلك نشرت دراسات عن الأفكار والرياضات الصوفية وذلك لدى جماعة كبيرة من الهندو ـ كوش Hindu-Kush ، ومنها فروع في أوربا ، وتتميز هذه الدراسات بأنها موثوقة ، إلا أن النسيان كاد يطويها لحشرها في مجلة «السيدة[٨٤] The Lady » وهي إحدى المجلات النسائية الأسبوعية[٨٥] . وكتب أحد مراسلي جريدة « التايمز » Times عن الأفكار والرياضات الصوفية في أفغانستان وفروع الجماعات الصوفية في العالم العربي[٨٦] ،

وذلـك عام (١٩٦٤) ، ولكن لا يبـدو أن هـذا المقـال القيم سيشكـل جـزءاً من الأدب الصوفي الرسمي .

وظهـر مقـالان حـول التصـوف في مجلة « هي »[٨٧] نشـر الأول عـام (١٩٦٣) ، والثاني عام (١٩٦٥) ، وتعود أهميتهما إلى احتـوائهما على بعض الحقائق الهامة التي لم يسبق تدوينها من قبل .

أشكال النشاط الصوفي :

ماذا أيضاً عن تعاليم الصوفية ؟ كيف يمارسها أتباعهـا ، وما هي المشـاكل الخاصة التي قـد تعترض طـريق الراغبين في دراسـة أفكارهـا من أحد مصـادرها المعروفة ؟ يقول الصوفيـون بوجـود شكـل من أشكـال المعرفـة التي يصل إليهـا الإنسان ، وهذا الشكـل في تنظيمـه كمرحلة النضـج بالنسبـة لعالم الـطفولـة في التعليم المدرسي .

لننظر مثلاً في قول الغزالي :

« ليس لدى الطفل معرفة بما يتوصل إليه الكبير ، كما أنه لا يتسنى للانسان العادي أن يفهم ما توصل إليه العالم ، وبالطريقـة نفسها ، لا يستـطيع المتعلم أو العـالم أن يتفهم التـدريبـات والـريـاضـات الـروحيـة لـلأوليـاء المستنيـرين أو المتصوفين »[٨٨] .

وهذا المفهوم لا يتوصل إليـه الباحث بسرعة ، كما أن هذه ليست مشكلة جديدة ، وقد بين « الغزالي » في القرن الحادي عشر لأصحاب المنهج المدرسي أن الأسلوب الـذي اتبعوه في المعـرفـة لا يـرتقي إلى مستـوى أسلوب الصـوفيين الذين كانت لهم تجارب عميقة كتجاربه ، فقد نقل المعارف الإسلاميـة واستطاع أن يصـد هجـوم الفلسفـة اليونـانية ، وبـذلك أنقـذ العلمـاء والفقهـاء المسلمين ، وأصبح لهؤلاء إماماً ، ولا زال أتباعهم يُـدَرِّسون تفسيـراته كعـالم إسلامي على الـرغم من قولـه بأن الأسلوب الأكـاديمي لا يكفي وهـو أقـل شـأنـاً من المعـرفـة الحقيقية .

أما جلال الدين الرومي الشاعر المتصوف فقد كان يقول للحاضرين في مجلسه أن الشعر الذي كان يقدمه لهم كضيافة من كريم يقدم لضيوفه ما يطلبونه ، وكان يقول أيضاً : لكن الشعر يعد شيئاً بسيطاً إذا قارناه بالتطور الكبير الذي أحرزه الإنسان » .

ورغم مرور سبعمائة عام تقريباً على هذا القول للرومي فلا يزال له تأثير بملاحظاته اللاذعة ، فمنذ فترة قريبة أثار هذا القول أحد النقاد الذين يكتبون في إحدى المجلات البريطانية المعروفة ، وكان قد عثر على قول الرومي في إحدى الكتب المترجمة عن التصوف فعلق قائلاً :

« ربما فكر الرومي بأن الشعر تافه ، وأنا أظن أن شعره هو الذي يبدو تافهاً في هذه الترجمة » .

وليس المقصود من الأفكار الصوفية بوضعها في هذا الشكل أن تتحدى الإنسان لكنها تزوده بهدف أسمى وتأخذ بيده ليدرك أن هناك مهاماً راقية للفكر أنتجت عمالقة في التصوف .

ومن الطبيعي أن يكون هناك تضارب مثير للنزاع حول هذه الفكرة ، ولهذا السبب يقول الصوفيون إن الناس في الحقيقة لا يرغبون في المعرفة التي تمنحها لهم الصوفية فهم يريدون إرضاء أنفسهم بطريقتهم الخاصة في التفكير[٨٩] . ويلح الصوفي على أن « وقتاً قصيراً في حضرة الشيوخ (المتصوفين) أفضل من مائة عام من الطاعة والإخلاص المتفاني للقضية ، وهذا قول لشيخ المتصوفين « جلال الدين الرومي » .

وتقرر الصوفية أيضاً أنه باستطاعة الإنسان أن يكون موضوعياً وهذه الموضوعية تمكنه من الوصول إلى حقائق أكثر « سمواً » ، ومن ثم فالإنسان مدعو لأن يدفع بنفسه تجاه ما يطلق عليه أحياناً في التصوف اسم « الإدراك الحقيقي »[٩٠] .

ويقتنع المتصوفون بأن قسماً كبيراً من المعرفة يجب نقله بالتفاعل بين الطالب والمعلم ، وهذا غير المعرفة التقليدية التي نجدها في الكتب ، ويقول المتصوفون إن الاهتمام الزائد بالصفحة المكتوبة قد يسبب ضرراً كبيراً .

وهنا تبرز مشكلة أخرى ؛ فالباحث والمثقف في المجتمع الحديث يعترض على هذا الكلام ويشعر بأن كل المعرفة موجودة في الكتب ويمكن أخذ المعرفة من خلال الكتب ولو كان هذا يتم بشكل لا شعوري في بعض الأحيان .

ومع هذا فقد عمل الصوفيون طويلاً وبمشقة في تطويع الكلمة المكتوبة لتحمل شيئاً من تعاليمهم ، وكنتيجة لهذا استعملوا كتابة كالشفرة والرمز ، ولم يكن المقصود منها إخفاء أي معنى حقيقي ، ولكن المقصود أن تظهر كقصيدة كاملة أو أسطورة أو بحث . . وذلك بعد حل رموزها ، وهي قابلة للتفسير بطريقة أخرى فنقول مثلاً إنها نوع من الشرح شبيه برسم متغير اللون في تأثيره .

وعندما يرسم الصوفيون مثل هذه الرسوم التخطيطية لمثل هذه الأغراض ينسخها المقلدون ويستخدمونها وفقاً لمستوياتهم في الفهم[٩١] .

وهناك فن آخر في الكتابة الصوفية يسبب مشكلة أخرى ، فهناك كثير من الفقرات بل كتب كاملة ألفت لتحفز على التفكير وربما لجأت أحياناً إلى أسلوب إثارة النقد الصحيح ، وتعد هذه الكتب بالنسبة لطلاب العلم والثقافة كمراجع عن المعتقدات وفقاً لمفهوم أولئك الذين ألفوها[٩٢] .

وتوجد في البلدان الغربية ترجمات كثيرة لكتب المتصوفين ، إلا أن معظم هذه الترجمات منقولة نقلاً حرفياً من وجه واحد لنص له أوجه كثيرة ، ويدرك الطلاب الغربيون وجود هذه الأوجه أو الأبعاد الداخلية لكنهم لم يستخدموها في دراساتهم ، ولكن لو أنصفنا لقلنا إن بعضهم أقر بعدم استطاعته ذلك[٩٣] .

وهناك رأي آخر للمتصوفين يتجلى في إلحاحهم على إمكانية تقديم التعاليم الصوفية بأساليب عديدة ، وهذا يسبب إشكالاً لأولئك الذين لا يتقبلون

هذا الرأي ، فالمتصوفون لا يلتزمون بشيء متعارف عليه[٩٤] ، ويحلو لبعضهم استخدام الشكل الديني ، ويستخدم بعضهم الآخر الشعر الرومانسي ، أو النكات والفكاهة والحكاية والأسطورة ، ومع هذا فإن فريقاً آخر يعتمد على أعمال وأشكال ذات صبغة فنية .

إذن ، يمكن للصوفي أن يقول من خلال خبرته أن كل هذه الأشكال منطقية ، على أن الشخص الذي يتمسك بالمعنى الحرفي مهما كان صادقاً ربما طلب توضيحات عن ماهية (هذه الجماعة أو غيرها من الجماعات الصوفية) ، هل أفرادها من علماء الكيمياء مثلاً ؟ ، أم من طائفة التجار والصناع ، أم من المتعلقين بالدين ، أم من أهل الفكاهة ، أم من رجال العلم[٩٥] ، أم ماذا ؟ غير ذلك .

وربما كانت هذه القضية خاصة بالتصوف ، إلا أنها قضية تتجدد باستمرار ، فقد حكم على بعض المتصوفين بالإعدام[٩٦] أو شردوا من بيوتهم ، أو أحرقت كتبهم لأنهم تفوهوا بعبارات أو أقوال غير دينية أو غير مقبولة من الناحية الدينية في الأماكن التي تواجدوا فيها .

واتهم كبار المتصوفين بالهرطقة والارتداد عن الدين ، كما اتهم بعضهم الآخر باقتراف جرائم ضد سياسة الدولة ، بل إنهم حتى في هذه الأيام يهاجمون من قبل كل الجماعات ، لا من الجماعات الدينية فحسب[٩٧] .

وإذاتفحصناالأصول المعروفة للتصوف تفحصاً سريعاً يظهر لنا أن التصوف يقف خلف كثير من الصيغ والأقوال التي يرى كثير من الناس أنها تختلف عن بعضها ، رغم ما يقوله المتصوفون من أن التصوف تعاليم باطنية في الإسلام (ولهذا فهي تتفق معه اتفاقاً كلياً) .

ومن هنا فإننا نجد سلسلة من الأقوال المنقولة عن معلمين مشهورين منذ عصر النبي محمد (ص) ، وهي الأقوال المنسوبة إلى إحدى المدارس الصوفية أو أحد المعلمين ، وتشير المصادر أيضاً إلى « أويس القرني » الذي توفي في

القرن السابع للميلاد) وما نسب إليه من أقوال ، لكنه لم يلتق بمحمد (ص) رغم أنه عاش في عصره[٩٨] .

ويشير « السهروردي » وهو من أعلام التصوف الموثوقين ، كما أشارت جماعة الروزيكروشيين (رغم أنه عاش قبلها بكثير) وغيرها من الجماعات[أ] إلى هذه المقولات كنوع من أنواع الحكمة التي عرفها ومارسها حكماء منهم الحكيم هرمز «Hermes» في مصر القديمة[٩٩] .

وهناك شخص آخر لا يقل شهرة هو «ابن الفارض» (١١٨١ ـ ١٢٣٥ م) ، الذي يؤكد أن الصوفية تقف خلف النظامية Systematization وتسبقها ، وأن « نبيذنا » وجد قبل ما يقال له « العنب والكرم » (المدرسة والنظام) :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم[١٠٠]

وما من شك في أن الدراويش الذين سيصبحوا صوفيين تجمعوا سوياً ليتدارموا ما تبقى من هذه التعاليم ، منتظرين اللحظة المناسبة التي يظهر فيها مفسر من بينهم فيظهر المبادىء والرياضات الروحية التي كان معناها الفعلي تائهاً في أذهانهم .

وتتجلى هذه النظرية في الغرب بالماسونية (بمفهومها عن « السر المفقود ») ، وهناك مثلاً إثبات لهذه التجربة في كتاب « عوارف المعارف » ، وقد نظر إليها المهتمون بمثل هذا الموضوع كدليل على حدوث « ترقب المخلص المنتظر » وهي سمة تتميز بها الصوفية .

ومهما يكن من أمر (وهذا يخص الجانب المهيء للصوفية نفسها) ، فربما كان الدليل واضحاً في أوربا والشرق الأوسط ، فالناس على اختلاف نفسياتهم

(أ) الروزيكروشيون أعضاء في جماعة سرية اشتهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وقد زعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين (المترجمة) .

ومعتقداتهم يستوحون من التعاليم الصوفية التي لقنها لهم معلموهم وبعض هؤلاء المعلمين من أصل مجهول ، وقد ظلوا في نظر الناس لقرون عديدة كأشخاص شاملين أو كاملين .

وهكذا كان المعلمون الصوفيون « جلال الدين الرومي » و« شمس الدين التبريزي » و« بهاء الدين النقشبندي البخاري » الذي عاش (في القرن الرابع عشر للميلاد) ، و« ابن العربي » الذي أعطى لنا صوراً من شعر الحب في إطار ديني ؛ وهناك أيضاً فريق آخر من المتصوفين الأقل شهرة لدى الباحثين في الغرب .

والمشكلة التي يلتقي بها الطالب هنا قد لا تتمثل في حدوث هذا الشكل اللاعقلاني) من الأفعال أو في إحياء إحدى التقاليد أم لا ؛ لكنها تتمثل في الصعوبة النفسية في تقبل كون هؤلاء الأشخاص يمتلكون أية خصائص « لإيقاظ التيار الباطني في الإنسان» . بيد أننا لم نعدد الآثار التي خلفها المتصوفون وأهل الوجد، وهم فريق من المتصوفين الحقيقيين، في الحياة الاجتماعية والفلسفية في الألف سنة الماضية ، لأن التصوف فعل وليس تنظيماً .

فقد عملت شخصيات عديدة عبر قرون من الزمان لتأكيد وحدة الجماعات التي كان يبدو أنها ستبقى متفرقة إلى ما لا نهاية ، ومنهم « الرومي » الصريح و« الششتي » الذي كان من الأولياء ، والحلاج المنتشي بحب الله[11] ، وأصحاب الحالات من المجاهدين .

وقد وجهت التهم إلى هؤلاء الرجال وزعم بعضهم بأنهم من الجماعات الباطنية المسيحية أو اليهودية أو الهندوسية أو من المرتدين عن الدين أو من عبدة الشمس ، وهذا ما سبب لهم آلاماً فقد انتقدهم البعض بمعايير غير ملائمة وغير صحيحة في كثير من الأحيان ، فبعض المتصوفين كالبكتاشيين مثلاً استعملوا الرقم (١٢)[*]، وكان للأساطير المسيحية أثر كبير في تعاليمهم ، ومثلهم ابن

(*) للحاج بكتاش كتاب اسمه «مقالات» يبدو منه اتباع صاحبه لفكرة (الأثنى عشرية) / المترجمة .

العربي وجلال الدين الرومي ، إذ قيل عنهم (ولا يزال هذا حتى اليوم) أنهم استفادوا من كثرة عدد المسيحيين دون وجود مرشد حقيقي لهم ، على أن فعالية هذا الاتهام تنتظر التحقق من الجواب الصوفي الذي يقول إن المبادىء المسيحية مثل كثير من المبادىء الأخرى التي تحتوي أشياء عديدة تتميز بمقدار من التبصر الذي يمكن أن ينطبق على الإنسان في أي ظروف مناسبة .

وقد كان الناس ولا يزالون حتى اليوم يعتبرون أتباع الحاج بكتاش (توفي عام ١٣٣٧ م) غير أخلاقيين لأنهم سمحوا للنساء بحضور اجتماعاتهم ، ولم يتفهمهم أحد عندما رأوا ضرورة إعادة التوازن الاجتماعي لمجتمع يعتمد على سيادة الذكور .

وهكذا عاد من جديد « الحجب الاجتماعي للنساء » حتى أصبح منذ فترة « محترماً » كحجاب لشيء يجب أن يكون خفياً .

ولم يهتم أحد من الأشخاص ذوي المكانة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بتفنيد الادعاء الذي جاء به أشخاص بارزون كالمتصوف والعالم التركي « ضيا جوكلاف[١٠٢] » Zia Goklap ، ويقول بأن النظريات التي أتى بها الصوفيون اقترنت فيما بعد بأسماء مثل بيركلي وكانت وفوليه وجرويو ونيتشه وأخيراً وليم جيمس .

ويقودنا هذا إلى إسقاط صوفي هام ربما سبب حيرة بل ضيقاً لدى نمط معين من الأشخاص ، ومع ذلك فيجب مواجهته ، وهو القول بأنه عندما يتركز النشاط الصوفي على ناحية واحدة أو على مجتمع واحد بشكل فعال و« حقيقي » و(ليس تقليداً) ، يكون هذا التركيز لفترة محدودة ولأغراض معينة .

أو بمعنى آخر ، لا يوجد مجتمع متكامل ، كما أن احتياجات هذا المجتمع ليست كاحتياجات المجتمعات الأخرى ، ولا يوجد متصوف يؤسس مجموعة من المبادىء والقوانين التي ينتظر أن تبقى وتدوم ، أما الشكل الخارجي الذي يفصح فيه هذا المتصوف عن آرائه فهو أداة عابرة لنقل أفكار صممت

لمجتمعه المحلي ، أما الشيء الدائم فهوفي اتجاه آخر على حد قوله .

الصعوبات في فهم التصوف :

من الصعوبة بمكان أن نوضح هذه الناحية في عصرنا الذي تزحف إليه المعرفة عبر المؤسسات العلمية .

ومع هذا فقد أكد أحد الدراويش السائحين بمصر ويدعى « النفري » منذ آلاف السنين ، في كتابه « المواقف » الذي لا يزال من المؤلفات البارزة في التصوف ، على المخاطر التي يتعرض لها الفكر الصوفي لدى نقله ، ومعرفة هذه المشكلة هي البداية بالنسبة للإرشاد أو التعليم الصوفي . فالمعلم الصوفي قائد وموجه وليس معبوداً ، فعبادة الفرد محرمة في الفكر الصوفي[١٠٣] ، ومن هنا فإن « الرومي » يقول : « لا تنظر إلى شكلي الخارجي ولكن خذ ما في يدي » .

أما « الجرجاني » فيقول :

« إن تواضعي ليس موجوداً لتتأثر به ، إنه موجود لسبب تواجده فقط[١٠٤] » .

ومع هذا فقد كان لشخصية الصوفي أثر على الإنسان العادي ، فكان أتباع الصوفيين يميلون إلى كتابة سير الأولياء والجماعات الغريبة والضعيفة أكثر من ميلهم إلى استخدام التعاليم الصوفية التي تلقوها استخداماً حيوياً ، وكانوا يحسون بحاجتهم لنموذج جديد باستمرار .

وهناك مشكلة أخرى أمام الطالب الذي لا يعرف هذا وهي وجود ما يسمى « بالتراجم التصويرية » وتضم مادة للدراسة لها تأثيرات معينة ، مثلما تحوي الأساطير أحداثاً صبت في قالب درامي ، وتعيش هذه المؤلفات ثم تؤخذ إما على أنها أكاذيب أو سجلات لحوادث حقيقية ، فأين هو المؤرخ الذي يستغني راضياً عن مثل هذه المادة المرجعية ؟

ومن هنا فإن بعض السالكين الذين ينشدون الشعور السامي . يهتمون

إهتماماً كبيراً بمعلومة مثل قضاء مولانا جلال الدين الرومي فترات طويلة في حمامه التركي ، كما ورد في إحدى الكتب التي تتحدث عن حياته ، حتى أنهم يبنون لأنفسهم حمامات بخارية ، وهم بدورهم لهم من يقلدهم . . .

وربما أدرك أولئك الذين يذكرون الأناشيد التي كانوا ينشدوها في صغرهم ، جانباً واحداً من الدراسة الصوفية إذا فكروا مثلاً في هامبتي ـ دامبتي[أ] ذي الحظ السيء .

فالأفكار الصوفية شأنها شأن أناشيد « هامبتي دامبتي » سقطت سقوطاً كبيراً عندما استخدمها الناس استخداماً متدنياً ، فقد كانت النتيجة تخبطهم في مواقع غريبة ، وإذا نظرنا إلى مقطوعات « هامبتي دامبتي » فيمكننا أن نطلق على العاطفيين اسم (جياد الملك) وعلى الباحثين التقليديين اسم «رجال الملك» هم موجودون في النشيد .

إن وجود رجل وحصان مثلاً أو أي مجموعة من هؤلاء تنتمي إلى ملك من الملوك أو غيره ، يمكنهم القيام بمهام عديدة ولا شيء أكثر من ذلك ، وهناك شيء مفقود كما هو الحال في نشيد الصغار ، فما لم يكن الباحثون من الصوفيين أو ممن يستعملون الطرق الصوفية فلن يستطيعوا إعادة تشكيل هامبتي مرة أخرى » ، فلديهم الجياد ولديهم الرجال ؛ ولكن ليس لديهم العربة أو الأداة وهي المعرفة ، فإذا كانت الأفكار الصوفية كما تعبر عنها الكتب وكما تتداولها الجماعات الصغيرة أو « الفقيرة » وكما تقدم صورتها بواسطة التعاليم الصوفية والنماذج الإنسانية فالهدف من هذه الأفكار أن تعد شكلاً من أشكال التفكير أكثر

(أ) هي مجموعة أناشيد «هامبتي دامبتي» من أناشيد الصغار ويدعى مؤلفها جوزيف ريتسون ، وتعود إلى حوالي عام ١٧٨٤ م ، في إنجلترا ، كما تعود معظم أغاني الصغار إلى القرن السادس عشر وحتى الثامن عشر ، وبعضها أغاني شعبية أو أناشيد ، وربما لم يقصد بها أن تكون موجهة إلى الصغار فحسب (المترجمة) .

قيمة من التفكير الآلي وربما أعرب الطالب عن حقه في معرفة نتيجة هذا التفكير ، وربما توقع هذا الطالب أن يكون للمتصوفين دور بارز أو حتى مضلل في الشؤون الانسانية .

ولا يقبل الصوفي ادعاء الناس بأن ما يسعى إليه هو تأييد الجماهير (ومعظم الصوفيين يتجنبون ذلك) ، وبأنه ليس تواقاً ليصبح شخصية مرموقة كألبرت شفايتزر ، أو نابليون أو أينشتين ، فهناك على الرغم من ذلك دليل كبير في التراث الصوفي العظيم .

والأدهش من ذلك بالنسبة لأولئك الذين يحصرون التصوف بهذه الطائفة أو تلك ، هو درجة التأثير الصوفي وتنوعه ، إذا تركنا جانباً ادعاءات الصوفيين بأن أعظم الشخصيات الصوفية تكاد تكون مجهولة للناس .

لقد كان بعض المتصوفين في الشرق خلال عصور الامبراطوريات في فترة الألف عام السابقة كالملوك أو كانوا يقفون وراءهم كناصحين أو مرشدين . كذلك فقد عمل الصوفيون تحت ظروف أخرى ضد الملكية نفسها أو ليخففوا من مساوئها ، وهؤلاء الأشخاص معروفون فقد سعى المغولي « داراشيكو » Dara Shikoh وهو من الهند لإقامة جسر خفي بين الهندوسية والإسلام وغيرها من المعتقدات .

أما الوعاظ من الصوفيين فقد حاربوا ضد الطغاة من الأجانب كما حارب الجنود الصوفيون للحفاظ على الدويلات التي وجدت في ذلك الحين وكانوا يحاربون في بعض الأحيان على نطاق واسع .

ومن الأمثلة على هؤلاء الجنود الأتراك من الانكشارية ، والقائد المناضل شاميل من القوقاز والسنوسيون في ليبيا والدراويش في السودان . أما الأعمال الأدبية في فارس في العصر القديم أو الكلاسيكي فكانت ذات صبغة صوفية شأنها في ذلك شأن كثير من المؤلفات العلمية والنفسية والتاريخية .

وإن ما ذكرناه من أمثلة قد دون في كتب التاريخ ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة ومتنوعة .

إن الأبحاث التي ألفها الباحثون الذين اعتمدتُ عليهم في هذه الدراسة ذات قيمة لا تقدر بثمن في حفظ الحقائق ، ولكن يبقى أمام الروح العلمية الجديدة أن تجمع وتوازن قيمة النشاط الصوفي في المجتمع الإنساني ، وبهذه الطريقة نحتفظ بالمكاسب ونخفف من الخسائر .

ويجب أن ينتبه مثل هؤلاء الطلاب ، وهذه مشكلة أخرى ، إلى قناعة الصوفيين أنفسهم عندما يقولون :

- « يجب أن تتم دراسة الصوفية باتجاه محدد وتحت ظروف معينة وبطريقة ما من الطرق »[١٠٧] .

ولقد ثار كثير من الناس دون إمعان في التفكير ضد هذا القول ، ولكن هل يختلف تمام الاختلاف عن القول مثلاً بأن « العلوم الاقتصادية يجب أن تدرس باتجاه معين هو (الرغبة في الفهم » ضمن ظروف محددة (أي ضمن نظام البرامج الدراسية وكتبها الصحيحة) ، وبطريقة من الطرق (بحيث تتبع منهجاً دراسياً وضعه أولئك الذين يعرفون الموضوع تمام المعرفة) ؟

فلا يمكن أن نبدأ مثلاً لدى دراستنا للتصوف من جانب واحد فننطلق من فكرة واحدة هي أنه نظام صوفي يهيىء الإنسان ليحصل على النشوة أو الوجد الصوفي ، وقد بني على مفاهيم دينية .

كما يتمثل هذا في قصيدة صوفية لعمر الخيام[١٠٨] يقول فيها :

هنا واحد يخشى الجحيم وآخر يحلم بالفردوس
لكن من يعرف الأسرار الحقيقية لربه
لم يزرع مثل تلك البذور في قلبه .

ولا يبدو أن تقدماً كبيراً سيحدث باتجاه الفهم الواسع للأفكار الصوفية ،

إلا إذا استفاد الدارسون أنفسهم من أساليب شرح الصوفية ، فإن لم يفعلوا تضيع جهودهم في مسائل جانبية ، وهذا بدوره يضع مشكلة أخرى للمتصوف نفسه فكما قال ابن العربي :

ـ « يجب على الصوفي أن يتحرك ويتكلم بحيث يكون متنبهاً إلى احتمال وجود التحامل الخفي من جانب السامعين فيحاول تفهم هذا التحامل وإدراك حدوده » .

فالدراسة الصحيحة للأفكار الصوفية تقتضي الاستفادة الحقيقية من الأدب الصوفي ، وتعتمد على الاحتكاك بالمعلم الصوفي .

أما فيما يتعلق بالكتب الصوفية ، فربما كان الزمن كفيلاً بوضعها في موضعها الصحيح ، رغم أن هناك تجربتين حديثتين تدلان على أن الخسائر في عدم تفهم هذه الكتب لها أهميتها في منطقة الشرق الأوسط .

فقد انتقد أحد الباحثين البارزين وهو خبير بالتصوف والمتصوفين في منطقة الشرق الأوسط ، كتاباً من مؤلفاتي عن «الملا نصر الدين» فقد ادعى أن تلك الشخصية الفكاهية لم تكن شخصية تنطوي على تعاليم صوفية ، وربما كان يجهل ولا يزال ، أن أحد الطلاب الاوروبيين في الفترة التي ألف فيها كتابه بالذات . كان يعيش وسط مجتمع من المتصوفين الدراويش في الباكستان وكان هذا المجتمع يعتبر « الملا نصر الدين » نفسه وليس شخصاً آخر ، مادة علمية تستمد منها التعاليم الصوفية ، وقد نشرتُ مؤخراً دراسة عن هذا في مجلة بريطانية مختصة بالموضوعات الدينية(١١٠) .

ولا يكفي أن نضيف دراسة جديدة إلى ما كتب عن الصوفية فقد كنت منذ وقت قريب أسأل احد المثقفين الغربيين عن أماكن قضاء العطلة في إحدى الجزر اليونانية ، وكنت قد التقيت به هناك ، فهاجمني بسيل من الشتائم وقال لي وهو يلوح بأحد كتبي وكان مستغرقاً في قراءته :

« إنك تضيع وقتك في التفكير بعطلة وتحاول إضاعة وقت رجل يقرأ هذا الكتاب في حين أن هذه القراءة تفوق في أهميتها كل إجازاتك ! » . ويجب ألا نخلط بين الذين يظنون أنهم من المهتمين بالتصوف أو الذين يعتقدون أنهم من المتصوفين وبين أولئك الذين يمكنهم بالفعل دراسة التصوف والاستفادة منه ، فالتصوف شيء لا يمكن الحكم عليه عن طريق دراسة قام بها أشخاص يدعون أنهم من أصحابه .

إن الدراسة الحقيقية للتصوف في هذا العصر ، وفي الغرب على الأخص حيث اتسع الاهتمام بالتصوف بشكل ملحوظ ، تقتضي من الطالب الدارس الإلمام بالنقاط التالية :

١ ـ تفهم عدم ملاءمة معظم الكتب التي ترجمت عن الأدب الصوفي ، ويرجع هذا في الأساس إلى أن الأصول كانت موجهة إلى مجتمعات بعينها وجمهور وثقافات محلية لا تتواجد الآن في الشكل الذي وجدت فيه سابقاً .

٢ ـ السعي لكي تكون المؤلفات والمصادر الصوفية الموثوقة بالإضافة إلى التراث الشفوي والنشاطات التي كان يمارسها المتصوفون ذات فاعلية في ثقافة الطالب نفسه ووقته وما إلى ذلك .

٣ ـ التحقق من أن كل المجتمعات فيما عدا المجتمعات الصوفية الحقيقية هي دوماً أدوات مكيفة سواء أكان هذا بشكل واع أم غير ذلك .

٤ ـ الاستعداد للتخلي عن المفاهيم السابقة عما تتطلبه « دراسة التصوف » ، والاستعداد لدراسة الأمور والمواد التأليفية التي لا تبدو « خفية » .

٥ ـ أن يقرر الطالب ما إذا كان بحثه شكلاً متخفياً من أشكال البحث في التكامل الاجتماعي أو ظاهرة من ظواهر الفضول التام ، أو رغبة في إثارة العواطف أو الاسترضاء .

٦ ـ الاعتقاد بوجود مصدر حقيقي ومدروس للتعاليم الصوفية الحقيقية والفعالة في الغرب .

إن ما يهدف إليه هذا الكتاب هو أن يوضح للقارىء العادي غنى وتنوع الأفكار الصوفية وقد اختيرت مواده وعُرضت بشكل يلائم المثقفين المعاصرين فقدمت مدخلاً في دراسة الموضوع .

حواشي ومراجع تتعلق بالقسم الأول

لقد أشرنا إلى المؤلفات الاوربية ـ الامريكية وغيرها حيث أمكن ، أما التواريخ فقد ذكرت بالتاريخ الميلادي .

١ ـ ثولوك ، ف . ا . ج :

الصوفية ووحدة الوجود .

(باللغة اللاتينية) ، (برلين ١٨٢١) .

Ssufismus Sive Theosophia Persarum Pantheistica.

٢ ـ الطقوس والكلمات والمصطلحات الماسونية . . . الخ ، يمكن أن « تحل رموزها » باستخدام الأساليب الصوفية ، للملاحظات والمراجع أنظر كتابي « الصوفيون » The Sufis (ط . نيويورك ١٩٦٤ ، لندن ١٩٦٦) ، الصفحات 183, 184, 186, 188, X IX, 50, 178, 179, 182 ، أما بالنسبة للتراث الصوفي فانظر كتاب «الدراويش» تأليف ج . پ . براون [لندن ١٩٧٢] ، ص ٢٢٩ ، وللماسونية من المتصوفة ضمانة وهبها لهم المحفل الماسوني الأكبر في طيرية الذي هاجر أعضاؤه من تدمير بيت المقدس ، وقد أصبحوا معروفين تماماً في الشرق الأدنى من خلال ذي النون (الذي توفي عام ٨٦٠) .

٣ ـ بالنسبة للشاعر الصوفي « جامي » الذي عاش في القرن الخامس عشر في كتابه (نفحة الأنس) فإن الشيخ السهروردي يُرجع تاريخ الكلمة إلى القرن التاسع ، ولم تكن الكلمة موجودة في أي معجم في هذا التاريخ المبكر ، ويرجع الإمام « القشيري » في رسائله تاريخ ظهور الكلمة إلى حوالي عام ٨٢٢ م ، وقد استخدم الصوفيون الأوائل كثيراً من التسميات كالإخوان ، والزهاد ، والفاضلون ، والمقربون .

٤ ـ مثال ، لدى ابن مسرة من قرطبة (اسبانيا) ٨٨٣ ـ ٩٣١ ، لموضوع التأثير الصوفي على أوروبا انظر مثلاً ، « جارسين دي تاسي » : مقدمة إلى منطق الطير (باريس ١٨٦٤) .

٥ ـ Suf = الصوف ، وقد اقتبس الظاهريون في كل من الشرق والغرب هذا المصطلح الذي ظهر بعد ذلك في كتب المراجع كاشتقاق لفظي .

٦ ـ « الصوف لباس الأنام » ، اقتباس عربي من كتاب الهجويري :

كشف المحجوب The Revelation of the veiled .

انظر كتاب السردار إقبال علي شاه (التصوف الإسلامي) لندن ١٩٣٣ ، ص ١٧ .

٧ ـ استعمل الصوفيون أنفسهم هذا الاشتقاق وغيره ، وبينوا أن كلمة «Bench» الصفا ليست الكلمة الأصلية لكنها أقرب كلمة وجدها الصحابة للتعبير عن أنفسهم .

٨ ـ الرقي الفكري : مثال :

قارن المقطع الشعري الفارسي الذي يقول :

با مرشد بسهوندي انسان

بمرشد مانلي حيوان

ومعناه : ربما تصبح إنساناً حقيقياً بمرشد

وبدونه تبقى حيواناً .

بمقطع من شعر « جلال الدين الرومي » الذي يقول :

من عالم إلى عالم توجه الإنسان حتى وصل إلى إدراكه الحالي ومعرفته وحالته النشيطة .

ناسياً صور الذكاء القديمة ، لذلك سيمضي خلف أشكال الفهم الحالية .. هناك ألف شكل من أشكال الفكر . . . » .

« إن مقدار الاضطرار يتبعه النمو العضوي للإنسان ، لذا عليك أن تكثر من اضطرارك » .

(من ديوانه مثنوي معنوي : مقطع المعنى الباطني) .

٩ ـ دائرة المعارف اليهودية المجلد ١١ ، ص ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ .

هناك من الحكماء اليهود من يعدهم الباحثون الاوروبيون أتباعاً لمدرسة التصوف الإسبانية وهم الأشخاص التالية أسماؤهم :

« جودا هاليفي » من توليدو في كتابه « كوزارى » ، و« موسى بن عزرا » من غرناطة ، و« جوزيف بن زاديك » من قرطبة في « ميكرو كوزموس » ، و« صمويل بن تيبون » ، « وسيميتوب بن فالاكيرا » .

١٠ ـ الأفكار الصوفية في مصر القديمة وفي مدارس كل من فيثاغورس وأفلاطون ذكرها م . أ . أوبيسيني في كتابه « رسائل عن تركيا » ، لندن ١٨٥٦ .

١١ ـ انظر ثولوك Thöluck في كتابه نافذ الطبع ، وقد ظهر هذا الكتاب قبل مولد مدام بلافاتسكي بعشر سنوات وقبل مولد الكولونيل أولكوت بتسع سنوات ، وهو المؤسس المشارك للجمعية الثيوصوفية[أ] .

١٢ ـ ر . أ . نيكولسون R A Nicholson : التصوف في الإسلام ، لندن ، ١٩١٤ ، ص ٣ ـ ٤ .

عرف عن البروفسور « نيكولسون » أنه كان المرجع الثقة في عصره للتصوف ، وقد نشر عدة كتب وترجمات مفيدة .

ذكرت عنه صحيفة التايمز في ٢٧ آب من عام ١٩٤٥ :

« لقد كان « نيكولسون » أعظم مصدر يُرجع إليه حول تاريخ التصوف الإسلامي وقد بلغ القمة في مجال تخصصه فعُد لذلك مرجعاً عظيم الشأن .

١٣ ـ ر . أ . نيكولسون (مترجم) ، كشف المحجوب ، لندن ، ١٩١١ ، ص ٣٤ .

١٤ ـ من أجل معلومات عن كيبريان رايس Cyprian Rice ، انظر : المتصوفون الفرس ، لندن ١٩٦٤ ، ص ٩ .

أما الإهتمام المتزايد بالتصوف في روما الكاثوليكية فله تأثيره البارز على المتصوفين الكاثوليكيين والأكاديميين . والدليل على ذلك تقديم جائزة للكتاب Imprimatur, Nihit Ob-stat من قبل السلطات الدمينيكية والكنسية في روما .

ويعتقد مؤلف هذا الكتاب بأن ما تهدف إليه الصوفية في المستقبل هو « إمكانية حصول التحام في الفكر الديني وامتزاج وتفاهم ما بين الشرق والغرب ، مما سيثبت في النهاية عودة الجانبين إلى الأصول الواحدة للمتصوف .

(المرجع نفسه ، ص ١٠) .

١٥ ـ كما قال المتصوف القديم عبد العزيز مكي (توفي ٦٥٢) « قدم طبقاً من السلاطة إلى حمار وسوف يسألك أي نوع من النباتات الشوكية هو » .

١٦ ـ المتصوفون (نيويورك ١٩٦٤ ، ولندن ١٩٦٩) .

١٧ ـ البروفسور ميجويل آسين بلاسيوس Un Precurso hispanomusulman de san Juan de la Cruz. في مجلة « أندلس » ع (١) ، سنة (١٩٣٣) ، الصفحة ٧ وما يليها .

(أ) الثيوصوفية هي الفلسفة الإلهية وتهدف إلى أن التجربة الباطنية أساس المعرفة الخاصة بالله وجميع المسائل المتصلة به .

انظر أيضاً ب ـ نويا ، « ابن عباد الرندي وجان دي لاكروا ، أيضاً في مجلة أندلس المج ٢٢ (١٩٥٧) ، الصفحة ١١٣ وما يليها .

١٨ ـ آسين ، El Simil de Los Castillos Y morades del alma en la mistica Islamica Y en Santa Teresa . مجلة أندلس مج (٢) ص ٢٦٣ وما يليها .

١٩ ـ شاه ، « المتصوفون » ص ٢٣٩ ؛ والبارون كارادي فو Baron Cara de Vaux في المجلة الآسيوية مج ٢٩ ، ص ٦٣ .

أما الفرنسيسكاني « روجيه باكون » (توفي ١٢٩٤) فقد ألقى محاضرة في أوكسفورد وهو يرتدي لباساً عربياً مستشهداً بحكمة الإشراق التي عرفت في مدرسة الشيخ « شهاب الدين يحيى السهروردي » الصوفية ، والذي أدين بتهمة الارتداد عن الدين الإسلامي ومواصلته للفلسفات القديمة وذلك عام ١١٩١ ، انظر في موضوع العلاقة ما بين الفرنسيسكان والصوفية كتاب « المتصوفون The Sufis » .

٢٠ ـ شاه : المتصوفون الصفحات XVI ، ١٥٥ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ـ ٢٠٤ ، ٢٤٣ ، ٣٧٠ .

٢١ ـ آسين : ابن مسرة وشاه « المتصوفون » الصفحات : xix, xvii ، ٤٢ ، ١٤٠ ـ ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦١ ، ٣٧٠ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

انظر أيضاً : ج . ريبيرا : أصل فلسفة ريموندو لوليو

Origines de La Filosofia de Raimundo Lulio.

٢٢ ـ س . ف . لوهلين ، « التصوف والسيخ » ، مجلة العالم الإسلامي Moslem World مج ٢٩ (١٩٣٩) ، ص ٣٥١ وما يليها ؛ وانظر شاه « الصوفيون » الصفحات ٣٥٨ وما يليها .

٢٣ ـ س . سوان Gesta Romanorum ، لندن ، ١٨٢٩ ، ... الخ .

يعود تاريخ أول نسخة مخطوطة في الغرب من هذه المجموعة إلى عام ١٣٢٤ م وقد استقى منها شكسبير مسرحياته : الملك لير ، تاجر البندقية ، بركليس ، اختطاف لوكريس . واقتبس منها أيضاً كل من شوسر ، ليدجات وبوكاشيو .

٢٤ ـ أ . بارث : الديانات في الهند ، ود . تاراشاند : التاريخ الثقافي للهند (حيدر آباد ١٩٥٨) ، ص ١٥٣ ، وشاه : المتصوفون ص ٣٥٦ وما بعدها .

٢٥ ـ انظر شاه « سر معرفة السحر ، لندن ١٩٥٧ ، وانظر كتاب « المتصوفون » ص ٣٢٦ وما بعدها ، وكتاب « الرحلة إلى مكة » لشاه أيضاً ، لندن ١٩٥٧ . وفيما يتعلق بالقدرات الخارقة للصوفيين ، انظر كتاب ج . ب . براون : « الدراويش » ، لندن ١٨٦٧ ، وقد

أعيدت طباعته ١٩٢٧ ؛ وانظر ل . م . ج . جارنيت : « التصوف والسحر في تركيا » ، لندن ١٩١٢ ، وأيضاً س . أ . سالك ، و« لي جيلان » ، لاهور ١٩٥٣ ، وأخيراً ج . أ . سوبحان : « التصوف ، أولياؤه ومقاماته » ، لاكنو ١٩٣٩ .

٢٦ ـ استخدم الغزالي الفيلسوف الصوفي أسلوب فرويد النفسي في تفسير الرموز في كتابه « المشكاة » وذلك قبل فرويد بتسعمائة عام .

انظر (الرمزية) ، في ترجمة جيردنر Gairdner للمشكاة (الجمعية الملكية الآسيوية ، لندن ، ١٩٢٤) .

وقد كانت « نظرية جونجيان آرشيتيال Jungian Archetypal معروفة لدى الصوفيين في العصور القديمة ، أنظر ر . لانداو « فلسفة ابن عربي » ، نيويورك ١٩٥٩ ، ص ٤ وما يليها .

أما موضوع فرويد والتراث الصوفي اليهودي فقد ناقشه البروفسور « داڤيد باكان » في كتابه « سيجموند فرويد والتراث الصوفي اليهودي » ، نيويورك ، ١٩٥٨ .

ففرويد مدين للقبلاتية Kabbalism[أ] وللتصوف اليهودي ، الذي ينظر إليه اليهود على أنه ناشىء عن المذهب الباطني أو مشابه له .

٢٧ ـ استنكر بعض النقاد والكتاب عدم وجود كشاف لكتاب « الصوفيون » نظراً لجهلهم الحقيقة المتعلقة بالكتب التي تبحث في التصوف ، إذ نادراً ما يكون لها كشافات (بحيث يتمكن القارىء من قراءة الكتاب بكامله) ، وقد أصدرت مط « كومب سبرنجي » فهرساً مستقلاً لكتاب « المتصوفون » في عام ١٩٦٥ .

٢٨ ـ إ . و . ف . توملين : أعظم فلاسفة الشرق ، لندن ١٩٥٩ ، ص ٢٩٥ .

٢٩ ـ أعظم فلاسفة الغرب .

٣٠ ـ نشر في لندن عام ١٩٥٩ ، و١٩٦٠ .

٣١ ـ من آراء الاختصاصيين فيما يتعلق « بأصل » التصوف :

« لقد كان تأثير التصوف المسيحي كبيراً » ، كما قال « توملين » في كتابه : أعظم فلاسفة الشرق ، ص ٢٩٥) ، وفي كتاب د . سيل Sell ، « التصوف » ، مدارس ١٩١٠ ، ص ١١ الرأي التالي :

ظهر التصوف كرد فعل ضد نظام توحيد جاف وقانون صارم وطقوس جامدة .

وفي كتاب ج ، ب براون الذي سبق ذكره ورد هذا الرأي :

(أ) فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً .

« ترجع جذور التصوف إلى المفاهيم الدينية في الهند واليونان » .

أما « رد هاوس » في ترجمته لكتاب « المثنوي » ، لندن ١٨٨١ ، فيقول في الصفحة ١٤ :

« ويبدو أن التصوف نوع من المذاهب الروحية » .

ويقول « أ . ج براون » في كتابه « تاريخ آداب الفرس » ، لندن ١٩٠٩ ، ص ٤٤٢ :

« . . . تختلف الشخصية العاطفية للتصوف اختلافاً كبيراً عن النظريات الجامدة للفلسفات الهندية ، وهذا واضح تمام الوضوح » .

أما الكاتب « ف . هادلاند دافيز » فيقول في كتابه « المتصوفون الفرس » ، جلال الدين الرومي ، لندن ١٩٠٧ ، ص ١ :

« المتصوفون طائفة صغيرة في بلاد الفرس » .

وتقول الآنسة ج . ل . بيل في كتابها : « قصائد ديوان حافظ » ، لندن ، ١٩٢٨ ، ص ٥١ :

« الصوفية انحراف كبير للتعاليم المحمدية » .

أما الكاتب أ . هـ . هونيفلد : فيقول في كتابه « مثنوي معنوي ، المقاطع الشعرية الروحية » ، لندن ١٨٨٧ ، ص ١٥ :

« الصوفية مشتقة من فلسفة أفلاطون ، ومن الديانة اليهودية وبشكل رئيسي من الدين المسيحي » .

أما « بوركهات » فيقول في كتابه : « مقدمة إلى معتقدات الصوفية » ، لاهور ، ١٩٥٩ ، ص ٥ :

لقد أرجع المستشرقون الصوفية إلى أصول فارسية وهندية وإلى الأفلاطونية الحديثة والمسيحية ، على أن هذه المواقف المختلفة انتهت بأن ألغى كل واحد منها الآخر .

٣٢ ـ ر . أ . نيكولسون : « مختارات من ديوان شمسي تبريزي » ، كامبردج ، ١٨٩٨ ، طبعة منقحة ، ١٩٥٢ ، ص ٣٦ وما يليها .

وقد أثبت البروفسور « إدوارد بالمر » للطلاب الغربيين حقيقة واضحة هي أن كلمة مطرب وهي الكلمة العربية المقابلة لكلمة تروبادور Troubadour ترمز أيضاً إلى « المعلم الصوفي في كتابه « التصوف الشرقي » » ، ص ٨٠ .

أما البروفسور (حتي) Hitti فهو أكثر وضوحاً في حديثه إذ يقول في كتابه « تاريخ العرب » ص ٥٦٢ طبعة عام ١٩٥١ ما يلي :

« ففي فرنسا الجنوبية لم يظهر شعراء البروفنسال تماماً حتى أواخر القرن الحادي عشر وعندئذ أخذت قصائدهم تفيض بالحب وأخذت اللغة تعبر عن عواطفهم مستعينة بالمجاز المعنوي والخيال الرشيق . وأخذت طبقة « التروبادور » التي زهت في القرن الثاني عشر

تقلد معاصريها الجنويين منشدي الزجل ، واتباعاً للطريقة العربية ظهر النسيب أي التشبيب بالمرأة فجأة في أشعار أوربا الجنوبية الغربية » .

٣٣ ـ أنظر مقدمة « روبرت جريفز » لكتاب إدريس شاه « المتصوفون » ص ١٧ .

وأفضل نسخة منقولة عن كتاب فريد الدين العطار « منطق الطير » النص الذي يعود إلى عام ١٩٥٤ ، والذي ترجمه س . س نوت من الأصل الفرنسي وأعيد طبعه عام ١٩٦١ في لندن .

وقد بين الأستاذ الموقر « بارنج ـ جولد » Baring-Gould أن أسطورة « وليم تل » في العصر الفكتوري كانت تفتقر إلى أساس تاريخي ، وفي معجم هايدن Haydn المسمى « معجم التواريخ » Dictionary of Dates نجد في مادة « تل » العبارة التالية :

« إن القصص الشعبية التي قدمها ، كان قد وصفها البروفسور كويف من لوكيرن عام ١٨٧٢ ، بأنها قصص أسطورية » .

٣٤ ـ طائفة « بيكوك آنجل » Peacock Angel :

أسسها المتصوف الشيخ عادي بن مسافر (توفي ١١٦٢) ، ويوجد فصل يتحدث عن هذه الطائفة هو الفصل ١٥ من كتاب « أركون دارول » Arkon Daraul « الجمعيات السرية » ، لندن ١٩٦١ ، نشر في نيويورك عام ١٩٦١ بعنوان « تاريخ الجمعيات السرية » .

ويمكن حل رموز الطائفة باستخدام رموز الأبجدية في النظام الرمزي الذي يستعمله الصوفيون كما وصفه « إدريس شاه » في كتابه « الصوفيون » ، وقد استخدم بكثرة من قبل الشعراء ورجال التصوف . انظر أيضاً الحاشية رقم ٩٣ .

٣٥ ـ قدم الأستاذ ج . أ . جوردجيف G.I.Gurdjieff إشارات وافية إلى الأصول الصوفية في كتابه « النظام » System ، رغم أنها تنتمي بشكل خاص إلى الشكل النقشبندي للتعاليم الصوفية ، وهناك كتب مثل كتاب جوردجيف Beelzebub (ويعرف بعنوان آخر هو « الكل وكل شيء » ، نيويورك ، ١٩٥٠ ، وكتاب لقاءات مع المشاهير Meetings with remark-able men ، (الطبعة الثانية ، ١٩٦٣) كل هذه الكتب مزودة بمراجع عديدة عن الطريقة الصوفية .

كذلك يذكر « جوردجيف » أسماء العلماء النقشبنديين مثل كوبرافيس Kubravis وغيره من المتصوفين في طبعة أولية من كتابه ظهرت في باريس بعنوان « صدى الشانزيليزيه » (The Echo of The Champselysees) مج ١ ، ص ٣٧ ، ج ٢ (باريس : ديسمبر ١٣ ـ ٢٥ ، ١٩٢٣) ، ويقتبس من مصادر مثل : النقشبندية ، القادرية القلندرية[أ] ، كوبرافي ، الرياضة الروحية للمولوية الدراويش .

(أ) طريقة القلندرية منسوبة إلى «قلندر يوسف» وهو عربي أندلسي .

أما كتاب « موريس نيكول » المسمى « تعليقات سيكولوجية » ، لندن ١٩٥٢ ، وكتاب « الرجل الجديد » ، لندن ١٩٥٠ فيحفلان بأمثلة عديدة على الطرق الصوفية المستعملة في شرح الوثائق الدينية وغيرها من الوثائق .

على أن هذه الأعمال تختلف عما هو مألوف في الصوفية في معالجتها للموضوعات بأسلوب غير نظامي كما أنها موجهة إلى مجموعة من الطلاب « بالصدفة » وليست موجهة بشكل خاص إلى فئة منتخبة منهم .

ويعتبر الأستاذ ب . د . أوزبنسكي P.D. Ouspensky ، من خلال علاقته بالفيلسوف الروسي جوردجيف ، الصوفية مصدراً لعلم النفس القديم وقد شرح هذا في كتابه «سيكولوجية التطور الممكن للإنسان . « The Psychology of man's Possible Evolution » ، لندن ١٩٥١ ، ص ٧ .

ومع ذلك فلم يحتك أوزبنسكي احتكاكاً مباشراً بالدراويش ، كما أنه لم يكن قادراً على نقل الأفكار الصوفية من مصادرها الأدبية وهي مصادر شرقية ، إلى المصطلح الذي يستخدمه في « منهجه » .

ولو كان قادراً على ذلك لتحقق من أن « منهجه » قد تجاهل المتطلبات الصوفية من مكان وزمان وأشخاص معينين .

ويحاول أوزبنسكي تفنيد ما أورده « جوردجيف » في كتابه « بحثاً عن المعجزات » لندن ، ١٩٥٠ ، والذي يسجل فيه محادثاته مع جوردجيف .

ويطلق المتصوفون النقشبنديون وأتباع جوردجيف ـ أوزبنسكي على دراساتهم اسم « الطريقة الرابعة » The Fourth Way ، أنظر أوزبنسكي « الطريقة الرابعة » لندن ، ١٩٥٧ .

٣٦ ـ هامر شولد والصوفيون ، نقل عن جلال الدين الدومي نصوصاً من الأدب الصوفي : ذكرها هامرشولد في كتابه « سمات » ، لندن ، ١٩٦٤ ص ٩٥ وما بعدها .

وانظر أيضاً فصل بعنوان Dagens Nyheter ، ستوكهولم ١٩٦٢ ، وهي نسخة من القصيدة الصوفية التي ترجمها السير وليام جونس William Jones (١٧٤٦ ـ ١٧٩٤) :

بكى مولود على ركبتي والدته بينما جلس الكل حوله يبتسمون وبدا مفعماً بالحياة غارقاً في نومه الأبدي مبتسماً بهدوء بينما الناس حوله باكون .

٣٧ ـ تتضمن مسرحيات شكسبير قصصاً ذات أفضل فارسي وعربي وقصصاً أخرى شرقية ، كما أنها تتضمن أيضاً ما هو مقتبس عن الأدب الصوفي .

وقد ذكر البروفسور نيكولسون مثالاً أو مثالين من ديوان شمسي تبريزي في ترجمته لهذا الديوان (انظر الحاشية ٣٢) ، في الصفحات ٢٩٠ ، ٢٩١ وما يليهما ، انظر أيضاً جارسين دي تاسي Garcin de Tassy « الشعر الفلسفي والديني عند الفرس » ، باريس ١٨٦٤ .

٣٨ - ينقل البروفسور كينيث وولكر في كتابه « تحليل الإنسان » ، لندن ١٩٦٢ ، استعمال مدرسة سنائي - الرومي الصوفية لأسطورة الفيل في الظلام The Elephant in The Dark لتبين كيف يمكن للإنسان الحديث أن يرتبك بأجزاء من المشكلة بدلاً من المضي في لب المشكلة .

وقد تبع وولكر الأستاذ جوردجيف ؛ انظر كتابه : دراسة لتعاليم جوردجيف ، لندن ١٩٥٧ .

٣٩ - مثل قصة « البطة القبيحة » « The Ugly Duckling » ، أنظر إدريس شاه « المتصوفون » .

٤٠ - ف . هيتشمان ، بارتون Burton ج ١ ، ص ٢٨٦ .

٤١ - بقلم ل . أ . هيل .

٤٢ - مثل ج . ساكس J.G. Saxe في كتاب « المكفوفين والفيل » ، لندن ، ١٩٦٤ ، وكتاب س . داوننج (مترجم) ، قصص الحجة Tales of the Hodja ، لندن ، ١٩٦٤ .

٤٣ - إدريس شاه في كتاب « المتصوفون » ، الصفحة ٢٠٨ وما بعدها ، والصفحة ٢٤٣ .

لموضوع الأصول الشرقية « للسحر » ، انظر كتاب ج . ل . براسيلين المسمى « الساحر - جيرالد جاردنر ، لندن ١٩٦٠ ، ص ٧٥ ، وكتاب أ . دارول « السحرة والمشعوذون » ، نيويورك ، ١٩٦٦ ، ص ٢٠ ، ٢٣ - ٢٤ ، ٢٠٤ وما يليها .

٤٤ - انظر إدريس شاه في كتاب « المتصوفون » الصفحات ١٨٧ ، ١٩١ ، ٢٢٣ ، ٣٨٩ وما يليها ، وكتاب أ . دارول « الجمعيات السرية » ، لندن ١٩٦١ . ويزعم الروزيكروشيون أن مؤسس جمعيتهم استقى معلوماته من الجزيرة العربية وفاس ومصر ، وقد أرجع دارول هذه الأصول إلى الطريقة القادرية الصوفية (نفس المرجع ، ص ١٩٥) .

٤٥ - دارول « الجمعيات السرية » الفصل ٢٢ ، مقال بعنوان : « مشاهير الصوفيين » مجلة الجمعية الآسيوية الشرقية JAOS ، مجلد ٥٧ ، ص ٩٠ وما بعدها ١٩٣٧ ، وكتاب براون « الدراويش » .

٤٦ - انظر كتاب شاه « المتصوفون » فيمكن الرجوع إليه في موضوع تأثير الغزالي وغيره على غرب أوربا ومعظم الكتب التي تبحث حول الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى وتاريخ هذا الفكر الفلسفي .

قارن بين كتاب حتي « تاريخ العرب » وكتاب ج . ليف G. Leff « الفكر في العصر الوسيط ، لندن ١٩٥٨ » .

٤٧ - ليف leff ، المرجع السابق ، و أ . ب . كابور « أبحاث حول الفلسفة الصوفية » لكابير Kabir « س . دراسات جامعة الله آباد ، رقم ١٠ ، ١٩٣٣ ، ص ١٦٦ .

٤٨ ـ و . إيڤانو W Ivanow ، عابدو الحقيقة في كردستان ، لايدن ، ١٩٥٣ ، ص ٥٧ ـ ٦٨ وما بعدها .

٤٩ ـ إن الجماعة التي عرفت باسم الحشاشين Assasin كانت جماعة من الصوفية سميت في الأصل « حشاشين أو الأساسين » (المؤسسين) ، وقد كون فرعاً منهم رجل يدعى حسن الصباح في القرن العاشر للميلاد ، وقد عرف بالمؤسس الأكبر أو رجل الجبال العجوز ، وهذا الاسم هو ترجمة خاطئة للقبه « شيخ الجبل » وعرف عن أسرة الآغا خان أنها تنتسب إلى هذا الشخص المسمى « حسن » .

وهناك شخص آخر ينافسه في زعامة الطائفة مقره في بومباي ، ومع هذا فإن « الطريقة » الأصلية تستمر بشكل مستقل ، انظر السردار إقبال علي شاه في كتابه « الأسس العامة للتصوف » (مجلة هيبرت Hibbert Journal مج ٢٠ ، ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ ، ص ٥٢٣ ـ ٥٣٥ .

وقد نتج عن النقل الحرفي لمعاني الأسماء العربية إلى اللغات الأجنبية كثير من التشوش في بلدان الغرب فمثلاً كلمة الغازل Algazel يمكن أن تبدو مثل كلمة « الغزالي » وقد لا يعرف الجميع أن دكتور ماكسيموس (المعلم الأكبر) ويعرف بالشيخ الأكبر وهو (ابن العربي) أو أن Basel Valentine الملك المظفر مثلاً وهو الملك الفاتح، الكيميائي، أو الكراسة ضد السحر . . . Errores Gazıorum وتعرف بـ غلاة الجزائر (طوائف من الغلاة في الجزائر) .

٥٠ ـ شاه ، المتصوفون ص ٣٠٩ ، ٣٦٢ ـ ٣٦٤ .

٥١ ـ المرجع السابق ، ص ٣٠٩ ، إن فلسفة اليوجا والـ Zen زن أصبحت اليوم تميل إلى تجاهل المتطلبات الخاصة باختيار التلميذ ونوع المعلم .

٥٢ ـ المرجع السابق ، الصفحات xix, xiv ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧ ، ٣٩٩ .

٥٣ ـ المرجع السابق ، الصفحات xxii ، ٥٠ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ٢٢٣ ، ٣٩٣ .

٥٤ ـ تحدث البروفسور م . آسين بالاسيوس في كتاب : « الإسلام والكوميديا الإلهية عن ابن العربي ص ١١٦٥ ـ ١٢٤٠ ، وقد ترجمها عن الإسبانية هـ . ساندرلاند لندن، ١٩٢٦ La Escatologia musulmana en la Divina Comedia مدريد ، ١٩٦١ (وهو العنوان باللغة الإسبانية) .

٥٥ ـ انظر مثلاً « شمس الدين أحمد الأفلاكي » : « مناقب العارفين » قام بترجمته « ردهاوس » تحت عنوان : « حركات أهل البدايات في الإسلام ، لندن ١٨٨١ م ، وأعاد طباعته

« كنجستون » في نسخة طبق الأصل بعنوان : مناقب الصوفيين legends of the Sufis ، لندن ١٩٦٥ .

انظر أيضاً الغزالي « كيمياء السعادة » .

٥٦ ـ الرومي (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣ م) ولد في بلخ بأفغانستان وتوفي بقونيا في تركيا ، حيث حرم الرقص عند الدراويش وأصبح مجرد ظاهرة تعرض للسياح .

٥٧ ـ عبد القادر الجيلاني (سلطان الأصفياء) ١٠٧٧ ـ ١١٦٦ ، بهاء الدين النقشبندي (الشاه) ١٣١٨ ـ ١٣٨٩) .

٥٨ ـ « السوبود » Subud طائفة أسسها شخص من أندونيسيا يدعى محمد صبح في عام ١٩٣٤ ، إن عدم الاندماج في الرياضة الروحية « Latihan » قد أدى إلى ظهور حالة يشار إليها اليوم في الطب النفسي باسم « ذهان السوبود » .

٥٩ ـ تظهر الحقيقة بعد الحالات و« الوجد » والانجذاب الصوفي (كلاباذي ، كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ، نقلاً عن الجنيد البغدادي توفي ٩١٠ ، كما وردت في كتاب أ . ج . آربري « معتقدات الصوفيين ، كامبردج ، ١٩٣٥ » .

ص ١٠٦ : « ولكن عندما يصل الإنسان إلى مرتبة الحق تختفي حالة الوجود » .

٦٠ ـ في كتاب « فيه ما فيه » ، ترجمة آ ، ج . آربري بعنوان : أحاديث الرومي ، لندن ١٩٦١ . المثنوي (ترجمة ر . أ . نيكولسون ، لندن ١٩٢٦ ، و ج . و . ردهاوس ، لندن ١٨٨١ م ، أ . هـ . هوينفلد ، لندن ١٨٨٧ م ، س . أ . ويلسون ، لندن ١٩١٠ . . الخ) .

٦١ ـ أول جزء من كتاب الحديقة (ترجمة ج . ستفنسون) تحت عنوان « حديقة الحقيقة ذات الأسوار » ، كالكوتا ، ١٩١٠ ، كارنامة أو كتاب العمل ، والديوان .

٦٢ ـ مشكاة الأنوار ، ترجمة و . هـ . ت . جيردنر بعنوان : Niche for lamps الجمعية الملكية الآسيوية ، لندن ١٩٢٤ ؛ ولاهور ، ١٩٥٢ ، إحياء علوم الدين .

٦٣ ـ الفتوحات المكية Openings in Mecca ؛ فصوص الحكم ، كيمياء السعادة ، « ترجمان الأشواق » ، ترجمة نيكولسون .

٦٤ ـ انظر ديتريسي : الداروينية في القرنين العاشر والتاسع عشر ، لايبزيغ ١٨٧٨ م ، والرومي : « مثنوي » .

٦٥ ـ الشبستري ، حديقة الأسرار (القرن الثالث عشر والرابع عشر) ، سيد أحمد عاطف أصفهاني ، « تار حياند » وغير ذلك من المصادر .

٦٦ ـ مثل البيت الشعري :

للغيب سحاب وماء آخر
له سماء وشمس أخرى
إنه لا يرى إلا بعين الأطهار
(لجلال الدين الرومي من ديوانه مثنوي) .

٦٧ ـ كما في كتاب « كشف المحجوب » للهجويري (عاش في القرن الحادي عشر) .

٦٨ ـ انظر مثلاً ، رقم (٩) في ترجمة « نيكولسون » لديوان شمس التبريزي ، ص ٣٢ (النص الفارسي ويرجع إلى القرن الثالث عشر) .

٦٩ ـ البروفسور محمد علي عيني ، ترجمة آ . رشيد :
في كتابه « خلاصة فلسفة ابن عربي » .

la Quintessence de la philosophie de Ibn-i-Arabi

باريس ، ١٩٢٦ ، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

٧٠ ـ الجنيد البغدادي (توفي ٩١٠) ، أجاب على العقول المتكيفة هذه الإجابة : « لا يصل امرؤ إلى مرتبة الحقيقة ، ما لم يعامله ألف صديق له كأنه زنديق » .

٧١ ـ باللغة العربية : الطرق الإلهية كنفوس بني آدم (انظر السردار علي شاه ، التصوف الإسلامي) ، ص ٢١١ .

٧٢ ـ انظر مثلاً « سعدي » (١١٨٤ ـ ١٢٦٣) ، كلستان (حديقة الورد) ، حول طرق الدراويش ، أو ترجمة الآغا عمر علي شاه كلستان سعدي تحت عنوان : « الشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي » ، حديقة الورد ، باريس ، ١٩٦٦ . قارن ما نقله « ابن حمدان » من كتاب « كشف المحجوب » للهجويري : ابتعد عن سماع الموسيقى إذا كانت تعوق قدرتك على فهم ما هو أسمى وأرقى أما أتباع الطريقة الششتية من الدراويش المعاصرين فقد ابتعدوا عن تعليمات مؤسس طريقتهم، فكانت تحدث لهم حالات الجذب الصوفي عند سماعهم للموسيقى أو عزفها .
وقد كتب « معين الدين شيشتي » نفسه ضد هذه الرياضة فقال :
« إنهم يعلمون أننا نستمع إلى الموسيقى وأننا ندرك بعضاً من « الأسرار » كنتيجة لذلك ، لذا فهم يعزفون الموسيقى ويلقون بأنفسهم في « حالات » ، فاعلم أنه لكل نوع من أنواع المعرفة متطلباته التي يجب أن نلبيها ، وهذا لا ينطبق على الموسيقى وحدها ولكن على الفكر والتركيز .
تذكر المثل القائل : « ما فائدة الحليب اللذيذ الذي تمنحه لنا البقرة إذا رفستْ الدلو وسكبته ؟ » .

(من رسالة : مكتوبات إلى المريدين) .

٧٣ ـ على الرغم من أن الكثيرين يدينون بالولاء لتعاليم « ابن العربي » فهم لم يستوعبوا مثل هذه العبارات التي يشير فيها إلى الصوفية :

لقد أربكت كل علماء المسلمين

وكل من درس المزامير

وكل حاخام يهودي

وكل قسيس مسيحي

كما أنهم لم يتأملوا في بعض أقوال ابي سعيد ابن أبي الخير (١٠٤٠) :

لن يتم هذا العمل المقدس الذي نقوم به

حتى تتقوض المدرسة والمئذنة

ولن يكون هناك مسلم حقيقي حتى

يصبح الإيمان مرفوضاً ويصبح الرفض إيماناً

ولم يتأملوا في مثل هذا القول الذي يعبر عن حدود « أداة نقل » الدين :

« أيها المسلمون ! ليت شعري ما التدبير ؟ أنا لا أدري من أنا :

فلا أنا مسيحي ولا يهودي ولا زرداشتي ولا مسلم ، ولا شرقي ولا غربي .

(من ديوان شمس تبريز (النص الفارسي ص ١٢٤) .

٧٤ ـ ابن العربي : فصوص الحكم ، فص آدم ، أعاد صياغة النص س . أ . ك حسيني في كتابه « ابن العربي » لاهور ١٩٣١ ؛ وأعاد صياغة النص باللغة الفرنسية « بوركهارت » Burckhardt. T في كتابه « حكمة الأنبياء » La Sagesse des Prophètes ، باريس ١٩٥٥ ، ص ٢٢ وما يليها .

٧٥ ـ ج . ك . بيرجه : الطريقة البكتاشية عند المتصوفين ، لندن ١٩٣٧ ، ص ٣٩ (٣) .

٧٦ ـ براون ، الدراويش ، ص ٤٧٥ .

٧٧ ـ في هذه المعتقدات فساد لبعض المجتمعات كما ألمحت إلى هذا في كتابي « الرحلة إلى مكة » Destination Mecca ص ١٦٩ وما بعدها .

٧٨ ـ كتب الشاعر المعروف تيدهيوز Ted Hughes منذ عامين عن إدراك نفاذ للواقع الذي يقول بأن كثيرا من الأفكار الصوفية قد نفذت إلى المجتمعات الفطرية ، فقال :

« من الممكن أن نقول إن الشامانية[أ] Shamanism ربما كانت انحداراً ضالاً عن التصوف .

(أ) الشامانية دين بدائي من أديان شمالي آسيا وأوروبا يتميز بوجود عالم محجوب (المترجمة) .

(مجلة المستمع The Listener ، ٢٩ أكتوبر ، ١٩٦٤ ، ص ٦٧٨) .

٧٩ ـ ب . لورنس : الطريق الخاص بالكارجو Road belong Cargo (لندن ١٩٦٤) ، يحوي وصفاً للمعتقدات الخاصة بطائفة الكارجو ، وفيه قائمة مراجع ممتازة .

٨٠ ـ مج ٢٩٠ ، رقم ١٧٥٤ ، الصفحات ٤٨١ ـ ٥٩٥ ، ومج ٢٩١ رقم ١٧٥٦ ، الصفحات ١٢٣ ـ ١٣٥ .

٨١ ـ الصراط (النص الانجليزي) ، دلهي ، مج (١) ، رقم ٥ ، الأول من يناير ١٩٦١ ، ص ٥ ، الأعمدة ١ ـ ٣ .
مقال بعنوان « الصوفية في عالم متغير بقلم سليم بروك ـ هوايت (مريد) .

٨٢ ـ المجلة الدولية للتنويم المغناطيسي العلاجي والمجرب ، مج ١٠ ، ع رقم ٤ ، أكتوبر ، الصفحات ٢٧١ ـ ٢٧٤ : ج . الحلاج ، فن العلاج بالتنويم المغناطيسي في مجتمع آسيا الوسطى ، أعيدت طباعته في مقال لكل من ر . أ . شور ـ م . ت . أورن بعنوان « طبيعة التنويم المغناطيسي (قراءات أساسية مختارة) نيويورك ١٩٦٥ ، مج ٦ ، ص ٤٥٣ وما بعدها .

٨٣ ـ مج ١٩٧ ، رقم ١١٣٢ ، أيار (مايو) ١٩٦٠ : و . فوستر ، الأسرة الهاشمية ص ٢٦٩ ـ ٢٧١ .

٨٤ ـ مج CLxii رقم ٤٢١٠ ، ٩ كانون الأول (ديسمبر) ، ١٩٦٥ ، د . ر . مارتين ، الهندوكوش ، ص ٨٧٠ .

٨٥ ـ أعيد طبع بعض هذه المقالات في كتاب ر . و . دافيدسون : وثائق حول المجتمعات الصوفية المعاصرة ، (لندن ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧) .

٨٦ ـ التايمز رقم ٥٥ ، ٩٥٥ ، ٩ مارس (آذار) ١٩٦٤ ، حراس الأسرار القديمة ، ص ١٢ ، الأعمدة ٦ ـ ٨ .

٨٧ ـ مجلة هي ع (مارس ١٩٦٣) ، ص ٥٨ : (سلسلة : هي تتجه إلى الدين ـ رقم ١١) .
وعدد (سبتمبر ١٩٦٥) « الحياة الشاقة الصعبة » بقلم مير . س . خان ، ص ٦٨ ـ ٧٠ .
(مع صور توضيحية في كل من المقالين) .

٨٨ ـ من الكتاب الهام للغزالي (إحياء علوم الدين) .

٨٩ ـ من أقوال بعض الصوفية والمتصوفين :
مثل ذي النون المصري (توفي ٨٦٠) :

« الصوفي هو ذلك الذي ينطبق كلامه على تصرفه ويشير صمته إلى حالته ، وهو الذي ينبذ

العلاقات الدنيوية » .

« الصوفي هو ذلك الذي لا يخاف الجحيم ولا يتوق للفردوس » : المتصوفة رابعة العدوية (توفيت ٧١٧) .

« الصوفية نكران لكل ملذات هذا العالم » .

أبو الحسن النوري (توفي ٩٠٧) .

المريد هو ذلك الذي ينشد بلوغ المرتبة التي يصبح فيها ميتاً بالنسبة لنفسه وحياً بالنسبة للحقيقة وذلك بفعل المجاهدة ، ويسمى الشخص الذي يبلغ هذه المرحلة متصوفاً » .

الهجويري (متصوف من القرن الحادي عشر الميلادي) .

« الصوفية هي الصفة التي من خلالها يكون وجود الإنسان » .

الجنيد البغدادي (توفي ٩١٠) .

الصوفي هو الذي لا يهيمن عليه شيء كما أنه لا يهيمن على شيء » .

النوري .

الصوفية هي الوصول إلى الحقيقة دون قانون أو صيغة » .

ابن اللآلي (القرن الحادي عشر الميلادي) .

٩٠ ـ الرومي : العقل = الذكاء الحقيقي ، وقال أيضاً : كتاب الصوفي ليس كتاباً في الأدب (مثنوي) .

٩١ ـ وهذه هي الكيفية التي تصبح بها الرموز السيكولوجية وغيرها من الرموز البيانية مَنْدالة(أ) ورموزاً سحرية » .

٩٢ ـ لقد روى العديد من أئمة الصوفية كثيراً من تعاليم الدراويش في قالب قصصي ، وتوجد مثل هذه القصص في كتابي : حكايات الدراويش Tales of the Dervishes ، لندن ١٩٦٧ ، وقد رواها هؤلاء الصوفيون باعتبار أنها حدثت لهم شخصياً .

٩٣ ـ هذه المعتقدات غامضة كما تحدث عنها البروفسور أ . ج . آربري « لأنها مؤسسة بناء على ممارسات قريبة التناول بطبيعتها » (حكايات من المثنوي ، لندن ١٩٦١ ، ص ١٩) .

وهناك مصطلح فني لبعض أشكال هذه المعتقدات وتستعمل كلمات ذات شكل متشابه ولكن لها عدة معان ، وهذا هو « جناس محرف(ب) ويستخدم بكثرة في الشعر ؛ ويبين « جيب » في كتابه « تاريخ الشعر العثماني » ، [١٩٠٠] ج ١ ، ص ١١٨ ، أنه ملم بهذا النظام لكنه لا يطبقه في دراساته .

(أ) المندالة : رمز الكون عند الهندوس والبوذيين (المترجمة) .

(ب) الجناس المحرف هو ما اختلف ركناه في هيئة الحروف .

٩٤ ـ يتحدث محمود الشبستري (١٣١٧) كما هو الحال مع كثير من معلمي الصوفية عن الطبيعة الشفافة للطقوس الدينية فيقول :

لو عرف العلم ما هو المعبود
فسيعرف أن هناك ديناً في الوثنية
ولو عرف العابد ماذا كانت الأديان
لعرف أنه قد انحرف عن الصراط المستقيم
فهو لا يرى في المعبود سوى المخلوق الظاهر .
وهذا هو السبب في أنه أصبح في الشرع كافراً

(من جلشان راز أو « حديقة الأسرار »)

٩٥ ـ لم يرد ذكر هذا الدور الهام في التحويل الصوفي في « المؤلفات الصوفية » والدليلُ على هذا أن المرجع الوحيد حول الفكاهة في الأدب الصوفي هو كتاب : « الطريقة البكتاشية عند الدراويش » ، ص ٨٨ ، تأليف الطالب الأمريكي Birge ، انظر أيضاً : بطولات الملا نصر الدين (جوناثان كاب ، لندن ١٩٦٦) .

٩٦ ـ أفضل حالة معروفة هي ما جرى للحسين بن منصور الحلاج الشهيد الصوفي العظيم الذي مزقت أعضاؤه وهو حي وعذب حتى الموت ثم أحرقت جثته بأمر من الخليفة « المقتدر » الذي ينتسب إلى آل الرشيد في عام (٩٢٢) ، لادعائه بالألوهية ، وقد تخصص البرفسور « لويس ماسينيون » في أدب الحلاج ، انظر أيضاً الحاشية رقم ١٠١ المبينة أسفله ، أما المعلم الكبير « السهروردي » فقد أدين لتعليمه الفلسفة القديمة في القرن الثاني عشر (انظر الحاشية ١٩) .

٩٧ ـ بالنسبة للجماعات والحركات التي لا تنتمي إلى عقيدة معينة انظر ر . ج . لنتيان : « إصلاح الفكر » ، لندن ١٩٦١ ، و ج . مان : « تغيير السلوك الانساني » ، نيويورك ، ١٩٦٥ ، ج . هـ . سبروت : الجماعات الإنسانية ، لندن ١٩٥٨ .
م . فيليبس « الفئات الاجتماعية في انجلترا » ، لندن ١٩٦٥ .

٩٨ ـ وردت القصة التي تروي زيارة أصحاب محمد لأويس القرني بعد وفاة الرسول (ص) في عدد من الكتب منها الكتاب المعروف باسم تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ، وقد ترجمه أ . بافيت دي كورتايل ، باريس ١٨٨٩ ، ص ١١ وما بعدها ، ثم اختصره الدكتور ب . بهاري ، لاهور ، ١٩٦١ بعنوان (مختصر تذكرة الأولياء) .

٩٩ ـ انظر كتاب « عوارف المعارف » الذي كتبه في القرن الثالث عشر الشيخ شهاب الدين

عمر بن محمد السهروردي (رواية محمود بن علي القاشاني ، ترجمه من الفارسية إلى الانجليزية الكولونيل هـ . ويلبر فورس كلارك ، [كلكتا ، ١٨٩٠ م] .

١٠٠ ـ النص بالعربية هو : شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

البروفسور حتي Hitti (في المرجع المشار إليه سابقاً ، ص ٤٣٦) .
ويقول عن « ابن الفارض » إنه الشاعر العربي الصوفي الوحيد .
واشارة ويلبر فورس كلارك ، انظر كلمة Supra فوق ، الحاشية رقم ٨٢ .

١٠١ ـ انظر البروفسور ل . ماسينيون ، ديوان الحلاج ، باريس ١٩٥٥ ، الخ . . .

١٠٢ ـ انظر كتابه « القومية التركية والحضارة الغربية » ، لندن ١٩٥٩ .

١٠٣ ـ مثل قول « ابن العربي » : « يظن الناس أن الشيخ يجب أن يظهر معجزات وإشراقات ، ومع هذا فالمطلوب من المعلم الصوفي هو أن يكون لديه كل ما يتطلبه المريد » .

١٠٤ ـ دون في كتاب الهجويري : « كشف المحجوب » .

١٠٥ ـ « مناقب العارفين » انظر الحاشية رقم (٥٥) أعلاه .

١٠٦ ـ كتب « مجمع البحرين » وقد نشر في ترجمة له قامت بها الجمعية الآسيوية في البنغال .

١٠٧ ـ في حلقة الصوفيين ربما سبب عضو غير مناسب ضرراً لجهود جماعة الصوفيين ، وقد تحدث عن هذا بعض الصوفيين مثل « سعدي الشيرازي » في كتابه « كلستان » في فصل بعنوان : أخلاق الدراويش » .

١٠٨ ـ عمر الخيام (توفي عام ١١٢٣ م) : بالنسبة للدراسات عن الصوفية لدى الخيام ، انظر سوامي جوفيندا يَرثا . Swami Govinda Tirtha رحيق النعمة ـ حياة وأعمال عمر الخيام (الله أباد ، ١٩٤١) ؛ وإدريس شاه : المتصوفون ، ص ١٦٤ ـ ١٧١ ، والقصيدة هي الرباعية رقم (٢٤) في مخطوط بمكتبة بودليان ، تحقيق أ . هيرون آلن E Heron-Allen (رباعيات الخيام ، لندن ١٨٩٨) ، ص ١٤١ وترجمة النص الأصلي الفارسي هي :

في الصومعة والمدرسة والدير والمعبد
الكل يخافون من الجحيم ويطلبون الجنة
من كان مطلعاً على الأسرار الإلهية
لم يبذر في قلبه بذراً من هذا القبيل .

لقد ترجم « روبرت جريفز » رباعيات الخيام ونشرت عام ١٩٦٧ بالاشتراك مع « عمر علي شاه » مضافاً إليها بعض التعليقات النقدية .

١٠٩ ـ انظر النص الانجليزي بقلم س . أ . ك حسيني : « ابن العربي » ، (لاهور ، ١٩٣١) ، ج (٦) ، ١ ص ٣٨ .

١١٠ ـ ر . سيماك « في حلقة النقشبندية » مجلة هيبرت (ربيع ١٩٦٧) ، مج ٦٥ ، رقم ٢٥٨ ، انظر أيضاً شاه : بطولات الملا نصر الدين ، (لندن ونيويورك ، ١٩٦٦) ، وقافلة الأحلام Caravan of Dreams ، (لندن ، ١٩٦٨) .

القسم الثاني

أعلام التصوف

١ ـ الغزالي

ينقــل الفيلسوف الصـوفي الغزالي الـذي عاش في القـرن الثاني عشـر في مؤلفه المسمى كتاب فاتحة العلوم«The Book of Khowledge هذا البيت من شعر «المتنبي» :

ومــن يــكُ ذا فَــمٍ مــرٍ مــريضٍ   يــجــدْ مــراً بــهِ الــمــاءَ الــزلالا

ويمكن أخذ هذا القول « كشعار » للغـزالي ، فقد أشـار قبل مجيء العـالم « بافلوف » بمائة سنة ، وتحدث مراراً (تارة باستعمـال الحكايـات الرمـزية وتـارة أخرى بكلمات « حديثة ») عن الإشراط[أ] .

ولكن على الرغم من بافلوف والعـديد من الكتب والـدراسات الـطبية التي ظهرت عن السلوك الإنساني منذ الحرب الكورية فإن الطالب العادي الذي يدرس شؤوناً تتعلق بالفكر لا يدرك قوة تلقين المبادىء أو وجهات النظر .

(أ) الإشراط في علم النفس عملية ربط عن طريق التداعي .

(*) إن من خصوصيات الإنسان المعاصر أنه على الرغم من توفر الدليـل العلمي لديـه فهو على العكس من ذلك لا يدرك أن معتقـداتـه لا ترتبط بالضرورة بذكائه أو ثقافته أو قيمـه ، ولهذا فهو عرضة لتلقي المبادىء أو وجهات النظر بشكل غير معقول .

وربما كان تلقين المبادىء في المجتمعات الديكتاتورية مرغوباً إذا كان يتفق مع معتقدات هذه المجتمعات ، أما في المجتمعات الأخرى فيشك بوجود مثل هذه الرغبة ، وهذا هو السبب في سرعة تأثر أي شخص بهذا التلقين . ومؤلفات « الغزالي » لا تسبق المعلومات المعاصرة حول هذا الموضوع فحسب ، بل إنها تفوقها .

ففي زمن الكتابة تكون الفكرة التي يعبر عنها الكاتب موزعة بين مسألتين ، هل بالإمكان تلقين مبادىء العلم (سواء علناً أو بشكل خفي) ، وهل هناك مفر منه أم لا .

ويشير الغزالي إلى أن ما يدعوه الناس عقيدة يمكن أن يكون حالة من الاستحواذ ولا يكتفي بهذا بل يقرر أنه لا مفر منها كما تدعو لذلك المبادىء الصوفية ويلح على ضرورة تعرف الناس على هذه المبادىء .

لقد أحرق المتعصبون في بلدان المتوسط الممتدة من اسبانيا حتى سوريا كتب الغزالي ، أما اليوم فإن هذه الكتب لا تحرق ، ولكن ضعف تأثيرها في الناس جميعاً لا بين المتصوفين وحدهم ، وأصبح من النادر قراءتها .

وقد رأى الغزالي أن من السهل ألا يدرك الناس الاختلاف بين الفكر والمعرفة ، وفي هذه الحالة يجب على أولئك الذين يدركون موضع الخلاف أن يوضحوا ذلك قدر الإمكان .

على أن منجزات « الغزالي » العلمية والنفسية لم تجد الاهتمام الكافي الذي تستحقه رغم تقديرها الواسع من قبل الأكاديميات العلمية المختلفة ، ويعود السبب في ذلك إلى عدم إقراره بكون الأسلوب العلمي أو المنطقي أصل لهذه المنجزات .

لقد توصل الغزالي إلى معرفته من خلال نشأته الصوفية بين المتصوفين وإدراكه المباشر للحقيقة التي ليس لها علاقة بالتفكير الآلي ، وهذا ما يضعه

خارج نطاق العلماء ، ومع ذلك فما يدعو للعجب أن الأشياء التي توصل إليها الغزالي رائعة ، ولا شك أن الباحثين يتوقون لمعرفة كيفية وصوله إليها .

ولو أن الغزالي لم يقدم ثمرات هامة لكان في نظر الناس متصوفاً من المتصوفين فحسب ، وكان هذا دليلاً على أن التصوف لا يأتي بثمرة من الناحية التعليمية أو الاجتماعية .

ويتفق الجميع على عمق تأثير الغزالي في الفكر الأوروبي ، لكن هذا التأثير نفسه يبين قيمة العامل الشرطي فقد تبنى الفلاسفة الغربيون في العصر الوسيط كثيراً من أفكاره وفعلوا هذا بمحض إرادتهم ، متجاهلين الأفكار التي كانت تعوق نشاطاتهم الخاصة بمعتقداتهم الفكرية .

وكانت طريقة الغزالي في التفكير تقرب لأذهان الجمهور لا لفئة المتصوفين وحدهم الفارق الحاسم بين العقيدة والاستحواذ .

لقد أكد الغزالي على دور النشأة في غرس المعتقدات الدينية ودعا قراءه لملاحظة الطريقة الآلية التي يحصل فيها هذا الغرس ، وأشار بإلحاح إلى أن بعض أولئك المتعلمين ربما كانوا على شيء من البساطة ويمكن أن يصبحوا من المتعصبين وغير الأسوياء .

ويلح الغزالي على أن المعرفة هي أرقى أشكال التفكير الإنساني ، بالإضافة إلى القدرة على الاحتفاظ بالمعلومات ونقلها للآخرين .

أما عادة الخلط بين الفكر والمعرفة ، وهي عادة نواجهها يومياً في عصرنا الحاضر فينظر إليها الغزالي كمرض وبائي .

ولم يكن الغزالي في كل آرائه يلعب دور المشخص للمرض فحسب بل كان يتميز بأسلوب موضح دون إتجاه علمي ، ولقد حصل الغزالي على معرفته بطريقة صوفية ، وكان يرى كمتصوف ، أن الإدراك العميق لا يتيسر إلا لأولئك الذين بإمكانهم تبين الظاهرة التي وصفها ومن ثم تجنبها .

لقد ألف الغزالي كتباً كثيرة ونشر تعاليم وفيرة ، أما مساهمته في الفكر الإنساني فقد تجلت في مؤلفاته التي بقيت كذخيرة عظيمة تضم أفكاره .

فلعلنا نعيد ترميم ما أغفله السابقون ولو جزئياً بتتبع ما أتى به الغزالي عن الأسلوب الفكري ، فما هي طريقة الغزالي ؟ وماذا على المرء أن يفعل ليصبح مثله رجلاً أقر الجميع على أنه أحد عمالقة العالم في الفلسفة وعلم النفس ؟

الغزالي وطريقته في الحياة :

كان الغزالي يؤمن بأن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا طرح الأنانية والشهوة وحدة الطبع والتهجم على الآخرين .

أما بالنسبة للتلميذ فعليه الاقلال من إهتمامه بالأمور المعتادة له كقومه وبيئته ، إذ أن طاقته على الاهتمام محدودة .

ويجب على التلميذ أن ينظر إلى معلمه كطبيب يعرف سبيله إلى معالجة مريضه ، أما التلميذ فسيقوم بخدمة معلمه ، والصوفيون يقدمون تعاليمهم بطرق غير مألوفة ، كما الطبيب المجرب يصف معالجات خاصة ويصيب في هذا الوصف .

ومع هذا فإن من يرقبه ربما دهش لما يقول أو يفعل ، وسوف يفشل في تفهم المنهج الذي يتبعه .

ولعل هذا هو السبب في عدم تمكن التلميذ من توجيه الأسئلة المناسبة في الوقت المناسب ، لكن المعلم هو الذي يعرف متى وأين يمكن للشخص أن يفهم .

الفرق بين النشاط الإجتماعي وأخذ الطريق من قبل الفرد :

يلح الغزالي على الصلة والفرق بين الاتصال الاجتماعي بين الناس والاتصال الأعلى .

ويرى أن ما يمنع الفرد أو مجموعة الأفراد من التقدم من البدايات الجيدة هو تأرجحهم بين التكرار وبين المبدأ الاجتماعي المقنع .

ويقول الغزالي لو طلب أحد الأطفال تفسيراً للمسرات التي يشعر بها المرء في السيطرة فيمكن أن نشبه ذلك بالسرور الذي يشعر به عندما يزاول إحدى الرياضات ، على الرغم من عدم وجود صفة عامة تجمع بينهما سوى انتمائهما إلى شيء واحد هو الشعور بالمسرة .

حكاية رمزية عن أشخاص لهم أهداف سامية :

يروي الإمام الغزالي قصة من حياة « المسيح عيسى بن مريم » ، فقد رأى عيسى عليه السلام ذات يوم بعض الناس يستندون ببؤس إلى حائط بالقرب من جانب الطريق ، فقال : « ما شأنكم ؟ » .

قالوا : « نحن هكذا لخوفنا من النار » .

ثم جاوزهم ، فمر بآخرين مجتمعين في غم ، فقال : « ما بالكم ؟ » قالوا : « إن شوقنا إلى الجنان جعلنا هكذا » .

فاستمر في طريقه حتى مر بآخرين وكان مظهرهم يدل على أنهم قد كابدوا كثيراً ، لكن وجوههم كانت تلمع بالفرح .

فسألهم عيسى : « ما الذي صنع بكم هذا ؟ » فأجابوا : « روح الحقيقة ، لقد رأينا الحقيقة وهذا ما جعلنا ننسى كثيراً من الأهداف الأقل شأناً » .

فقال عيسى : « هؤلاء هم الناس الذين يربحون ، هؤلاء هم الذين سيكونون يوم الحساب من المقربين إلى الله .

ثلاثة مهام للإنسان الكامل :

إن علاقة الإنسان الكامل مع الآخرين في نظر المتصوفين ذات ثلاثة أشكال ، وتختلف هذه الأشكال تبعاً لظروف الناس ، وتتم ممارسة هذه الأخلاق

الصوفية مع الآخرين وفقاً لما يلي :

١ ـ شكل العقيدة التي تحيط بالصوفي .

٢ ـ طاقة الطلاب الذين يتلقون التعاليم وقدراتهم على الفهم .

٣ ـ وجود حلقة خاصة من الناس الذين يشتركون في فهمهم للمعرفة التي أتيحت لهم عن طريق الرياضة الروحية المباشرة .

جاذبية المشاهير :

لا يهم الإنسان الذي أنقذه شخص من بطش أحد الأسود أن يكون هذا الشخص مجهولاً أو من المشاهير ، فلماذا يطلب الناس المعرفة من المشاهير ؟

طبيعة المعرفة الإلهية :

المعرفة الإلهية عميقة جداً ، لا يعرفها تمام المعرفة إلا أولئك الذين يمتلكونها ، فالطفل لا يعرف ما حققه الكبير ، كما أن الإنسان العادي لا يمكن أن يتفهم ما وصل إليه العلماء ، ولا يتمكن المثقف العادي من فهم رياضة الأولياء أو المتصوفين .

الحب والاهتمام بالنفس :

إذا أحب المرء شخصاً فلأن هذا الحب يمنحه شعوراً بالسعادة ، وفي هذه الحالة لا يعد هذا الشخص محباً على الاطلاق ، فغاية الحب في الحقيقة هي السعادة رغم أن هذا لا يدركه الكثيرون ، والمصدر الذي يجلب السعادة هو الموضوع الثاني للاهتمام ، ولا يدرك الناس هذه الحقيقة لأن إدراك السعادة ليس نامياً بحيث يمكن للشعور الحقيقي أن يصفها أو يعرفها .

عليك الاستعداد :

يقول الغزالي : عليك أن تعد نفسك للانتقال إلى حيث لا يوجد أي من الأشياء التي اعتدتها في هذه الحياة ، فبعد الموت سيكون على الذات أن تستجيب لمؤثرات لديك الآن فرصة مناسبة لتجربتها ، فإذا بقيت متعلقاً بالأشياء القليلة التي ألفتها فأنت من التعساء .

الجهل :

يعترض الناس على بعض الأشياء لأنهم يجهلونها .

احتفالات الموسيقى والرقص :

تتم مثل هذه الاحتفالات وفقاً لمتطلبات يقتضيها الزمان والمكان ، ويستبعد أولئك المتفرجون الذين لا يستحقون الحضور ، أما المشاهدون فيجب عليهم الجلوس بصمت وعدم التطلع إلى بعضهم بعض ، فهم يُنْشِدون ما هو نابع من « قلوبهم » .

الزوجة العاقر :

ذهب رجل إلى أحد الأطباء وأخبره بأن زوجته كانت عاقراً ، ففحصها الطبيب ثم قال لها : « لا يمكنني معالجتك من العقم لأنني اكتشفت أنك على أية حال ستموتين بعد أربعين يوماً ، ولما سمعت المرأة هذا الكلام أصابها الذعر ، ولم تستطع تناول شيء من الطعام خلال الأربعين يوماً التالية .

لكنها لم تمت في الوقت الذي حدده الطبيب ، فبحث الزوج الأمر مع الطبيب الذي قال : « نعم ، أعلم هذا ، الآن ستتمكن زوجتك من إنجاب الأطفال » .

فاستفسر الزوج عن كيفية حدوث هذا ، فقال الطبيب :

ـ « لقد كانت زوجتك بدينة جداً ، وكانت هذه البدانة تعيقها عن

الحمل ، وقد أدركت أن الشيء الوحيد الذي يمكنه إيقافها عن الأكل هو خوفها من الموت ، وهكذا فقد شفيت الآن » .

إن السبيل إلى المعرفة محفوف بالمخاطر .

الرقص :

طلب المريد[1] أن يُسمح له بالاشتراك في « رقص » الصوفيين ، فقال الشيخ :

ـ « عليك أن تصوم عن الطعام والشراب ثلاثة أيام ، ثم بعد ذلك تتناول الأطباق الشهية ، فإذا فضلت عندئذ « الرقص » يمكنك أن تشارك فيه » .

الصفة يجب أن يكون لها أداة نقل :

ليس للسرعة فوائد في حد ذاتها ، لكنها تصبح فضيلة عندما تتوفر في الحصان .

النفس المنجذبة :

إذا لم تجد في أي من الرجال نموذجاً للإخلاص تأمل في حياة المتصوفين ، يجب على المرء أن يتساءل : أيتها النفس ! إنك تضطربين إذا دعيت بالمنجذبة ، ولكن ما أنتِ حقاً ؟ ، أيها الإنسان إنك تعد الملابس للشتاء ، لكنك لا تتزود بشيء من أجل الحياة الأخرى ، فما أشبهك برجل يقول لنفسه في الشتاء : لن أرتدي ما يدفئني من الملابس ، فالرب سيحميني من البرد ، ولا يدرك هذا الإنسان أن الله هيأ له الوسائل التي تقيه

(أ) المريد في مصطلح أهل التصوف هو الشخص الذي يريد أن يجمع الفضائل المفيدة ، ويصبح متصوفاً حقيقياً ، وفي كتاب «كنه ما لا بد للمريد منه» للشيخ محيي الدين بن العربي حديث مفصل عن هذا الموضوع (المترجمة) .

من البرد مثلما خلق البرد » .

خلق الإنسان ليتعلم :

الجمل أقوى من الإنسان والفيل أكبر حجماً ، أما الأسد فأكثر شجاعة ، والماشية تأكل أكثر من الإنسان ، والطيور أكثر نشاطاً .

أما الإنسان فقد خلق من أجل المعرفة .

ثمن المعرفة :

إن للمعرفة ثمناً ، ولكن لا ينال هذا الثمن إلا أولئك الذين بإمكانهم أن يحتفظوا بها ويصونوها .

« كتاب المعرفة » ، من أقوال إكريما .

تعليق بقلم جنوبي Junubi :

يقصد بهذه المعرفة المعرفة الصوفية ، لكنها ليست مستمدة من الكتب ، ومن أي شيء يدون ويحفظ ؛ لأن مثل هذه المعرفة المدونة لن تتضاءل إذا فشل شخص ما في الاستفادة منها ، لكننا نقصد المعرفة التي تُمنح في الزمان وبالأسلوب الذي يثبت المعرفة المستمدة من الكتاب ويحققها .

وإن « منحنا المعرفة التي تضيع » معناه السماح « بحالات » معينة من معرفة الحقيقة لتنشأ في الفرد قبل أن يصبح في وضع يمكنه من الاحتفاظ بهذه الحالة ، ومن هنا فإنه يفقد فوائدها وتضيع هباءً .

تعليق بقلم أحمد ميناي Ahmad Minai :

نظراً لصعوبة الوصول إلى هذه الحقيقة وبسبب الكسل الذي لا يمكن تبريره ، قرر المفكرون أن « يلغوا » أي معرفة لا تتضمنها الكتب ، لكن هذا لا يعني أنها غير موجودة ، على أنه من الصعوبة بمكان أن يتوصل إليها

الإنسان طالما أن هؤلاء (المفكرين) قد علموا الناس ألا يبحثوا عنها .

الإمتلاك :

إنك لا تمتلك إلا ما لا يضيع لدى تحطم السفينة .

الربح والخسارة :

أود أن أعرف ماذا ربح الإنسان الذي يعرف ، وماذا خسر ذلك الذي لا يعرف .

٢ ـ عمر الخيام

فيلسوف مشهور وعالم وصاحب تعاليم صوفية ، ذاع صيته في الأدب الاوروبي بعد نشر إدوارد فيتزجرالد Edward Fitzgerald لبعض رباعيات من رباعياته في العصر الفكتوري ، ويجدر القول بأن فيتزجرالد وغيره من الباحثين الشرقيين كان يعتقد أن الخيام ضحية لنوع من الصراع الفكري لأنه كان يتحدث في بعض الأحيان عن وجهات نظر متضاربة .

ومع ذلك فقد كان « فيتزجرالد » مخطئاً في أمور اخرى أكثر أهمية من التفكير السطحي ، منها إقحامه الدعاية ضد التصوف في ترجمته لرباعيات الخيام وهذا لا عذر له حتى من قبل أكبر المؤيدين لوجهة نظره ، فهم تبعاً لذلك يتجاهلون هذا النقل غير الأمين ويثورون من أجل موضوعات أخرى .

إن قصائد عمر الخيام التعليمية والقصائد الأخرى التي نظمها أولئك الذين ينتمون إلى مدرسته الفكرية ، والتي أصبحت جزءاً هاماً من هذه المادة التعليمية قد بنيت على المصطلح الخاص بالمتصوفين وقصصهم الرمزية .

وقد نشر «سوامي جوفيندا تيرثا Swami Govinda Tirtha في عام ١٩٤١ ترجمته ودراسته الكاملة للرباعيات تحت عنوان « رحيق النعمة » «The Nectar of Grace» .

وهذا الكتاب هو الكلمة الأخيرة في قضية المعنى الذي أتى به المؤلف في كتابه (طالما بالإمكان نقل هذا المعنى إلى اللغة الانكليزية) .

ومن المهم أن نشير إلى أن قليلاً من الباحثين الغربيين استفادوا من هذا العمل المميز في ترجماتهم للخيام ، وكانت النتيجة بقاء الخيام كالمجهول في نظر الناس .

السرّ

السر يجب حفظه عن كل أولئك الذين ليسوا من الناس
اللغز يجب إخفاؤه عن كل الحمقى .
انظر ماذا تصنع للناس
إن العين يجب أن تخبأ عن كل الناس .

الجنس البشري

إن دائرة هذا العالم تشبه الخاتم ،
وما من شك على الإطلاق في أننا نحن النقش الموجود
في فص هذا الخاتم .

بذور كهذه

كم في المدارس والصوامع أنفس
ترجو الجنان وتختشي النيرانا
لكن من عرف الإله وسره
لم يشغلن بذي الأمور جنانا[أ] .

(ترجمة أخرى للأبيات) :

(أ) ترجمة الأبيات كما وردت في الترجمة التي قام بها السيد أحمد الصافي النجفي وهي أقرب الترجمات إلى الأصل الفارسي .

في الصومعة والمدرسة والدير والمعبد
الكل يخافون الجحيم ويطلبون الجنة
من كان حقاً يعرف سر الإله
لم يبذر في قلبه بذراً من هذا القبيل[ب] .

عدو الإيمان

أشربُ الخمر ، ويقول الأعداء في اليمين واليسار : « لا تشرب الخمرة فهي ضد العقيدة » . طالما علمت أن الخمرة ضد العقيدة ، فبالله دعني أشرب ، فإن دماء العدو تحل لي .

تأملات

رغم أن « النبيذ » محرم ، فهذا التحريم يكون وفقاً للشارب ،

وكم يشرب ، ومع من يشرب .

وعندما تُعرف هذه الأمور الثلاثة ، تكلم بصدق هذه العبارة :

- «إذن ، لو كان الحكيم لا يشرب « الخمر » فمن يفعل ؟

أولئك الذين يحاولون أن يبتعدوا عن المجتمع
والذين يقضون الليل في الصلاة .

ليس هناك أحد على الأرض ، كلهم في البحر

وحده المستيقظ والآخرون نيام .

استغرقتُ في النوم وقالت لي الحكمة :

أيها النوم ، لم تتفتح زهرة السعادة

لماذا تفعل ما هو شبيه بالموت ؟

(ب) ترجمة الأبيات كما وردت في معظم كتب الصوفية .

اشرب « الخمر » ، فسوف تنام نوماً طويلاً .

أيها الخلان ، عندما تجتمعون ، أذكروا صديقكم كثيراً ، وإذا شربتم الخمرة السائغة ، وجاء دورنا ، اقلبوا الكأس » .

أيها الساقي ، أولئك الذين ذهبوا قبلنا ، نائمون في تراب الكبرياء .
اذهب واشرب « الخمر » ، واسمع مني هذه الحقيقة :
أيها الساقي ، إن ما « تحدثوا » عنه موجود بين أيدينا الآن .

تحت التراب

أيتها الأرض إن فتحوا صدرك
وجدوا فيه كثيراً من الجواهر الثمينة
لست ذهباً ، أيها الغافل الجاهل
ومن وضع كل شيء في التراب
سيخرجك منه مرة أخرى .

الإنسان

هل تعلم يا خيام ؟ ما هو رجل الأرض ؟
إنه مشكاة الخيال ، وفي داخلها شعلة من نور .

لا تذهب خاوي اليدين . . .

خذ بعض الزاد من هنا وهناك
فلن تكسب شيئاً لو ذهبت خاوي الوفاض .

أنا أكون

كل جماعة لها رأي عني
أنا ذاتي ؛ وأنا من أكون .

٣ ـ فريد الدين العطار النيسابوري

أحد جهابذة الأدب الصوفي ومن الذين استلهم منهم جلال الدين الرومي ،وعلى الرغم من ذلك فإن كتابه « تذكرة الأولياء » ويحوي حكايات وتعاليم لحكماء الصوفيين لم يترجم إلى اللغة الانجليزية إلا بعد انقضاء سبعة قرون ونصف على تأليفه .

وقد إهتم الغرب اهتماماً كبيراً بالتصوف ، لكن أعمال فريد الدين العطار لقيت اهتماماً في بلدان أخرى ، فقد نشر الدكتور « يانكي بيهاري » وهو متصوف هندي ٦٢ فصلاً من كتاب « تذكرة الأولياء »(*) في عام ١٩٦١ .

لقد كتب العطار حوالي مائة وأربعة عشر كتاباً من بينها الكتب الصوفية التالية : « الكتاب الإلهي ، أو إلهي نامة ، « ومنطق الطير »(**) وكتاب « المجلس » .

وقد انتقلت تعاليمه من خلال ما تضمنته كتبه من الترجمة الشخصية التصويرية والحكايات والحكم والقصص التي لا تحوي تعاليمه الأخلاقية

(*) كتاب يبحث في سير أهل التصوف .

(**) ملحمة صوفية ترمز إلى مسيرة أهل العرفان ورياضتهم الشاقة في طريق الكمال الإنساني للوصول إلى كنه الحقيقة بالفناء في ذات المحبوب الأسمى .

فحسب ، بل تحوي أيضاً قصصاً تصف لنا حالات معينة من مراحل التطور الإنساني ، فمثلاً يصور لنا في كتابه « مجلس الطيور » أطواراً شخصية في الضمير الانساني ، رغم أن هذه الأطوار تتمثل في حوادث تحصل لأشخاص مختلفين في مجتمع واحد .

واستخدم العطار موضوع « الرحلة » أو « التنقيب » كمقارنة بين المراحل المتتالية للنفس الانسانية في بحثها عن الكمال .

ويروى أنه توفي بين أيدي جنود جنكيز خان بعد أن استبعد تلاميذه وأرسلهم إلى أماكن آمنة ، وبعد رفضه مناصب عرضها عليه الغزاة المغوليون الذين غزوا آسيا الوسطى ، وكان قد تنبأ بالغزو المغولي في القرن الثالث عشر .

إن تراث الصوفية يؤكد بأن أعمال « العطار » على جانب كبير من الأهمية ، فهي تساعد المرء في التعرف على التركيب الاجتماعي والمستويات الأخلاقية في الإسلام ، ولو تصفحنا منتخبات من هذه الأعمال نجد أنها تحوي مادة تدور حول أخذ الطريق تختبىء خلف الأجزاء المثقلة بالأفكار الدينية .

جواب ليسوع

شتم بعض الاسرائيليين ذات يوم ، يسوع المسيح بينما كان سائراً في الحي الخاص بهم في المدينة ، لكنه لم يجب بل اكتفى بأن تمتم بضع صلوات يستغفر لهم .

فقال له أحد الأشخاص : « أتصلي من أجلهم ، ألا تشعر بالسخط عليهم ؟ » فأجاب : « وهل يمكن أن أنفق ما ليس في محفظتي ؟ » .

القلب

سأل أحدهم مجنوناً(*) وكان يبكي بكاءاً مراً :

« لماذا تبكي ؟ »

أجاب : « أبكي لأثير شفقة قلبه » .

فقال الآخر : هراء ، فليس لله قلب مادي » .

فأجاب المجنون : « أنت المخطيء ، لأنه هو مالك القلوب جميعاً ، وأنت تتصل بالله من خلال القلب » .

حول تقديم هبة مرفوضة

ماذا ! هل يمكن أن تمحوا اسمي من سجل الدراويش بمبلغ من المال ؟

حكاية الفضل بن الربيع

ذهب رجل مدقع ذات يوم لرؤية الفضل بن الربيع ليبحث معه في أمر من الأمور ، ولما كان الرجل الفقير عجوزاً كثير العصبية ، فقد جرح برأس عصاه الحديدية قدم « الفضل بن الربيع » .

لكن « الفضل بن الربيع » . أخذ ينصت إلى ما يقوله العجوز بلطفٍ ، ولم ينبس ببنت شفة رغم شحوب لونه وامتقاع وجهه من ألم الجرح ولأن رأس العصا الحديدية ظلت فترة طويلة في قدمه .

ثم أخذ العجوز ورقة من « الفضل » فوقع عليها « الفضل » .

وبعد أن ذهب العجوز مسروراً من تحقيقه لمأربه ، انهار الفضل بن الربيع من ألمه .

(*) المجنون لقب مدح عند المتصوفة ، أي المشغول بحب الله (المترجمة) .

وقال أحد النبلاء من أتباعه :

ـ « سيدي ، أنت جالس هنا والدماء تنزف من قدمك وذلك العجوز الخرف يخزها بعصاه ، ولا تتذمر على الإطلاق » .

فقال « الفضل بن الربيع » :

ـ « لم أظهر علامة تدل على إحساسي بالألم لأنني خشيت أن ينصرف العجوز مضطرباً وحزيناً من أجلي ، وربما ترك مطلبه ليساعدني وما دام فقيراً بائساً فلماذا أضيف إلى متاعبه شيئاً آخر ؟ » كن رجلاً حقيقياً ، تعلم النبل في التفكير والعمل كما كان « الفضل بن الربيع » .

العبد الذي ليس له سيد

وصل أحد الدراويش إلى الكوفة متجولاً في ثوب مرقع وقد لوحت وجهه الشمس ، فرآه أحد التجار ، ولما تحدث إليه عرف أنه عبد تائه . فقال له : سوف أدعوك خيراً » ، لأنك حسن الخلق ، ألست من العبيد ؟ .

قال « خير » : « نعم » .

ـ « إذن سوف آخذك إلى بيتي ، ويمكنك أن تعمل عندي ريثما أعثر على سيدك » .

فقال خير : « أتمنى ذلك ، فقد بحثت عنه فترة طويلة» .

وعمل خير مع التاجر الذي علمه النسج فأصبح نساجاً ، ومن هنا أتى لقبه « النساج » .

وبعد أن قضى العبد فترة طويلة في خدمة التاجر ، أحس هذا الأخير بخطئه في استثماره وقال له :

ـ « إنني لا أعلم من تكون ، ولكن لك الحرية الآن في أن ترحل أينما تشاء » . وتوجه « خير النساج » شيخ الطريقة العظيم إلى مكة فقد عرف مسيرته

رغم حرمانه من الاسم ومعاملته كعبد .

وهذا العبد هو الذي أصبح فيما بعد معلماً للشبلي وإبراهيم الخواص وغيره من معلمي الصوفية .

توفي خير النساج منذ أكثر من ألف سنة عن عمر يناهز المائة والعشرين سنة .

الصندوق السحري

أراد رجل أن يبيع بساطاً خشناً ، فقام بعرضه على الملأ في الشارع ، فقال أول رجل عُرض عليه :

ـ « هذا بساط خشن وبالٍ جداً » . واشتراه بثمن بخس .

ثم وقف المشتري وقال لرجل آخر كان في الطريق :

ـ « هذا بساط ناعم كالحرير لا تجد مثيلاً له » .

وسمع أحد المتصوفين الذي كان ماراً في ذلك الوقت بحكاية شراء البساط ثم بيعه بوصفين مختلفين ، فقال المتصوف لبائع البساط :

ـ « أيها التاجر ، ضعني في صندوقك السحري الذي يتحول فيه البساط الخشن إلى بساط ناعم فربما تحول لا شيء إلى جوهرة ! » .

القمر

سئل القمر :

ـ « ما أعظم أمنية لديك ؟

أجاب : أتمنى أن تختفي الشمس وتُحجب إلى الأبد خلف السحب » .

القطع الذهبية الخمسمائة

حضر أحد أتباع « الجنيد » ومعه محفظة فيها خمسمائة قطعة ذهبية ، فسأله الجنيد المتصوف :

ـ « هل لديك نقود أخرى ؟ » .

ـ « نعم » .

ـ « وهل ترغب في المزيد ؟ » .

ـ « نعم » .

ـ « إذن احتفظ بنقودك فأنت بحاجة إليها أكثر مني ، أما أنا فليس عندي شيء ولا أرغب في شيء ، وأما أنت فلديك الكثير ولا زلت ترغب في المزيد » :

المجنون والمؤذن

صعد مؤذن في أصفهان إلى قمة مئذنة وأخذ يؤذن للصلاة ، وكان أحد المجانين يمر في الطريق في الوقت نفسه فسأله أحدهم :

ـ « ماذا يعمل هذا الرجل في تلك المئذنة ؟ » .

فقال المجنون : هذا الرجل يهز في الواقع قشرة الجوزة التي لا تحمل شيئاً بداخلها .

إنك عندما تتحدث عن أسماء الله الحسنى وعددها (٩٩) اسماً ، فأنت أيضاً تلعب بجوزة فارغة ، فكيف يُفهم الله من خلال أسماء .

ما دمت لا تستطيع التحدث بكلمات عن جوهر الله فالأفضل ألا تتحدث عن أي كان .

من الكتاب الإلهي[أ]

(أ) هو كتاب «إلهي نامة» ومعناه الأسرار المشهودة لفريد الدين العطار .

الإطار الديني

بينما كان الصحابي « عمر » ، ذات يوم ، يتصفح الكتاب المقدس لليهود قال له النبي محمد (ص) :

- « إنك لا تبالي بهذا الكتاب ، فإذا كنت تريد أي فائدة منه فعليك أن تصبح يهودياً ، فإذا كنت يهودياً كاملاً فهذا أفضل من أن تكون مسلماً غير كامل ؛ وإن العَبَث بكتاب اليهود غير مجدٍ ، كما أنه لن يعود عليك بالفائدة بطريقة أو بأخرى .

وأنت مخطىء في هذا ، فلا أنت بمصدق ولا بمنكر .

وما هي إذن حالك وبماذا يمكن أن توصف ؟

كتاب إلهي

قصة عن موسى

سأل « موسى » ذات يوم ربه أن يريه أحد أوليائه ، فأجابه صوت :

- إذهب إلى أحد الوديان وهناك ستجد شخصاً محباً من المختارين الذين هم من أهل الخطوة » .

فذهب موسى فوجد الرجل يلبس الأسمال وقد ابتلي بكل أنواع الحشرات .

فسأله : « هل أستطيع أن أعمل شيئاً من أجلك ؟ » .

فأجابه الرجل : « يا رسول الله ، أحضر لي كوباً من الماء لأنني عطشان » .

وعندما عاد موسى بالماء وجد الرجل ميتاً فذهب ليبحث عن قطعة من القماش للكفن ، وعندما عاد وجد أن جثة الرجل قد التهمها أسد في الصحراء . فحزن موسى حزناً شديداً وصاح :

« أيها القوي العليم ، إنـك تحول الـطين إلى كائنـات حية بعضها يـذهب إلى الفردوس وبعضها الآخر إلى النار ، وهناك إنسان سعيد وآخـر بائس ، وهـذا تناقض لا يمكن لأحد أن يفهمه » .

وهنا تحدث صوت داخلي إلى موسى فقال :

« لقد اعتمد هذا الرجل علينا من أجل شرابـه ثم تحول عن هـذا المورد ، واعتمد على موسى في معيشته فوضع ثقته في وسيط ، وقد أخطأ في طلبه معونـة غيرنا بعد أن كان مكتفياً بنا .

إن قلبك يتعلق مرات ومرات بالأشياء ، وعليك أن تعرف كيف تحافظ على الصلة مع مصدر وجودك . . . » .

إلهي نامة أو كتاب إلهي

الأرواح قبل خلق الأجسام

هل تعلم شيئاً عن الـزمن الذي كـانت توجـد فيه أرواح دون أجسـام ، إنه يبلغ بضع سنوات ، لكن كل سنة منها تعادل ألف سنة من سنواتنا .

لقد كانت كل الأرواح منتظمة في صفوف ، وقدم إليها العـالم ، فأسـرعت إليه تسع أرواح من بين كل عشرة من الأرواح .

ثم قدمت الجنة إلى الأرواح البـاقية فـأسرع إليهـا تسع من عشـرة أرواح ، وبعد ذلك ظهـر الجحيم للأرواح البـاقية فهـرب تسع من عشـرة منها في ذعـر . وبقيت بضعة أرواح وهي تلك التي لم تتأثر بشيء إطلاقاً ، فلم يجذبها لا الأرض ولا الفردوس ، كما لم تخش الجحيم .

وتحدث صوت سماوي إلى هذه الأرواح الباقية فقال :

أيها الأرواح الحمقاء ، ماذا تبغين ؟

فأجابت الأرواح معاً :

« يا عـالمـاً بكـل شيء ، أنت تعلم أنـك من نبغي ولا نـريـد أن نتـرك حضرتك » .

فقال الصوت :

ـ « إن الرغبة فينا محفوفة بالمخاطر وتسبب لصاحبها أذى شديداً » .

فأجابت الارواح :

ـ « سوف نجرب أي شيء ، ونحن مغتبطون من أجل أن نكون معك ونترك كل شيء لنربح كل شيء » .

إلهي نامة .

الاختبار

يُروى أن « شقيقاً البلخي » قال يوماً لرفاقه :

ـ « لقـد توكلت على الله وذهبت إلى البـراري وفي جيبي قطعـة صغيرة من النقود ، ولقد ذهبت للحج وعدت ولا زالت قطعة النقود معي » .

فوقف أحد الشباب وقال لشقيق :

ـ « إذا كان لديـك قطعـة من النقود في جيبـك فكيف تدعي أنـك اعتمدت على ما هو أكبر قيمة ؟ » .

فأجاب شقيق :

ـ « ليس لدي ما أقوله ، لأن هـذا الشاب على حق ، فـإنك عنـدما تعتمـد على عالِم الغيب فليس هناك مكان لأي ذخيرة مهما كانت ضئيلة ! » .

كتاب إلهي .

حكاية عن محمد بن عيسى

كان محمد بن عيسى أحد الرفاق المرحين لأمير المؤمنين ، ونظراً لما تمتع به من فكر ثاقب فقد تفوق على كل أصحابه .

وفي أحد الأيام ، وبينما كان يتجول بمركبته في شوارع بغداد مصحوباً بعدد من أتباعه تساءل الناس فيما بينهم :

ـ « من هو هذا الرجل المتأنق الثري ؟

فأجابتهم امرأة مسنة كانت تعرج :

ـ « هذا رجل فقير وليس بالغني ، فلو لم يكن الله قد حرمه من نعمته لما كان بمثل هذه الخيلاء » .

ولما سمع « محمد بن عيسى » هذا الكلام ترجل على الفور عن حصانه المزركش الجميل ، وأقر بأن هذا بالفعل كان حاله .

ومنذ ذلك الوقت هجر « محمد بن عيسى » كل رغبة في المظاهر الخارجية والثراء .

إدراك المجنون

كان أحد المجانين يرفض الاشتراك في الصلاة الجماعية ، لكنّ الناس حثوه على الاشتراك في الصلاة في يوم الجمعة ، فوافق بصعوبة شديدة .

ولما استهل الإمام ،أصدر الرجل صوتاً كالثور .

فظن الناس أنه ارتد إلى الجنون ، ورغبة في مساعدته نصحوه قائلين :

ـ « أليس لديك فكرة عن الله ، كيف تصدر صوتاً كالحيوان وسط جموع المصلين » .

لكن المجنون قال :

ـ « لقد قمت بما كان يقوم به الإمام ، إذ أنه في الوقت الذي كان يترنم فيه بصلاته ، كان يشتري ثوراً ، وأنا أحدثت صوتاً كالثور !

وعندما علم الإمام بهذا الكلام الغريب ، اعترف للناس بقوله :

ـ « لقد كنت في الحقيقة أفكر بمزرعتي وأنا أقول « الله أكبر » ، وعندما وصلت إلى عبارة « الحمد لله » في الصلاة فكرت أنني يمكن أن أشتري ثوراً ، وفي تلك اللحظة بالذات سمعت شيئاً كخوار البقر .

البخيل ومَلَك الموت

كان أحد البخلاء قد جمع بجهده وبالتجارة والربا ثلاثمائة ألف دينار ، فكان يملك مبلغاً كبيراً من المال ، بالإضافة إلى أراضٍ ومباني كثيرة .

فقرر أن يقضي عاماً يتمتع فيه بكل أنواع المتع ويعيش مرتاحاً ، ثم بعد ذلك يتخذ قراراً بشأن مستقبله .

ولكن ما كاد يتوقف البخيل عن جمع المال حتى ظهر له مَلَك الموت ليأخذ منه حياته .

وحاول البخيل أن يثني مَلَك الموت عن عزمه بكل ما أوتي من قدرة على الجدال ، ومع ذلك فقد كان المَلَك صلباً عنيداً .

فقال الرجل : « أمهلني فقط ثلاثة أيام ، وسوف أمنحك ثلث ممتلكاتي » . فرفض المَلَك وعاد لينتزع حياة البخيل ، فأخذ يشد بقوة .

عندئذ قال الرجل :

ـ « سوف أعطيك ألفي دينار إذا سمحت لي فقط بيومين آخرين » .

لكن المَلَك لم ينصت له ورفض أن يعطيه ولو يوماً واحداً مقابل ما له الوفير الذي بلغ ثلاثمائة ألف قطعة نقدية .

فقال البخيل :

ـ « إذن أرجوك أن تمنحني وقتاً لكتابة شيء » .

فسمح له المَلَك في هذه المرة بهذا المطلب الوحيد ، فكتب الرجل بدمائه ما يلي :

أيها الإنسان ، استفد من حياتك فإنني لم أستطع شراء ساعة واحدة بثلثمائة ألف دينار ، وكن على يقين من أنك حقاً تقدر قيمة عمرك .

رأس الحمار

شاهد أحد الحمقى رأس حمار على عصا ، في إحدى الحدائق فتساءل :

ـ « ماذا يعمل هذا هناك ؟ » .

فقيل له : « لقد وضع هناك ليحول عين الحسد ! » .

فأجاب الأحمق : أنتم الحمير ، وهذا هو السبب في أنكم وضعتم رأس الحمار على العصا ! إنه لم يمنع ضربات العصا من الوصول إليه عندما كان حياً فكيف له أن يرد العين الشريرة الآن بعد موته ؟ » .

السخف والجهل

إن ما يبدو سخفاً وهو ليس بسخف أفضل من جهل الرجل الذي يعتقد بأن هذا الشيء سخف .

الضوء

لا يجد المحب الحقيقي النور إلا إذا كان كالشمعة التي تحترق لتضيىء .

المسلمون والمسيحيون

إعتنق أحد المسيحيين الدين الإسلامي ، ومع ذلك ففي اليوم التالي لإسلامه شاهدته أمه يشرب الخمر وقد سكر منها فقالت :

ـ يا بني، ماذا تفعل؟ لقد ازدريت يسوع بهذا التصرف ، وفشلت في كسب

رضوان محمد ، فابق في ديانتك ! ما من شخص يستطيع أن يكون رجلاً يعبد الأوثان ويتمسك بدين آخر في الوقت نفسه » .

الشجرة التي لا تدري حالها

قطع رجل أحد الأشجار ، فلما رآه أحد المتصوفين قال :

- « انظر إلى هذا الفرع النضير ، إنه سعيد لأنه لم يعرف بعد أنه قُطع .

- « ربما كان يجهل الضرر الذي أصابه ، لكنه سيعرف ذلك فيما بعد » .

- « ولكنك في الوقت نفسه لا يمكن أن تبرر هذا » .

هذه القسوة ، وهذا الجهل ، هكذا الإنسان .

السهم

عندما ينطلق السهم من القوس يتجه بخط مستقيم أو بخط غير مستقيم وفقاً لما يفعله رامي السهم .

فكم هو غريب أن يُقال عندما يسرع السهم فيصيب الهدف دون انحراف أن هذا يعود إلى براعة الرامي ، ولكن عندما يخطىء المرمى تنصب الشتائم على السهم ! .

الملك محمود والفاصولياء

خرج الملك «محمود الغزنوي» ذات يوم إلى الصيد ، فافترق عن أصحابه ، ورأى فجأة دخاناً لحريق صغير فركب حتى وصل إلى مكان الحريق فوجد عجوزاً ومعها قدر ، فقال محمود : إن لديك اليوم ضيفاً هو الملك فماذا تطبخين ؟

فقالت العجوز : «هذه يخنة فاصولياء» .

فسألها الأمبراطور :

ـ «أيتها العجوز ، هل تعطيني شيئاً منها ؟» .

فقالت : «كلا ، إنها لي وحدي ، إن مملكتك لا تساوي الفاصولياء التي عندي ، فأنت تريدها لكني لا أريد شيئاً مما عندك ، إذن فقيمة الفاصولياء أهم مما تملكه مائة مرة . انظر إلى حياتك وممتلكاتك المهددة دوماً بالأعداء ، أما أنا فأعيش حرة في مملكتي وعندي «فاصوليائي» الخاصة بي» .

فنظر السلطان القوي «محمود» إلى مالكة الفاصولياء التي لا تُنازع ، وفكر في ملكه الذي يتنازع من أجله الطامعون وأجهش بالبكاء .

غير مدرك

إنك لا تعلم شيئاً عن نفسك هنا وفي هذه الحالة .

أنت كالشمع في الشهد ، فماذا تعلم الشمعة عن النار أو عن ذوبان الفتيلة المشتعلة ؟

إنها لا تدرك الحقيقة إلا عندما تصل إلى مرحلة الضوء الشمعي وعندما ينبعث النور .

وبنفس الطريقة سوف تدرك أنك عندما كنت حياً ، كنت ميتاً ، وظننت أنك حي .

المجنون والمصارع

نادى أحد المجانين وهو يترنح أولئك الذين كانوا يحملون نعش الميت فقال :

ـ «من هو هذا الرجل الذي سقط بين مخالب الموت» ؟ .

أجابوا : «أيها المجنون ، إنه أحد أبطال المصارعة ، لقد كان في ريعان شبابه» .

فقال المجنون : «لقد مات بضربة من خصم قوي في المصارعة ولم يكن يعرف أن هذا سيحدث له» .

الخاتمان

أحب رجل امرأتين حباً متساوياً ، لكنهما تاقتا لمعرفة أيهما المفضلة لديه ، فطلب منهما الانتظار قليلاً ريثما يُعرف قراره في هذا الشأن ، ثم أمر بصنع خاتمين متشابهين تمام الشبه .

وأعطى كل امرأة خاتمها ، ثم استدعى الزوجتين معاً وقال :

ـ «إن المرأة التي أحبها أكثر هي التي لديها الخاتم» .

هذا أيضاً سينقضي

كان أحد الملوك الأقوياء مالكاً لعدة ممالك وفي وضع ممتاز ولم يكن في حاشيته سوى الحكماء .

ومع هذا فقد أحس بقلق في أحد الأيام فدعا إليه حكماءه وقال لهم :

ـ «لا أعلم السبب في ذلك لكن شيئاً ما يدفعني للبحث عن خاتم معين سيزيد من ترسيخ دعائم مملكتي ، يجب أن أحصل على خاتم يجعلني سعيداً عندما أكون حزيناً وفي نفس الوقت يردني إلى الحزن عندما أشعر بالسعادة» .

فتناقش الحكماء فيما بينهم وفكروا تفكيراً عميقاً ، إلى أن توصلوا إلى قرار حول مميزات الخاتم المناسب لمليكهم .

وكان الخاتم المطلوب يحمل نقشاً هو هذه العبارة :

«وهذا أيضاً سينقضي» .

الملك الذي تنبأ بمصيره

تنبأ أحد الملوك الذي كان فلكياً يقرأ الطالع بأنه في يوم ما وفي ساعة معينة ستحل به كارثة .

فبنى لنفسه بيتاً من الصخر القاسي ووضع عدداً هائلاً من الحراس خارجه ، وذات يوم بينما كان داخل البيت تبين أن هناك فجوة في جدار البيت ينفذ منها ضوء النهار ، فسد الفوهة ليمنع سوء الطالع من الدخول إلى بيته . ولما أغلق هذه الفتحة سجن نفسه بيديه ، ولهذا السبب مات الملك .

هذا الكون

كُتبت على حائط داخل أقواس التكية التي كانت قاعة التأمل عند «العطار» ، هذه الكلمات :

«محجوز للحكيم تَمْتيم» .

وأعطى الشيخ «العطار» لكبار مريديه تعليمات ليراقبوا تصرفات كل القادمين الجدد تجاه هذا النقش .

وتنبأ «العطار» بأن كل الذين تأثروا به بطريقة ما ستتكشف لديهم طاقات صوفية صحيحة وسريعة ؛ أما الآخرون ممن قالواأو فعلوا أشياء أخرى فيغادرون المكان من تلقاء أنفسهم أو يُطلب إليهم ذلك .

لم يكن العطار أبداً يسأل مريديه عن ردود فعل القادمين وتصرفاتهم ، بيد أن مريديه لاحظوا بمرور السنين أن الأمر كان كما تنبأ .

سئل العطار ذات يوم عن السبب الذي من أجله ترك هذا النقش في ذلك الموضع فقال :

ـ «لقد تركته لأبين لمن لا إدراك لديهم أن الدلالات التي تبدو ظاهرياً غير واضحة بالنسبة لبعض التجارب ستدل على القدرات الكامنة فيهم أو لأبين حاجتهم إلى من يعرف كيف يقوم باختبار» .

٤ ـ محيي الدين ابن العربي

محيي الدين بن العربي أحد كبار المتصوفين في العصر الوسيط ، وقد غزا بأفكاره وكتاباته الفكرين الشرقي والغربي على حد سواء ، وكان يعرف عند العرب بالشيخ الأكبر ، أما في الغرب فكان يعرف بالترجمة الحرفية لهذا اللقب : Doctor Maximus ومعناها «العالم الأكبر» وقد توفي «ابن العربي» في القرن الثالث عشر ، ولكن من أين جاء لقبه ؟

قرر «جعفر بن يحيى» وأصله من «لشبونة» أن يعثر على «المعلم الصوفي للعصر» فرحل إلى مكة ، وكان لا يزال شاباً ليبحث عنه هناك ، فالتقى بشخص غريب غامض ، يرتدي رداءً أخضر اللون ، وقبل أن يتفوه بأي كلمة بادره الشخص بهذا القول :

ـ «أنت تبحث عن الشيخ الأكبر معلم العصر ، لكنك تبحث عنه في المشرق بينما هو في المغرب ، وهناك أمر آخر غير صحيح في بحثك» ، وطلب من جعفر الرجوع إلى الأندلس .

فعاد إلى الأندلس باحثاً عن الرجل الذي ذكره ، وهو «محيي الدين بن العربي» من قبيلة حاتم طي ، إنه «الشيخ الأكبر» .

وعندما وجد أسرة طي في مرسيه Murcia ، لم يصرح بغايته من البحث ،

لكنه سأل عن ابنهـا وتبين له أن «محيي الـدين» كان بـالفعل في «الشبـونة» عنـدما استهل رحلته إلى المشرق ، وأخيراً تبعه إلى مدينـة «سيفّيل» حيث كـان في ذلك الحين ، وهناك أجابه أحد رجال الدين :

ـ «هناك تجد محيي الدين» ، وأشار إلى تلميذ صغير كـان في ذلك الـوقت يحمل كتاباً في الحديث الشريف ويخرج مسرعاً من قاعة الدرس .

واضطرب جعفر ، لكنه أوقف الصبي وسأله :

ـ «من هو المعلم الأكبر ؟».

قال الصبي : «أحتاج إلى وقت كي أجيبك على هذا السؤال ؟»

فسأله جعفـر : «هل أنت الشخص الـوحيد من آل طي الـذي يدعى محيي الدين بن العربي ؟» .

ـ «نعم ، أنا هو» .

ـ «إذن ، لا حاجة بي إليك الآن» .

وبعد ثلاثين عاماً وفي مـدينة حلب وجـد جعفر نفسـه يدخـل قاعـة الدرس حيث كـــان الشيـخ الأكبـــر محيي الـدين ابن العـــربي الـطائي يلقي درســـاً في التصوف . فنظر إليه محيي الدين ثم قال :

ـ «الآن أنـا جاهـز للإجـابة على سؤالـك ، فمنذ ثـلاثين عامـاً لم تكن لك حاجة بي ، فهل لا زلت كذلك ؟ ، إن الرجل ذو الرداء الأخضـر لم يفهم مرادك جيداً ، إنها مسألة زمان ومكان .

وأصبح جعفر بن يحيى بعد ذلك من أوائل تلاميذ ابن العربي .

الرؤيا في الموصل

شكى أحد السالكين الضليعين في استدلال ما يمـر بهم من تجربـة باطنيـة من صعوبة تفسيـر مدلـولها ، وطلب من الشيـخ الأكبر «ابن العـربي» تفسير رؤيـا

كانت قد أزعجته عندما كان في الموصل بالعراق .

فقد رأى في الحلم الشيخ الجليل «معروف الكرخي» كما لو كان جالساً وحوله نار جهنم ، فكيف يمكن أن يكون الشيخ المبجل «معروف» في جهنم ؟

لقد كان هذا السالك بحاجة إلى فهم وإدراك حالته هو ، فقد تبين لمحيي الدين ابن العربي ، من خلال فهمه لما يختلج في نفس السالك غير الناضجة ، أن أهل الحقيقة كانوا يرون «معروفاً الكرخي» محاطاً بالنار وقد فسرت النار وفقاً للتفكير غير الناضج بأنها كالمصيدة تحيط بالشيخ الجليل معروف ، لكنها في الحقيقة تعني الحد بين حالة معروف وحالة السالك .

فلو أراد السالك الوصول إلى حالة تشابه حالة «معروف» ، على أساس أن عالم الوصول يرمز له بشخص «معروف» ، عندئذ عليه أن يمر من خلال عالم رمز له في الرؤيا بنار محيطة .

واستطاع السالك بواسطة هذا التفسير أن يتفهم حالته ويتقدم إلى التدريبات الأخرى التي كان عليه أن يقوم بها .

وكان الخطأ في افتراض أن صورة معروف في الحلم تمثل معروف نفسه ، وأن النار هي نار جهنم ، إذن لم يكن المقصود هو النقش وإنما الصورة الصحيحة للنقش أو فن التصوير (أي إعطاء المعنى لصورة من الصور) وهي من مزايا الصالحين من أهل الحقيقة .

الأشكال الثلاثة للمعرفة

من تعاليم «ابن العربي» لأتباعه هذا القول القديم :

يوجد أشكال ثلاثة للمعرفة ، الأول هو المعرفة العقلية وليست في الحقيقة سوى جمع المعلومات والوقائع واستخدامها للوصول إلى مفاهيم أكثر عقلانية وهذا هو المذهب العقلي .

والشكل التالي يكمن في معرفة الحالات التي تتضمن الشعور العاطفي وحالات غريبة في الوجود يظن فيها الإنسان أنه أدرك شيئاً خارقاً لكنه ليس في متناوله ، وهذا هو المذهب العاطفي .

والشكل الثالث هو المعرفة الحقيقية التي نسميها معرفة الحقيقة ، وبهذا الشكل يتمكن الإنسان من إدراك ما هو حقيقي وصحيح خارج حدود الفكر والشعور .

ويركز المدرسيون السكولاستيون أي أصحاب المنهج المدرسي والعلماء على الشكل الأول من أشكال المعرفة ، أما العاطفيون والتجريبيون فيستخدمون الشكل الثاني للمعرفة ، ويستخدم الباقون الشكلين معاً أو واحداً بعد الآخر .

على أن الأشخاص الذين توصلوا إلى الحق هم أولئك الذين يعرفون كيف يتصلون بالحقيقة التي تكمن وراء هذين الشكلين من أشكال المعرفة .

وهؤلاء هم الصوفيون الحقيقيون ، أو الدراويش الذين توصلوا إلى معرفة الله .

الحقيقة

لقد هزت كل علماء المسلمين
وكل من درس المزامير
وكل حاخام يهودي
وكل قسيس مسيحي .

حب راقٍ

يعبد العاشق العادي ظاهرة ثانوية
أما أنا فأحب الحق اليقين .

الحب الخصوصي

طَلَعَ البدرُ في دُجى الشعر   وسقى الوَرْدُ نَرجس الحَوَرِ
غادةٌ تاهَتِ الحِسانُ بِهَا،   وزَهَا نُورُها على القَمَرِ
هي أَسْنَى مِنَ المهاة سَناً،   صُورةٌ لا تقاس بالصُّوَرِ
فلكُ النور دون أخمَصِها،   تاجها خارجٌ عن الأُكَرِ
إن سَرَت في الضمير يجرحها   ذلك الوَهمُ، كيْفَ بالبصَرِ
لعبةٌ ذِكْرُنا يذوِّبُها   لطفت عن مسارح النظَرِ
طَلَبَ النعتُ أن يُبيِّنها   فتعالت، فعادَ ذَا حَصرِ
وإذا رام أن يكيفها   لم يزل ناكصاً على الأثر
إن أراح المطي طالبها   لم ترح مطية الفكر
روحنتْ كل من أشب بها،   نقلته عن مراتب البشر(*)

وصول معلم

يظن الناس أن الولي يجب أن يظهر كرامات ويبدو عليه الإشراق ، ومع هذا فالمطلوب من المعلم هو أن يتوفر لديه كل ما يحتاج إليه المريد .

وجه الدين

يدعونني راعي الغزلان
يدعونني راهباً مسيحياً
يدعونني زرداشتياً
المحبوب ثلاثة ، لكنه واحد
كما الثلاثة في الحقيقة واحد .

(*) ترجمة الأبيات كما وردت في «ترجمان الأشواق» للشيخ الإمام محيي الدين بن العربي ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٦ .

قلبي يصير بكل صورة

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف ... وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب، أنّى توجهتْ ... ركائبه، فالحب ديني وإيماني

الدراسة بالتماثل

يروى أن «ابن العربي» كان يرفض التحدث بلغة فلسفية مع أي شخص سواء كان هذا الشخص جاهلاً أو عالماً .

ومع ذلك فقد كان الناس يستفيدون من صحبته ، ولقد كان محدثاً ممتعاً ومضيفاً كريماً .

سأله أحدهم ذات يوم : «كيف تعلم الناس مع أنك لم تتحدث مطلقاً عن التعليم ؟»

أجاب «محيي الدين» : «هذا يكون بالمِثل» .

وسرد له الحكاية الرمزية التالية :

«دفن رجل مبلغاً من المال تحت شجرة من الأشجار ، وعندما عاد إليها ليأخذ المال لم يعثر عليه في المكان نفسه فقد اقتلع أحدهم تلك الشجرة وحمل معه المال الذي كان قد خبأه تحت جذعها ، فذهب الرجل إلى أحد الحكماء يشكو حاله وقال : «أخشى ألا تعود إليّ ثروتي» .

لكن الحكيم طلب منه أن يصبر وأن يرجع إليه بعد أيام ، ثم دعا أطباء المدينة واستفسر عما إذا كان طبيباً منهم قد وصف لمريض من مرضاه جذع شجرة معينة ، وتبين أن هذا قد حدث بالفعل ، وطلب الحكيم مقابلة المريض لاسترداد المال ، وأخيراً أعاد المال إلى صاحبه الأصلي. قال «محيي الدين بن العربي» :

ـ«بمثل هذه الطريقة اكتشف الهدف الحقيقي للمريد أو التلميذ والكيفية التي يمكن أن يتعلم بها فأعلمه» .

العارف

الصوفي الذي يعرف الحق المطلق يتصرف ويتحدث بطريقة تأخذ بعين الإعتبار الفهم والتحامل الذي يمكن أن يتكون لدى مستمعيه بسبب حديثه .

فبالنسبة للصوفي ، العبادة تعني المعرفة ومن خلالها يصل إلى المشاهدة ، إن المتصوف ينبذ كلمة «أنا» ثلاث مرات ، فهو لا يقول «لي» ، أو «معي» ، أو «ملكي» ، ولا يحب أن ينسب شيئاً إلى نفسه .

هناك شيء ما مخبأ في .قوقعة لا أهمية لها ، إننا نبحث عن موضوعات لا قيمة لها غافلين عن الكسب الذي تمنحنا إياه القيم التي لا حدود لها .

إن المقدرة على التفسير والشرح تعني أن المرء بإمكانه قراءة ما يكتبه الحكيم بطريقتين متعاكستين تماماً .

الضلال عن الطريق

لن يتوصل ، من يضل عن الطريق الصوفي إلى أي شيءٍ مجدٍ ، ولو كانت شعبيته بين الناس تتردد أصداؤها في السماء .

. . . .

٥ ـ سعدي الشيرازي

من الصعب أن نحيط في وصف كامل بما حققه الكاتب الصوفي الكبير «سعدي الشيرازي» الذي عاش في القرن الثالث عشر .

فقد أدهش النقاد في الغرب برائعتيه : «البستان The Orchard» وحديقة الورد (الجلستان) «The Rose Garden» ، وقد استغرق تأليفه لهذين الكتابين سنتين أو ثلاث سنوات ، وهما من أعظم المؤلفات الفارسية بما فيهما من نثر غني بالمعاني وشعر جميل لا يضاهى .

كان سعدي الشيرازي رجلاً ليس له مورد للعيش ، وقد أمضى فترة طويلة من حياته في سياحة في الأرض ، وكان قد تلقى تعاليمه الصوفية من أستاذيه «عبد القادر الجيلاني» و «السهروردي» .

أما كتابه «حديقة الورد» فهو عمل عظيم ليس له مثيل في أي لغة من اللغات الغربية في سهولة أسلوبه وتعابيره ، لذا فقد شاع استخدامه ككتاب مدرسي لطلاب الفارسية وهو يتضمن حكماً وقصصاً أخلاقية ، لكن كبار جهابذة التصوف يقدرون قيمته الحقيقية لأنه يحوي في ثناياه المعرفة الصوفية العميقة التي يمكن أن تدون في مؤلف ، وإن الإحساس بالإعجاب بهذا العمل القيم غني عن التعبير ، خاصة عندما نجد فيه مستويات متنوعة من المادة الصوفية ،

«البستان» و «حديقة الورد كنز عظيم ففيهما مادة غنية متلاحمة تضم كثيراً من الحكم والأمثال والمقتبسات ، ونصوص تروي حالات فكرية تأملية .

والكتابان ممتعان للقارىء بل إن أكثر الناس تعصباً من الناحية الدينية يقبل على قراءتهما .

نقل سعدي الشيرازي بهذا الأسلوب المعرفة الصوفية التي تلقاها من معلميه الصوفيين ، وقد حُفظت رسالته الصوفية في كتاباته الأدبية من شعر ونثر ووصلت إلى الناس في جميع العصور ، ولا أحد يمكن أن يتجنب دراسة «سعدي» كجزء لا يتجزأ من الأدب الفارسي ، إذ لا شك أن مكانته بارزة في هذا الأدب ، وفيما يلي ننقل بعض النصوص من أدبه الصوفي للقارىء العادي .

انزع قطن الإهمال من أذن الإدراك
لتصل حكمة الراحلين إلى أذنك .

الباب

إن الذي يترك هذا الباب سيىء الحظ فلن يجد باباً آخر يُفتح له .

الجواهر والرمال

إذا وقعت جوهرة في الوحل تبقى ثمينة
وإذا صعد الرمل إلى السماء يبقى دون قيمة .

يوم المعركة

الحصان الهزيل أكثر فائدة في المعركة من الثور المتثاقل .

الكيميائي والأحمق

يموت الكيميائي بألم وخيبة بينما يجد الأحمق في الخراب ثروة .

اللؤلؤة

خجلت نقطة مطر هطلت من سحابة
عندما رأت البحر
فأسرعت قوقعة لمعانقتها
لأنها نظرت إلى نفسها بعين متواضعة .

السلطان

السلطان على العالم من أوله إلى آخره
لا يساوي قطرة من دم تسيل على الأرض .

اللص والبساط

دخل لص بيت أحد المتصوفين ، وبعد البحث الطويل ضاق صدره لأنه لم يجد شيئاً للسرقة ، ولما فطن له العابد المتصوف ألقى البساط الذي ينام عليه في طريقه لئلا يعود محروماً مما قصد إليه .

العلم

من لا يجعلني هدفاً في النهاية
لا يكون قد تعلم مني فن الرماية .

المشوه

إذا حل في نادي كرام مشوه   فكل ذكي عنه في ألم ينبو
فبركة ماء الورد مع طيب عرفها   تنجس إن يوماً بها فطس الكلب

الباحثون والمعتزلون

امنح مالاً للباحثين ليتمكنوا من مواصلة البحث
ولا تعط شيئاً للمعتزلين كي لا يستمروا في عزلتهم .

العقرب

قالوا للعقرب لم لا تخرجين في الشتاء من ضيق الجحر ، فقالت : وأي حرمة لي بالصيف حتى أخرج والقوم عاكفون على الجمر .

الفلك

إذا كان نوح هو ربان السفينة ففيم الخوف ؟

مصير جرو الذئب

لن يصبح جرو الذئب إلا ذئباً ولو سار خلف البشر .

الشجرة العقيمة

لا أحد يرمي الشجرة العقيمة بحجرة .

الغرور

إن من أصابه الغرور في عقله

لا يتخيل أنه يوماً ما سوف يصغي إلى صوت الحق .

الصراط المستقيم

لم أر أحداً ضل لو مشى على صراط مستقيم .

الأقفاص

عندما يجلس الببغاء في قفص مع الغراب

يظن أن خروجه من القفص ضربة حظ .

المرمى

أنت يا من ترمي بمنجنيق ؛
قريباً ترى رأساً مقطوعاً .

شجرة ذات جذور جديدة

ربما استطاع رجل واحد أن يشد بنفسه شجرة ذات جذور جديدة ولكن بمرور الزمن لن تتحرك ولا حتى برافعة .

عمل الخير للأشرار

لا تسلك مع الأشرار سبيل الخير
فربما كان مساوياً لعمل الشر لأهل الخير .

مكافأة

أيها الطفل لا تنتظر مكافأة من الشخص أ .
إذا كنت تعمل في بيت الشخص ب .

معرفة المرء لأخطائه

الباحث عن معركة مع فيل لا يعد في الحقيقة شجاعاً ، في نظر الحكماء فالشجاع هو الذي لا يتفوه بقول غير لائق إذا غضب .

أثار أحد الخرقاء رجلاً فصبر عليه وقال : أنا أسوأ مما تقول بكثير فأنا أعرف كل أخطائي ، أما أنت فلا تعرف أخطاءك .

الأشياء البديلة

اللص خلفك والملاذ أمامك ، إذا مضيت قدماً فسوف تفوز وإذا مضيت في النوم ؛ فسوف تموت .

الدرويش الجائع

عندما أرى الدرويش الفقير جائعاً
يصبح طعامي ألماً وسماً زعافاً .

النوم واليقظة

عندما يكون نوم الرجل أفضل من يقظته
فالأفضل له أن يموت .

الحصاد

سوف تعلم عند الحصاد
أن الغرس لا يتم بالكسل .

شيء نسبي

ليس للمصباح أي شعاع في وجه الشمس ؛
والمئذنة العالية تبدو واطئة حتى لو نظر إليها المرء من سفح الجبل .
إذا كنت عاقلاً فعندما تحرق الأخشاب تتجنب النمور .

العلوم والمعارف

مهما بحثت فلن تتوصل إلى شيء دون أن تعمل
فالحمار الذي يحمل الكتب ليس ذكياً أو عاقلاً
فماذا عنده من معرفة ذلك الذي فقد الجوهر
فلا يدري ماذا فوقه ، كتب أم خشب للوقود ؟

حارس الفيل

لا تصادق حارساً للفيل
إذا لم يكن لديك مكان تستضيف فيه فيلاً .

الدرويش وعزلته

أقسم أحد الدراويش أن ينقطع عن الناس في طرف الصحراء ، فمر عليه ذات يوم ملك بلاده ، فلم يتنبه إليه الفقير حتى أنه لم يرفع إليه رأسه ، لتجرده إلى ربه ، فهزت الملك سطوة السلطنة ، فغضب على ذلك الفقير وقال : هذه الطائفة الملتفة بالخرق كالحيوانات ليست ذات تهذيب ولا تعرف الإنسانية» .

فاقترب الوزير من الدرويش وبادره بقوله :

ـ «أيها الدرويش ، لقد مر بك ملك الزمان فلماذا لم تقم بشرط الأدب والحشمة ؟» .

فأجابه الدرويش : «قل للملك أن يتوقع الخدمة ممن يتوقع منه النعمة ، وقل له أيضاً أن الملوك وجدت لأجل حفظ الرعية ، وما وجدت الرعية لخدمة الملوك .

الأمان والغنى

في أعماق البحر ثروة ليس لها حدود .

ولكن إذا طلبت الأمان عليك بالشطآن .

الثعلب والجمال

شوهد ثعلب يركض في ذعر ، فسأله أحدهم عن سبب ذلك فأجابه : «إنهم يأخذون الجمال لأعمال قسرية» . فقيل له :

ـ «أيها الأحمق ! لا علاقة لك بما يحدث للجمال ، فقال الثعلب : «اصمتوا ! فربما ادعى أحد المتآمرين أنني جمل ، فمن يعمل لإطلاق سراحي ؟» .

نقود ذهبية تدعى النبلاء

من يملك محفظة ملأى بالذهب مكانته كالضوء في عيون الناس .
أو كما قال ابن الصائغ : النبيل هو ذلك الذي عنده وجاهة من الذهب .

حديث

العالِم الذي يكتفي بالكلام
لن ينفذ إلى داخل قلب الإنسان .

المريدون

ليس للمريدين قدرة أكثر من الأطفال
أما الحكماء فهم كجدار صامد .
لقد منح الله المجانين حكمة
ربما أدهشت مئات الدارسين .

الحصان والجمل

الحصان العربي سريع الخطى ، أما الجمل فيتهادى ببطء لكنه يمضي بالليل والنهار .

حيث يختبيء النمر

إن مجموعة من الشجيرات القليلة في نظرك ربما كانت مخبئاً جيداً لأحد النمور .

أساس الطغيان

في بادىء الأمر كان الطغيان في العالم بسيطاً ، ثم أضاف إليه كل شخص حتى وصل إلى مرتبته الحالية ، فقديماً كان السلطان يعتبر أن له الحق في

الاستيلاء على نصف بيضة ، أما اليوم فإن الجنود سيضرمون النار في ألف دجاجة .

المظهر الشخصي

إذا كانت لديك الصفات الأساسية للدرويش
فيمكن أن تلهو بقبعة التتاري !

إن لم تصمد لوخز

إذا لم تكن صامداً لوخزة إبرة فلا تضع إصبعك في بيت العقرب .

طموح

يمكن لعشرة من الدراويش أن يناموا تحت غطاء واحد ؛ ولكن لا يمكن لملكين أن يحكما أرضاً واحدة ، إن العابد يأكل نصف رغيفه ، ويقدم النصف الآخر للفقراء ، أما الحاكم فربما كان لديه مملكة ومع هذا فهو يطمح للسيطرة على العالم كله .

مخاطر الشطح

إذا ظل العابد في حالة الجذب الصوفي
يتشتت في عالمين مختلفين .

الدرويش وراكب الجمل

خرجت قافلة من الكوفة تريد الحجاز فرافقها رجل حاسر الرأس ، حافي القدمين ، وكان معدماً ولكنه كان يمضي بهدف مردداً هذين البيتين :

لستُ بغلاً تحت حملي لا ولم أركبْ بعيراً
لم أكن عبد مليك لا ولم أصبح أميرا

الغنى والفقر سيان فما مرا بفكري
جد سهل أنني في نَفَس أقطعُ عمري

فقال له تاجر يركب جملاً :

- «أيها الدرويش ، أين تذهب» ، ونصحه بالعودة أدراجه ، وإلا أضناه التعب فهلك ، فلم يلتفت الدرويش إليه ومشى متابعاً سيره ، فلما انتهينا إلى واحات (بني محمود) ، أدرك الأجل ذلك التاجر ومات ، فوقف الدرويش عند نعشه وهتف ينشد :

نحن مع شدة التعب لم نمت ؛
وأنت مع الراحة مت .

إن الحمقى يضيئون المصابيح في النهار وفي الليل يتعجبون من قلة الضوء .

الرجل المريض

قد بات يبكي على رأس المريض دجى   وفي الصباح توفى والعليل شفى

الدرويش في النار

أحد الصلحاء رأى في المنام ملكاً في الجنة يتنعم وعابداً يعذب في جهنم ، فسأل كيف رفع هذا لتلك الدرجات وسقط ذاك في هذه الدركات ، فنودي أن الملك بحبه الصالحين نال الجنة وصار العابد إلى جهنم بحبه الملوك وتحمله منهم المنة .

الطائش

إن من ينصح الطائش بحاجة إلى من ينصحه .

لبن الفقير

إذا أحضر لك أحد الفقراء هدية من اللبن فقد اشترى هذا اللبن بثمن دفع

للبن نصفه ماء وقليله لبن حقيقي .

فريسة النمر

ماذا يمكن للنمر أن يصطاد في عرينه المظلم ؟

الأحمق والحمار

كـان أحد الحمقى يتحدث بحماس عن حمـار عنده ، فلم يلتفت الحمـار إلى حديثه ، وكان رجل عاقل يراقبه عن بعد فقال له :

ـ «أيها الأحمق ! لن يتعلم الحمار لغتـك والأفضل أن تلزم الصمت وتتعلم لغة الحمار بدلاً من أن تتحدث عنه» .

الطريق

أيها البدوي ! أخشى ألا تصل إلى مكة !
فالطريق التي تتبعها تؤدي إلى تركستان .

. . . .

٦ ـ الحكيم جامي
١٤١٤ ـ ١٤٩٢

كان عبد الرحمن الجامي من العباقرة وكان يعتز بعبقريته ونبوغه ، وهذا ما أقلق رجال الدين والعلم في عصره ، لأن التقليد الذي كان سائداً هو تواضع العلماء .

ويبين «جامي» في مؤلفه «كتاب الاسكندرية في الحكمة» «Alexandrian Book of Wisdom» ، أن الرابطة الصوفية بين العلماء (الخواجكان) في آسيا هي نفسها الرابطة التي ربطت بين الكتاب الصوفيين في الغرب ، ويذكر من سلاسل معلمي الصوفية أسماء مثل أفلاطون وأبو قراط وفيثاغورس وهرمس تريسمجستوس .

وقد تتلمذ «جامي» على «سعد الدين الكشغري «زعيم الطائفة النقشبندية ، ولحق أستاذه إلى منطقة هراة في أفغانستان ، وكان يدين بالولاء للخواجة «عبيد الله أحرار» وهو من كبار شيوخ الطريقة .

ومن أقوال «جامي» البليغة قول يوضح مشكلة كل معلمي الصوفية الذين لا يقبلون التلاميذ عندما يقيّموا أنفسهم .

ـ «هناك الكثير من السالكين ، لكن معظمهم يبحث عن المنفعة الشخصية ، ولا أجد بينهم إلا قليلاً من الباحثين عن الحق» .

وقد كان لعبد الرحمن الجامي أهتمامات أخرى كثيرة ، لكن بعض المتزمتين في بغداد حاولوا تشويه سمعته ، فنقلوا نقلاً خاطئاً بضع مقاطع من كتابه «سلسلة الذهب» Chain of Gold ، وأحدثوا بلبلة كبيرة حول هذا الكتاب لم تهدأ إلا بعد نقاش تافه أمام عامة الناس .

وقد أسف «جامي» أسفاً شديداً على حدوث هذه البلبلة في مجتمع يطلقون عليه اسم مجتمع «إنساني» .

على أن مؤلفاته وتعاليمه جعلت منه صوفياً يرقى إلى مصاف كبار كتاب الصوفية ، وكان دائم التكريم ممن عاصرهم من الملوك والحكام وعلى رأسهم سلطان تركيا ، فكانوا يقدمون إليه الهدايا الثمينة من ذهب وخلافه ، ويطلبون منه أن يزين مجالسهم بحضوره .

لكنه كان يضطرب لاحتفاء الجماهير به ، إذ لم يفهم الناس أنه كان يريد منهم أن يقدموا شيئاً لأنفسهم لا أن يجعلوا منه بطلاً من الأبطال .

وكان «الجامي» يشير على الدوام إلى أن كثيراً من الناس تغلبوا على الغرور واستطاعوا أن ينتصروا ويفتخروا بانتصارهم .

النمو الوفير

إذا لم تشذب اللحية في كل يوم ، فلن يمر كثير من الوقت حتى تظهر اللحية كأنها الرأس .

الوحدة

لا يكتمل الحب إلا عندما يتسامى فيصبح المحب واحداً مع معشوقه ؛ ويبرز وحده الوجود .

الصلاة والأنف

رأيت رجلاً ساجداً يصلي فهتفت قائلاً :

إنك تلقي ثقل أنفك على الأرض بحجة أن هذا من متطلبات الصلاة .

المعلم

الحاكم راع والناس قطيعه وعليه مساعدتهم لا استغلالهم والتسبب في دمارهم .

فهل وُجد الراعي هناك من أجل القطيع ، أم أن القطيع وجد من أجل الراعي ؟ .

الحب

الحب الإنساني العادي يمكن أن يرتقي بالإنسان إلى تجربة الحب الحقيقي .

السحاب الجاف

السحاب الجاف لا يمنحنا المطر .

الشاعر والطبيب

ذهب شاعر إلى أحد الأطباء ليفحصه وقال :

ـ «عندي كل صنوف الأمراض الرهيبة ، أنا تعيس ولا أحس بطعم الراحة بل إن كل ما في جسدي يؤلمني ، رأسي، وذراعي وساقي كلها تؤلمني ، فأجابه الطبيب قائلاً :

ـ «أليس صحيحاً أنك لم تلق بعد آخر قصيدة من شِعرك» ؟

قال الشاعر : «نعم ، هذا صحيح» .

قال الطبيب : حسناً ، فلنسمعها إذن .

فامتثل الشاعر لأمر الطبيب وأخذ يردد أمامه مقاطع من شعره .

فقال الطبيب : «توقف الآن ، فقد تم شفاؤك ، فإن ما بك من الداخل قد أثر عليك من الخارج ، والآن عدت صحيحاً معافىً .

المتسول

توجه متسول إلى أصحاب أحد البيوت وطلب صدقةً ، فأجابه صاحب البيت : «آسف ولكن لا يوجد أحد هنا» .

قال المتسول : أنا لا أريد أحداً وإنما أبغي طعاماً .

رياء

رُوي من حكايات العارفين أن الجامي سئل يوماً عن الرياء والأمانة فقال :

ـ «الأمانة شيء مدهش ، وما أعجب الرياء ! لقد ذهبتُ إلى مكة وبغداد واختبرت تصرفات الناس وكانوا يعاملونني دوماً بإحترام عندما أطلب منهم الأمانة لأنهم كانوا يعلمون أن الصالحين يتحدثون هكذا بإستمرار ، وقد تعلموا أيضاً أن يخفضوا نظرهم عندما يتحدثون عن الأمانة .

وعندما طلبت منهم أن يبتعدوا عن الرياء وافقوا جميعاً ، لكنهم لم يعلموا أنني عندما قلت «الحق» كنت أدري أنهم لا يعلمون ما هو «الحق» ، ولذلك كنا أنا وهم منافقين .

ولم يعلموا أنهم كانوا أيضاً منا فقين عندما نصحتهم بعدم النفاق ، لأنهم لم يسألوا عن الطريق إلى ذلك .

ولم يعرفوا أنني كنت منافقاً لأنني قلت لهم : «لا تكونوا منافقين» ، لأن الكلمات لا تنقل الرسالة التي يريد الإنسان نقلها .

إذن فقد احترموني عندما كنت منافقاً ، وقد طُلب منهم أن يفعلوا ذلك ، وكانوا يحترمون أنفسهم عندما كانوا يفكرون برياء ، ومن الرياء أن يظن المرء أنه يصبح قابلاً للتحسن ، عندما يفكر بأن النفاق شيء سيء .

أما الطريق فهو يقود إلى المجاهدة والفهم إذا لم يكن هنـاك نفاق ، وحيث تكون الأمانة شيء يسعى إليه الإنسان .

كبرياء

لا تتباهى بعدم الكبرياء فالكبرياء شيء لا يمكن رؤيته ، فنحن لا نرى قدم نملة على حجر أسود في ظلام الليل .

لا تظن أن إظهار الكبرياء التي تكون بداخلك أمر سهل ، فالأسهل منـه أن نستخرج جبلاً من الأرض بواسطة إبرة .

الذكاء

لا تتباهى بذكائك وعلمك فالذكاء يصبح عائقاً وينقلب العلم إلى غباء .

ماذا نعمل ؟

رحلت الزهرة من الحديقة ؛ فماذا نصنع بالأشواك ؟

الشاه ليس في المدينة ؛ فماذا نصنع ببلاطه ؟

الأقفاص جميلة ؛ والطائر بديع وطيب .

إذا طار العصفور ؛ فماذا نصنع بالقفص ؟

الدولة

العدل والإنصاف ، لا الدين أو الإلحاد هما اللازمان لحماية الدولة .

الموجة القوية

تباحث حكماء أمام الملك «أنوشروان» في أعمق درجات الحـزن والأسى ، فقال أحدهم :

ـ «المرض والمعاناة» ، وقال آخر : «العجز والفقـر» ، وقال ثـالث : ـ «دنو الأجل دون عمل شيء للآخرة» .

واتفق الجميع في النهاية على الرأي الأخير .

٧ ـ الحكيم «سنائي»

عاش العارف «مجد الدين سنـائي» في الفترة مـا بين القرنين الحـادي عشر والثاني عشر وهو أقدم معلم أفغاني استخدم دافـع الحب في الصوفيـة ، وقد أقـر «جلال الدين الرومي» بأن سنائي كان ملهماً له .

وقد حاول المتزمتون إتهامه بـالإرتداد عن الإسـلام ، لكنهم لم يفلحوا في ذلـك ، وأخذ هؤلاء ومن تبعهم يستخـدمون كلمـات الحكيم «سنـائي» نفسهـا ، ليدعموا مزاعمهم ، وادعوا بـأنه لم يكن متصـوفاً واستخـدموا مصـطلح الصوفيين أنفسهم وكـان من الصعب التمييـز بين المتصـوفين الحقيقيين وهؤلاء السـطحيين المدعين .

وكتابه المسمى «حـديقة الحقـائق ذات الأسوار(*)» «The Walled Garden of Truth» ، من أبـرز مؤلفاتـه فهو يتميـز بـأسلوب خـاص في الكتـابـة ، ويمكن للقارىء قراءة المقطع الواحد مرات عديدة ، وقد أحدث هذا تغييراً في المفـاهيم بحيث تتنوع الرؤية للموضوع الواحد .

وقد قدم لنا سنائي في هذا الكتاب مـادة فكريـة تتضمن معلومات في إطـار من التشويق ، مستخدماً طرقاً متنوعة في شرح الأفكار الصوفية .

(*) من المثنويات الصوفية الحافلة بالحكايات التمثيلية والمواعظ والحكم .

وهناك مُؤلَّف آخر لسنائي لا يقل شهرة عن الكتاب السابق هو كتابه «مجلس الطيور» «The Parliament of The Birds»، ويتضمن قصة رمزية تتحدث عما يصبو إليه الإنسان من تنوير روحي عظيم .

أما قصائده المسماة : «أغاني الدراويش» فتقدم لنا عرضاً شعرياً للتجربة الصوفية .

الإنسان نائماً

حينما يكون بنو الإنسان كأمتعة في هذا العالم
سينجرفون في النوم كما لو كانوا يجدفون في قارب وسط الماء
فماذا يجدون في النوم ؟
وما هي الميزة الحقيقية فيه ؟
هو هو جزاء أم قصاص ؟

الكتاب المغلق

مسيرة الإنسان في الحياة ككتاب مغلق يحمله الإنسان وقد كُتب قبل ولادته ، وهو يحمله في داخله حتى لحظة مماته ، وبينما الإنسان يخضع لحركة الزمن فهو لا يعلم ما في الكتاب المغلق .

مستويات الحق

إن ما يبدو حقيقة إنما هو تشويه كلامي للحقيقة الموضوعة .

الوسائل والنتيجة

إن «ها» و«هو» أصوات لا استعمال لها أو لا فائدة منها عندما تكون المعرفة لدى العارفين حقيقية .

الرضيع

إن الإنسان لا يدرك أنه كالرضيع بين يدي حاضنته ، فربما سعد أحياناً

وربما شقي أحياناً أخرى ، أما الحاضنة ، فتارة توبخ الطفل ، وتارة أخرى تـرق له ، تضربه أحياناً وتحزن لحـزنه أحيـاناً أخـرى ، ولكن إن رآها شخص تفكيـره سطحي وغريب فربما ظن أن الحاضنة لا تقدم للطفل الرعاية اللازمة ، فكيف له أن يدرك أن هذا الأسلوب في معاملة الطفل هو الأسلوب الأمثل .

كيف ولماذا

إن جوهر الحقيقة يتغلب على كلمتين هما «كيف» ؟ و «لماذا» ؟

اتبع الطريق

لا تتحدث عن ألم قلبك فهو الذي سيتحدث
لا تطلبه فهو الذي يَطلبُ .
هو يشعر بلمسة قدم نملة .
ولو تحرك حجر تحت الماء فهو يعرف .
ولو كانت هناك دودة في صخرة
فهو يعرف جسمها الأصغر من ذرة .
أما صوت تسبيحها وإدراكها الخفي .
فهو يعرفه بمعرفته الإلهية .
لقد منح الدودة رزقها ؛
وبين لك طريق المعرفة .

٨ ـ جلال الدين الرومي

ألف جلال الدين الرومي ديوانه « المثنوي » الذي يعد من اعظم المؤلفات الصوفية ، أما احاديثه (فيه مافيه) ورسائله في (المكاتيب) ، و « الديوان » ، وكتابه في السير المسمى « مناقب العارفين » فتشمل فصولاً هامة من تعاليمه الصوفية .

وقد اقتطفنا من هذه المؤلفات مختارات في التأمل الصوفي يمكن ان تؤخذ كأقوال مأثورة او كحكم ، ومع ذلك فإن قيمتها الصوفية أبعد أثراً .

ويبث جلال الدين الرومي تعاليمه الصوفية كغيره من الكتاب الصوفيين ضمن اطار من الكتابة الأدبية يعرض فيه المعاني الباطنية ، وهذا الأسلوب الفني يتيح لأولئك الذين يفضلون الفن الأدبي الاستفادة من هذه المعاني ، إذ يمكن لمن يفضلون الشعر ان يقرؤا شعراً ، أما الذين يفضلون القصص فيمنحهم التسلية والترويح عن النفس .

أهم عبارات الرومي ، ذلك العنوان الذي اختاره ومن الاحاديث التي كان يلقيها في مجلسه : « فيه ما فيه » (فأنت تأخذ ما فيها من اجل نفسك) .

ولقد فاق جلال الدين الرومي جميع معاصريه من الصوفيين والادباء في مقدرته الأدبية والشعرية .

لكن هذه المقدرة لا تقارن بمكانته البارزة في عالم الأدب الصوفي .

من أين أتيت(*)

صرت إذا مت جماداً نامياً	مت نبتاً صرت حياً ساعيا
مت حيواناً إذا بي بشر	كيف أخشى الموت ماذا أحذر
ثم أغدو مائتاً بين البشر	طائراً في ملك لا أستقر
ليس لي إلا مسير نحوه	كل شيء هالك إلا وجهه
ثم أسمو طائراً فوق الملك	ذاك فوق الوهم لا يخطر لك
ثم أفنا الفنا كالأرغون	منشدي : إنا إليه راجعون

الطريق

لقد تحدد الطريق

فإن لم تسر عليه هلكت .

وإن حاولت العبث بعلامات الطريق فستكون من الأشرار .

(*) وردت هذه الأبيات من الشعر في كتاب فصول من المثنوي لجلال الدين الرومي/تأليف عبد الوهاب عزام .

الرجال الأربعة والمترجم

مُنح أربعة من الرجال قطعة من النقود ، فقال الأول وكان فارسياً بلغته الفارسية :

ـ «سوف أشتري بهذه القطعة شيئاً من العنب (Argur) ، أما الثاني وكان تركياً فقال بالتركية : ـ أنا لا أريد هذا بل أريد «Uzüm» .

أما الثالث وهو يوناني فقال : أنا أريد «Stafil» باليونانية .

وقال الرابع وكان عربياً : أريد «عنباً» .

لم يدرك هؤلاء الرجال ما وراء كلماتهم لذلك فقد تجادلوا بعنف لقد كان لديهم معلومات ولكن لم يحصلوا على المعرفة .

وأتيح لأحد الحكماء الذي كان حاضراً أن يصلح بينهم جميعاً فقال :

ـ يمكنني تلبية جميع طلباتكم بقطعة نقود واحدة ، فإذا منحتموني ثقتكم أجعل من هذه القطعة النقدية أربع قطع وسوف تصبح هذه القطع بقيمة قطعة واحدة .

لا بد أن هذا الرجل قد عرف أن كلاً منهم طلب الشيء نفسه وهو العنب ، ولكن بلغته الخاصة .

أنا روح حبيبي

ماذا تأمرون أيها المسلمون ، فإنني لا أعرف نفسي ، لست نصرانياً ولا يهودياً ولا مجوسياً ولا مسلماً . لست شرقياً ولا غربياً ولا برياً ولا بحرياً ولا من معدن الطبيعة ولا من الأفلاك الدائرة .

لست من التراب ولا الماء والنار والهواء ولا من العرش ولا الفرش ولا من الكون والمكان .

لست من الهند ولا الصين ولا البلغار ولا السقسين ولا من أرض العراقين ولا تربة خراسان . لا أنا من الدنيا ولا أنا من الآخرة ولا من الجنة ولا النار ولا من آدم وحواء . ولا الفردوس ورضوان .

مكاني لا مكان وعلامتي لا علامة . لا جسم ولا روح فأنا من روح الحبيب .

البوم وصقر الملك

حط صقر ملكي فترة من الزمن على حائط في خرابة تسكنها البوم ، وكانت البوم تخاف منه ، فقال الصقر : «ربما كان هذا المكان غير ملائم لكم ، أما أنا فمكاني على معصم الملك» .

فصاحت بومة في رفيقاتها :

ـ «لا تصدقوه ! إنه يستخدم الخداع والمكر ليستولي على بيتكم» .

بُعْدٌ آخر

لعالم الغيب سحب وأمطار ، لكنها من نوع مختلف
سماؤه وشمسه أيضاً من نوع مختلف
ولا يظهر هذا إلا للأولياء ، الذين لا ينخدعون بالكمال الظاهري للعالم العادي .

الكسب بالتجربة

الحقيقة الصافية تفرض علينا .

الحرارة والبرودة ، الحزن والألم .

وما يصيب الثروة والجسد من خوف وضعف
فتصبح الثروة الكامنة في أعماق وجودنا شيئاً بارزاً .

اليقظة

ربما كان شخص ما في حالة وجد صوفي وحاول آخر أن يوقظه ، وهذا شيء حسن ، فربما كانت هذه الحالة ضارة له ، ويكون إيقاظه منها عملاً صالحاً ، إن إيقاظ النائم يكون حسناً أو سيئاً تبعاً للموقظ ، فإذا كان شخصاً من الواصلين فهذا سيرفع من شأن الآخر، أما إذا لم يكن كذلك فسوف يؤذي شعوره .

لم يكن في مكان آخر

نظرت إلى الصليب والمسيحيين فلم أره على الصليب ، ذهبت إلى المعبد الهندي ، إلى المعبد الصيني القديم ، ولم يكن في أي منهما علامة ، ذهبت إلى جبال هراة، إلى كانداهار وتطلعت فلم يكن على المرتفعات ولا في السهول .

وذهبت في تصميم إلى قمة جبل كاف ، ولم يكن هناك سوى المسكن الذي يقطن فيه طائر العنقاء الأسطوري ، وذهبت إلى الكعبة في مكة ، فلم يكن هناك ، سألت عنه الجميع بدءاً من الفيلسوف ابن سينا ، لقد وجد قبل ابن سينا . . .

وبحثت داخل قلبي فوجدته هناك ، فلم يكن في أي مكان آخر .

الذين يعرفون لا يقولون

عندما يتعلم شخص ما أسرار المُدْركات
فإن شفتيه تكونا مطبقتين فلا تتحدثا عن الضمير .

يوها والموت

صاح أحد الأطفال وبكى أمام نعش أبيه وقال :

- «أبتاه ! إنهم يأخذونك إلى مكان لا يغطيه شيء ، حيث لا ضوء ، لا طعام ، لا باب ولا جار» .

فارتاع «يوها» لأن الوصف كان منطبقاً على أبيه وصاح :

ـ «أبتاه ، يا الله ، إنهم يأخذونه إلى بيتنا !» .

الذكاء والإدراك الحقيقي

الذكاء ظل الحقيقة الهادفة .
فكيف يتنافس الظل مع ضوء الشمس ؟

الحقيقة الصادقة

ليس في العالم أي دليل علمي عليها ؛
فهي خفية ، خفية ، خفية .

الروح الإنسانية

اتجه إلى العلياء وتطلع إلى الروح الإنسانية .

بالانعزال يأتي الإدراك

أيها القلب ! حتى ترى الفرق بين هذا وذاك
في هذا السجن من الخداع
فابق خارج هذا البئر من الطغيان ؛ للحظة .

أنت وأنا

ما أروعها لحظة ! حين جلسنا تحت العريشة ، أنت وأنا
رسمان ، وجسدان ، لكننا روح واحدة ، أنا وأنت
فألوان الروض ، وصداح الطير سيخلد
حين نلج الروض ، أنا وأنت .
وستطل علينا نجوم السماء .
وسنريهم القمر عينه ، أنا وأنت .

أنا وأنت تمازجنا في جذبنا ، بعد أن فنيت الشخوص
خلصنا من تافه العقول ، وامتلأنا سروراً ، أنا وأنت .
فما في السماء من طيور براقة الريش ، سوف تأكل أفئدتها حسداً لنا .
حيث نضحك ملء أفئدتنا ، أنا وأنت .
ومن أعجب العجب أننا ـ أنا وأنت ، ونحن جالسان في هذا الركن .
جالسان كذلك في العراق وخراسان ، أنا وأنت .

قصبتان

تُروي قصبتان من ترعة واحدة ، وتظل الواحدة منهما غائرة والثانية تصبح قصب سكر .

ماذا سأكون

صرت ، إذ مت جماداً نامياً
مت نبتاً صرت حياً ساعياً
مت حيوان إذا بي بشر
كيف أخشى الموت ماذا أحذر
ثم أغدو مائتاً بين البشر
طائراً في ملك لا أستقر
ليس لي إلا مسير نحوه
كل شيء هالك إلا وجهه
ثم أسمو طائراً فوق الملك
ذاك فوق الوهم لا يخطر لك .

رجل الله

رجل الله ثمل دون خمر

رجل الله تخم دون لحم

رجل الله فرح مندهش

رجل الله ليس عنده طعام أو منام

رجل الله كنز في خرابة

رجل الله لم يأت من الريح ولا من الأرض

رجل الله لم يأت من النار ولا من الماء

رجل الله بحر ليس له شاطىء

رجل الله يمطر لؤلؤاً دون سحاب

رجل الله عنده مائة قمر وسماء

رجل الله تصيره الحقيقة عالماً

رجل الله لا يتلقى العلم من كتاب

رجل الله من وراء الإيمان والكفر

عند رجل الله يستوي الخطأ والصواب

رجل الله انطلق من وراء الوجود

رجل الله أتى راكباً بجلال .

رجل الله خفي يا شمس الدين[أ]

فابحث عنه وجِدْه .

الحق

قال الرسول أن الحق قد أعلن :

«أنا لستُ موجوداً فيما هو عال أو منخفض

(أ) هو شمس الدين التبريزي الذي سبق ذكره وقد خلده جلال الدين الرومي في ديوانه الذي تزيد أبياته على خمسة آلاف بيت /المترجمة .

لستُ في الأرض ولا في السماوات ولا في العرش» .

هذا هو اليقين ، أيها المحبوب :

«أنا موجود في قلب المؤمن

إذا طلبتني، فابحث في هذه القلوب» .

العلم

إن معرفة الحقيقة تتضاءل أمام معرفة الصوفي

فمتى يفهم بنو البشر هذا القول ؟

التراب على المرآة

الحياة/الروح كمرآة واضحة ؛ والجسم هو التراب الذي يغطيها .

والجمال فينا لا يدرَك لأننا تحت التراب .

الحركة والكلمات

أقدم للناس ما يطلبونه فها أنا ذا أردد الشعر لأن الناس يرغبون فيه للترويح عن أنفسهم .

أما في بلدي فالناس لا يحبون الشعر ، وقد بحثت عن أشخاص يحبون العمل ، لكن كل ما يريدونه هو الكلمات .

أنا على استعداد لأقدم لك عملاً ، ولكن ليس هناك من يساند هذا العمل ، لذا فأنا أقدم لك الكلمات .

إن جهل الأحمق يؤذي مهما كان قلبه متحداً مع قلبك .

العمل

العمل ليس كما يظن الناس

فلا يمكن رؤيته من الظاهر .

كم سيطول مقامنا على هذه الأرض .
نملأ أحضاننا كالأطفال بالرمل والأحجار والفضلات ؟
لنترك الأرض ونُحلق في السماوات .
لنترك عهد الطفولة وندخل في مجمع الرجال .

البيت

لو دخل عشرة من الرجال أحد البيوت ولم يجد طريقه منهم سوى تسعة ، يجب على العاشر أن لا يكتفي بالقول : «هذا أمر الله» ، بل عليه البحث عن موطن العيب فيه هو

البوم

البوم لا توضع في أقفاص
لا تحبس في الأقفاص إلا الطيور ذات الأصوات الشجية .

الجهد

لو ربط عصفورين معاً
فلن يتمكنا من الطيران رغم أنه أصبح لهما معاً أربعة من الأجنحة .

البحث

ابحث عن اللؤلؤة في داخل الصدفة ؛
وابحث عن البراعة بين رجال الأدب .

هذا الواجب

إن كان عليك واجب ولم تؤده ، وصنعت أشياء كثيرة حتى ملأت وقتك بكامله ، فوقتك مع ذلك وقت ضائع لأنك لم تؤد واجبك .

مجتمع الحب

المحبون مختبئون بين الجماهير ؛
كما الرجل الطيب محاط بالأشرار .

الكتاب

ربما كان هدف الكتاب هو التعليم ،
ولكن يمكنك أيضاً استخدامه كوسادة ؛
رغم أن هدفه هو المعرفة والتوجيه والفائدة .

نقش على ضريح جلال الدين الرومي

عندما نموت ، لا تبحث عن قبورنا في باطن الأرض بل جِدها في قلوب الناس .

....

القسم الثالث
أربع طرق رئيسية من طرق التصوف



أربع طرق رئيسية من طرق التصوف

لمحة عامة :

يستخدم كل معلمي الصوفية مجموعة من التعابير لإعطاء فكرة صحيحة عن تعاليمهم الصوفية ، وإذا نظرنا إلى أفكارهم على حدة نظرة تشابه رؤية أولئك الذين يبحثون في الأمور دون أن تتوفر لهم المعلومات الكافية عنها ، نجد أن الصوفية ترتبط بعقائد أخرى وممارسات يرجع تاريخها إلى زمن بعيد ، وربما كانت تنتمي إلى مجالات غير ميتافيزيقية .

وبما أن هؤلاء الباحثين يفتقرون إلى معرفة الدراويش معرفة جيدة ، فهم لا يدركون الأسباب التي دعت المتصوفين إلى أختيار طرق معينة للتصوف .

وفيما يلي الطرق الرئيسية عند الأولياء الدراويش والتي من خلالها تظهر عند تلاميذهم حالات راقية من التفكير والتأمل :

١ ـ تأثيرات سمعية وبصرية وغيرها من التأثيرات الحسية .

٢ ـ مادة لفظية تتضمن أساطير وحكايات رمزية الغرض منها تكوين نموذج في التفكير أو مخطط يساعد العقل في العمل بأسلوب (آخر) وليس الغرض تكوين اعتقاد .

٣ ـ العمل والعبادة والرياضة الصوفية ، كل هذا في نسق واحد لإحداث فيض من ديناميكية معينة (غير أنفعالية أو خاصة بأفكار أو معتقدات) تعزز «العمل» أو النشاط الصوفي .

٤ ـ استخدام أماكن وموضوعات ورموز وما إلى ذلك لإكتمال المعرفة الإنسانية العادية .

٥ ـ تنظيم جماعات محلية وغير محلية قوامها أشخاص تم اختيارهم على أساس انسجامهم في هذه الجماعات التي تتألف من فئة قليلة ، وهي إمكانية ورثوها عن آبائهم ، للعمل على تأسيس مجتمع غير مفتون بفكرة معينة .

٦ ـ الاختيار على ضوء المبادىء التقليدية أو غيرها من المبادىء من الرياضات الصوفية بمعيار وظيفي ، فهل ينجح هذا العمل لو أعطي نمطاً معيناً من الأشخاص في ثقافة معينة ؟

٧ ـ تكوين مجتمعات نشطة باختيار مجموعات في مهنة من المهن وغيرها من المجموعات التي يمكن أن تسهم في «نشاط» الدراويش .

٨ ـ إعداد خطط وأساليب فنية ومواد يمكن استخدامها للتوصل إلى الناحية الداخلية للإنسان دون المساس بفعالياته المعتادة المبنية على التكيف المحلي بمجتمعه أو بدنياه ، ومن هنا فإن عمل المتصوف مجاهدة عظيمة .

وتختلف مدارس الدراويش الفكرية بوجود العزف الموسيقي والاستماع إلى الموسيقى وممارسة الرقص وما إلى ذلك ، وكلها من المظاهر الشكلية التي يقلدها البعض عن جهل .

وبعد معرفة هذه الحقائق الأساسية يأتي الاقتناع بأمرين هامين لدى المتصوفين وهما :

١ ـ وجود وحدة بين كل المتصوفين ووحدة في «النشاط الصوفي» وعندما يتم

الإقتناع بهذا تتلاشى التناقضات التي تبدو في الظاهر بين «طريقة» صوفية وأخرى .

فنجد مثلاً أن المشايخ النقشبنديين يلقنون تلامذتهم أو مريديهم مبادىء الطرق الصوفية وهي مفهومة من الناحية الفكرية ، ويمكن أن نميز وجود المقلدين الذين يركزون على بضع أمور فنية .

٢ ـ إن العلاقة ما بين الفلاسفة القدماء والمحدثين قد بُنيت على أساس وحدة المعرفة المتسامية لا على الأمور الظاهرية ، وهذا ما يفسر لنا وجود تلاميذ من المسيحيين والزرداشتيين بين تلاميذ المتصوف الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي .

ويفسر لنا أيضاً سبب قول البعض إن المعلم الصوفي الكبير «الغيرمرئي» «الخضر» كان يهودياً ، ويوضح ما وجده الأمير المغولي «داراشيكو» Dara shikoh في الڤيدا الهندية من تعاليم للصوفية ، إلا أن هذا الأمير ظل من أتباع الطريقة القادرية في التصوف ، وبالإضافة إلى هذا ما ذكره البعض من أن فيثاغورس وسولومون من المعلمين الذين أتوا بأفكار صوفية .

ونضيف إلى ما تقدم انضمام بعض الكيميائيين إلى جماعة المتصوفين الذين رحبوا بذلك ، ووجود العناصر المتطورة في فلسفة جلال الدين الرومي المتفتحة ، وتدفعنا هذه العلاقة بين الفلاسفة القدماء والمحدثين إلى فهم «مسيحية الحلاج» ؛ وما قيل أيضاً من أن المسيح (ع) على رأس المتصوفين وهذا قول صادق .

ومهما يكن من أمر فإن أهمية هذه المعلومات لا تنتهي عند هذا الحد ، فمن الضروري لأي طالب يقوم بدراسة التصوف أن يفطن إلى أن كل هذه الصيغ والتدريبات والطرق والفنون التي يقوم بدراستها وبحثها خارج نطاق المدرسة الصوفية تمثل المظهر الخارجي لعمل ثقافي يمكن أن يعرض بشكل ما من أشكال متعددة .

ومن ثم فلا يجوز لهذا الطالب أن يجزم بأن هذا المبدأ الصوفي أو ذاك يروق له أم لا (وفي هذه الحالة يكون مفيداً) .

وسواء أكانت هذه المبادىء والرياضات الصوفية جذابة أو غير جذابة فهي أطر للعمل يتم من خلالها تقديم التعاليم الصوفية .

أما إذا بحثنا في الأمر من الناحية التاريخية فإننا نجد أن المقلدين (رغم أنهم من المتدينين) ينصحون بأخذ طريقة معينة لأن أحد المعلمين الصوفيين وهو فلان قد استخدمها .

وبالنظر إلى عوامل معينة «كالزمان والمكان والناس» فإن الرياضات الصوفية ذات أهمية للأسباب الآتية :

١ ـ إنها قيِّمة بالنسبة لمن يهتمون بالأساليب الفنية وهم أشخاص يبحثون عن حوافز نفسية عادية ، وهؤلاء ليسوا متصوفين أو متيافيزيقيين رغم أنهم يعتقدون أنهم كذلك .

٢ ـ إنها سبيل للوصول إلى المعرفة ولتآلف التلاميذ مع هذه الرياضة الصوفية الروحية التي يمارسها الدراويش وهي متنوعة وبأنماط متعددة .

٣ ـ إن الممارسات الصوفية ذات قيمة بالنسبة لتطوير الطاقات الفردية والجماعية خاصة عندما تنصح باستعمالها مدرسة صوفيه معينة تنتمي إلى ثقافة ما ولها أتباع كثيرون .

ويجب على القارىء ليستفيد مما كتبه المتصوفون أن ينظر نظرة فاحصة في المؤلفات التي تبحث في الفكر الصوفي وممارساته بنظرة ثاقبة متفهمة للأمور التي أشرنا إليها سابقاً .

لقد نشأت الطرق الصوفية في الأصل لتهيئة وتنظيم الأساليب الفنية المفضلة عند مؤسس كل طريقة وليتبعها أفراد الفئة المختارة لسلوك هذه الطريقة .

وقد أرست هذه الطرق قواعدها في الوقت الحاضر على الثقافة الشرقية والدين الإسلامي ، وهي طرق معروفة في الشرق ومنها الطرق الأربع الرئيسية التي نقوم في هذا الفصل بدراستها .

١ ـ الطريقة الجشتية أو الششتية

ولد الخواجة[أ] (السيد) أبو إسحق الششتي «السوري» في القرن العاشر وهو سليل أسرة النبي محمد (ص) ، وقد تلقى التعاليم الباطنية للأسرة الهاشمية لانتمائه الروحي لها ، أما أتباعه فينتسبون إلى الأئمة العارفين الذين عرفوا فيما بعد بالنقشبنديين .

وقد تخصصت هذه الفئة من الششتيين وهم أصلاً من« ششت »في خراسان في استعمال الموسيقى في رياضاتهم الصوفية .

ويعرف الدراويش المتجولون من أتباع هذه الطريقة بالششت ويعزفون على الناي ويدقون على الطبول ، ويتجمع الناس حولهم كلما دخلوا بلداً إذ يبدأون بتلاوة رواياتهم أو أساطيرهم ذات المغزى ، وتبدو آثار هذه الصورة حتى في أوربا ، حيث «الشيستو» Chist الاسباني يوجد بملابس وزي وآلات مشابهة تماماً وهو مهرج متنقل .

وتنسب المعاجم اللغوية الغربية اشتقاق الكلمة إلى الأصل اللاتيني «gere» ومعناها «يعمل» أما القول بأن أصل الكلمة Jester ، ومعناها متنقل فهو

(أ) كلمة «خواجه» كلمة فارسية وتعني الأستاذ أو المعلم (المترجمة) .

أمر وهمي ، والحقيقة أن المعنى الأصلي اشتق من الكلمة الأفغانية Chist .

وكما هو الحال بالنسبة للطرق الصوفية الأخرى ، فإن الأسلوب الخاص بالششتيين سرعان ما تبلور على هيئة حب واضح للموسيقى وللتأثير العاطفي الذي تحدثه هذه الموسيقى عندما تمتزج بالرياضة الروحية .

لقد كان تأثير الشيشتيين على الهند عظيماً وما زال هذا التأثير مستمراً حتى الآن ، وكان لموسيقييهم تقدير كبير في شبه القارة الهندية خلال التسعمائة سنة الماضية .

وفيما يلي بعض أقوال تعبر عن التعاليم الششتية . .

السبب والأثر

قال أبو إسحق الشامي الششتي :

أخذني معلمي الخواجة «حُبيرة» ذات يوم للتنزه سيراً على الأقدام في المدينة ، فصادفنا رجلاً على حمار ، فلم يفسح لنا الطريق لنسير في الشارع الضيق ، وعندما سرنا أمامه ببطء أخذ يشتمنا ، فقال الناس الذين كانوا يقفون على أبواب منازلهم :

ـ «يجب أن يعاقب هذا الشخص لسوء سلوكه .

فقال لي الخواجة :

ـ «يا لهؤلاء البسطاء ، إنهم لا يدركون حقائق الأشياء ، ولا يرون إلا نوعاً واحداً من السبب والأثر ، لكن الأثر يظهر أحياناً قبل السبب» .

فاضطربت لكلامه وسألته تفسيراً فقال :

ـ لقد نال هذا الرجل عقابه بالفعل ، فقد طلب حضور حلقة الشيخ «آدمي» يوم الثلاثاء الماضي ، لكنه رفض ، وحينما يعرف السبب يسمح له بحضور حلقة أهل الصفوة ، وحتى ذلك الحين سيستمر في إساءة التصرف .

البستان

كان يوجد ، في قديم الزمان ، بستاني كبير في الوقت الذي لم يكن للناس علم أو معرفة بفن العناية بالحدائق والبساتين .

وقد من الله عليه بمعرفة عشب إطالة الحياة ، بالإضافة لمعرفته وإلمامه بجميع أنواع النباتات وتغذيتها وقيمتها الطبية والجمالية ، فعاش مئات السنين .

وفي الأحقاب التالية قام بزيارة الحدائق والأماكن المزروعة في العالم ، وزرع حديقة رائعة في إحدى المناطق ، وقدم تعليمات للناس عن كيفية المحافظة عليها ، وعلمهم أيضاً فلاحة البساتين . واعتاد الناس على رؤية النباتات تنمو وتزدهر في كل عام ، فنسوا أن هناك نباتات أخرى يجب أن تجمع بذورها ، وأن بعض النباتات تتوالد من الشتلات ، وبعضها الآخر يحتاج إلى كثير من السقي والعناية ، فكانت النتيجة هي إهمال الحديقة التي كان الناس يظنون أنها أفضل حديقة موجودة .

وبعد أن قدم لهم البستاني فرصاً متعددة لتعلم فن الفلاحة ، ولم يفلحوا في ذلك طردهم وشغّل مجموعة أخرى من العمال ، وحذرهم من مغبة الإهمال إذا لم ينظفوا الحديقة ويتبعوا تعليماته في العناية بها .

لكنهم أهملوا ما تعلموه بعد ذلك ، ونظراً لكسلهم فقد اعتنوا بالأزهار والثمار التي كان من السهل العناية بها وتركوا النباتات الأخرى تذبل وتموت .

وكان بعض الأشخاص الذين تولوا سابقاً العناية بالحديقة يعودون بين الحين والحين فيقولون للعاملين فيها :

ـ «يجب أن تعملوا كذا وكذا . . .» .

وكان هؤلاء العمال يصيحون قائلين :

ـ «أنتم لستم على حق في هذا» .

ثم يطردونهم .

إلا أن البستاني ثابر على العمل فنسق حدائق أخرى ، ولم يكتمل العمل إلا في حديقة واحدة تولى بنفسه العناية بها مع مساعديه .

ولما عرف الناس بوجود عدة حدائق وعدة أساليب للتنسيق أخذوا يزورون الحدائق ، لتوجيه النقد أو الإستحسان ، أو للمناقشة في كيفية العناية بالحدائق ، وألفت الكتب وعقدت الإجتماعات بين البستانيين ونظم هؤلاء أنفسهم في مجموعات حسب تفوقهم في فن الفلاحة .

غير أن الناس كما هو شأنهم غالباً انساقوا بسهولة للأمور السطحية فقال بعضهم :

ـ «أحب هذه الزهرة» ، وكانوا يريدون من الآخرين أن يحبوها مثلهم ، ولكن ربما كانت الزهرة رغم جمالها وتوفرها بكثرة ـ من العشب ـ الضار الذي يعطل نمو سائر النباتات ، أو نبتة يصنع منها الدواء أو الطعام الذي يحتاج إليه الناس لنموهم واستمرار حياتهم .

كما كان بين الناس من يفضل النباتات ذات اللون الواحد ويصفها بأنها «نباتات جيدة» وبعضهم الآخر يقتصر على العناية بالنباتات ويرفض العناية بالأبواب أو بسياج البستان .

وأخيراً مات البستاني الكبير فترك وراءه ثروة من المعرفة الكاملة بعلم البستنة التي وزعها بين الناس الذين يمكن أن يستوعبوا هذه المعرفة حسب مقدرتهم .

وبقي علم البستنة وفنها كتراث مبعثر في كثير من الحدائق وفي بعض الكتب التي ألفت عنه .

أما الأشخاص الذين نشأوا في حديقة ما من هذه الحدائق فقد كانت لديهم بصفة عامة معلومات قوية عن المزايا والعيوب الكامنة في طريقة رؤية السكان

للأشياء ، حتى أنهم غير قادرين على تفهم ضرورة عودتهم إلى مفهوم «الحديقة» وذلك رغم أنهم يبذلون جهداً في سبيل ذلك ، وفي أفضل الحالات نجد أنهم يكتفون بالقبول أو يتطلعون إلى العوامل الشائعة .

ويظهر البستانيون الحقيقيون من وقت لآخر ، كذلك فإن الحدائق التي تُسمى «شبه حدائق» Semi — gardens كثيرة ومتوفرة ، وعندما يسمع الناس عن حدائق حقيقية يقولون :

ـ نعم ، إنكم تتحدثون عن حديقة كالتي عندنا أو كالتي نتخيل وجودها» لكن ما عندهم أو ما يتخيلون أنه لديهم فيه نقص وخلل .

أما الخبراء الأصليون في فن البستنة فلا يناقشون البستانيين ويتعاونون فيما بينهم لكي يعيدوا إلى حدائقهم حيويتها إلى حد ما .

ويضطرون إلى استعمال أسلوب السخرية لأن أولئك الذين يريدون تعلم فن البستنة والعناية بالحدائق كعلم يستند إليه كل ما سمعوا عنه من قبل ، وهكذا فهم يسألون أسئلة كالسؤال التالي :

ـ «كيف يمكنني أن أحصل على أزهار أكثر جمالاً من هذه الأبصال ؟»

ويمكن للخبراء الأصليين في البستنة أن يعملوا معهم لأنه من الممكن إيجاد الحدائق الجيدة المنتجة كل البشر ، إنها لا تدوم طويلاً ولكن من خلالها يمكن أن نتعلم التعلم ويمكن للناس أن يعرفوا ما هي الحديقة بالفعل .

جماعة الصوفيين

أرسل أحد المعلمين جماعة من الصوفيين إلى إحدى الضواحي ، فاستقروا في أحد المنازل ، وكان وكيل المعلم يتولى مهمة التعليم تجنباً للفت النظر ، أما الباقون فيقومون بما يقوم به خدم المنزل ، ولما تمت التعاليم ، أعاد أفراد الجماعة تنظيم مهامهم فأخذوا يظهرون للناس أنهم من أفاضل الصوفية .

أما سكان البلدة فقد ابتعدوا عنهم عندما اكتشفوا أنهم من المقلدين ، وأخذوا يتحدثون قائلين :

«يا للعار ! انظروا كيف اغتصب هؤلاء الناس إرث المعلم الكبير فهؤلاء الخدم التعساء يتصرفون الآن كما لو كانوا هم أنفسهم من المتصوفين !» .

إن ذوي التفكير السطحي لا يملكون الحكم على هذه الحالات لأنهم يتقبلون عمل أولئك المقلدين الذين يقلدون خطى المعلم الصوفي ويرفضون في الوقت نفسه أولئك الذين يواصلون عمله .

وإذا ترك هذا المعلم جماعته بسبب الموت أو لسبب آخر فربما تابع الآخرون نشاطه أو لم يتابعوه .

وهكذا يطمح الناس العاديون إلى الافتراض بأن هذه الاستمرارية شيء ضروري ، فيبدو هذا غباءً فهم لا يتعرفون على هذه الاستمرارية إذا اتخذت شكلاً آخر غير الشكل العادي .

إذا لم يكن الموت موتاً

ظن الناس أن رجلاً قد مات ، فأخذوا يعدون العدة لدفنه وفجأة عاد للحياة ، ولما شاهد ما حوله صدم فأغمي عليه ووضع في الكفن ، وسارت الجنازة متجهة إلى المقبرة ، ولدى الوصول إليها استعاد الرجل وعيه وصاح طالباً النجدة .

فقال الناس : ليس من الممكن أن يكون هذا الرجل قد عاد إلى الحياة ، لأن أشخاصاً خبراء قد شهدوا على وفاته .

فصاح الرجل : لكنني حيٌّ !

وأخذ يتوسل إلى الحاضرين وبينهم رجل مشهور وعالم متجرد ورجل في القانون .

فقال أحد الخبراء : «انتظر لحظة» .

ثم استدار إلى الناس وأخذ يحصي عددهم ثم قال :

ـ «والآن ، وبعد أن سمعتم ما زعمه الميت ، قولوا لي أيها الرجال ، وأنتم خمسون رجلاً شاهداً ، ما هي الحقيقة في نظركم ؟»

فقال الشهود : «إنه ميت» .

وقال الخبير : إذن فادفنوه .

وهكذا دفن الرجل .

الغرفة الإضافية

احتاج أحد الرجال إلى المال ، وكانت الطريقة الوحيدة للوصول إلى هذا المال هي أن يبيع منزله ، ومع هذا فلم يرغب في الاستغناء عن المنزل بكامله .

وهكذا وافق على البيع واتفق مع المالكين الجدد على استعمال غرفة واحدة من البيت استعمالاً حراً والاحتفاظ بشيء من حاجياته فيها في أي وقت يشاء .

وكان الرجل يضع بضع حاجيات صغيرة في غرفته ، ويذهب أحياناً لتفقدها دون أن يزعج أحداً ، وكان يغير عمله من وقت لآخر فيخزن أدوات تجارته هناك ، ولم يعترض المالكون الجدد على ذلك أيضاً . وأخيراً جلب القطط وكان يحتفظ بها في غرفته بعد موتها ، فلم يعد البيت صالحاً للسكنى بسبب رائحة العفونة المنبعثة من القطط .

فرفع المالكون الجدد أمرهم للقضاء ، لكن القضاة أقروا بأن الأذى غير مخل بشروط العقد ، وكنتيجة لذلك باع المالكون الجدد البيت لمالكه الأصلي بخسارة كبيرة .

الأخوة السبعة

كان يوجد في قديم الزمان ، أب عاقل له سبعة أبناء ، وكان يجتهد في تعليمهم ، ولما شبوا وهم يتلقون تعليمهم ، أدرك الأب أن سلامتهم أكثر أهمية من تعليمهم ، فقد تحقق من أن كارثة ما ستحل بالبلدة ، وأدرك بأنهم مستعدون لمواجهة الكارثة والبقاء معه إذا أخبرهم بشكوكه وظنونه .

فكلف كل ابن من أبنائه بمهمة وأمره بالرحيل من أجلها على الفور . فأرسل الابن الأول إلى الشمال والثاني إلى الجنوب والثالث إلى الغرب والرابع إلى الشرق ، والأبناء الثلاثة الآخرون إلى أماكن مجهولة . وبعد أن رحلوا جميعاً ، توجه الأب مستفيداً من معرفته الخاصة ، إلى بلدة بعيدة ليتم عملاً كان قد بدأه عندما انصرف إلى تعليم أبنائه وتوجيههم .

وبعد أن أنجز الأبناء الأربعة الأوائل مهامهم التي أرسلوا من أجلها خلال المدة الزمنية التي حددها الأب ، عادوا إلى البلدة . ولدى رؤيتهم المكان الذي شبوا فيه ، لم يتعرف الواحد منهم على شقيقه ، وكان كل منهم يدعي بأنه ابن أبيه ، ويرفض تصديق الآخر ، فقد أدى مرور الزمن وتغير المناخ وانصراف كل امرىء إلى شؤونه الخاصة إلى تغير مظهرهم الخارجي .

وحصلت معارضة من كل شخص للآخر ، وقرر كل أخ أن يقيّم أخاه حسب وضعه ولحيته ولون بشرته وطريقته في الكلام ، ولكن حتى هذه الأمور تغيرت بمرور الزمن .

ووصلت رسالة من الأب بعد فترة ، وكانت تتضمن تفسيراً لمشكلتهم وتقدم لهم التعاليم الأخرى التي تركها لهم ، ولكن لم يسمح الأخوة لبعضهم البعض بفتح الرسالة .

وكان الأب قد تنبأ بحدوث هذا ، وكان له حكمة في ذلك ، فقد كان يدرك أنهم لن يتعلموا شيئاً جديداً إلا إذا عرفوا أنهم تغيروا كثيراً .

وأخيراً تعرف اثنان من الأبناء على بعضهما فقاما بفتح الرسالة وحاولا التكيف مع الواقع ، واستنتجا أن ما كان شيئاً أساسياً بالنسبة لهما يعد من الأمور التافهة ، وما ظلوا سنوات عديدة يعدونه جذور وجودهم هو في الحقيقة فشل ذريع وأحلام لا تفيدهم شيئاً .

أما الشقيقان الآخران فكانا يراقبان الأمر باستياء ولم يريدا التشبه بهما ، وأما الأخوة الثلاثة الباقون فقد ذهبوا في مقاصد أخرى فلم يصلوا إلى مواعيدهم .

وسوف يمضي بعض الوقت حتى يدرك بقية الأخوة أن الوسائل الوحيدة لبقائهم في عزلتهم (أي الأمور السطحية التي كانوا يظنون أنها مهمة) هي نفسها التي تعوق فهمهم وإدراكهم . وهكذا فإن الجميع لم يتوصلوا إلى المعرفة بعد .

وجهة نظر الجمل

سأل رجل ذات يوم جملاً عما إذا كان يفضل الصعود إلى التل أو الهبوط منه ، فقال الجمل :

ـ «لا يهمني الصعود إلى التل أو الهبوط منه بل يهمني الحمل الذي سأحمله !» .

القَسَمْ

أقسم رجل وكان يشكو من اضطراب في عقله ، أن يبيع بيته ويعطي ثمنه للفقراء إذا وجد حلاً لجميع مشاكله .

وجاء الوقت الذي يجب أن يفي فيه بقسمه ، لكنه لم يرغب في تبديد كل المال الذي كسبه ففكر بطريقة للخروج من هذا الموقف الحرج ، وعرض البيت للبيع مقابل قطعة فضية واحدة ، وكان في داخل البيت قطة فطلب ثمناً لها عشر آلاف قطعة فضية . واشترى رجل هذا البيت مع القطة ، فأعطى البائع قطعة الفضة للفقراء واحتفظ بالعشرة آلاف لنفسه .

ويفكر كثير من الناس بهذه الطريقة فهم يقررون اتباع إحدى التعاليم الصوفية ، لكنهم يفسرون الأمور وفقاً للفائدة التي تعود عليهم شخصياً .

الصوفي كاذب

الصوفي كالغريب في بلده والضيف في بيته ، وأي من هذين الشخصين يجب أن يفكر بالعقلية المحلية لقومه .

الصوفي الحقيقي رجل (متبدل) ، ما دام التغير أو التبدل جزءاً أساسياً من التصوف ، أما الشخص العادي فهو ليس متغيراً ، ومن هنا فهو أحوج إلى الرياء .

قد يذهب أحد الرجال إلى بلدة ما حيث يعد العرى شيئاً مشرفاً ، أما لبس الثياب فهو عار ، وإذا أراد هذا الرجل البقاء في هذه البلدة فيجب عليه طرح ثيابه ، أما إذا اكتفى بقوله :

ـ «إن لبس الثياب أفضل والتعري شيء غير لائق ، فعندئذ سينبذ من سكان البلدة .

ومن هنا ، فإنه إما أن يترك البلدة أو أن يساير التيار (إذا كان لديه أعمال تضطره إلى البقاء فيها) .

وإذا ورد موضوع لبس الثياب في نقاش فسوف يضطر إلى النفاق ، وهنا نجد أن العادات تتضارب .

على أن تضارباً أخطر شأناً يحدث بين التفكير المعتاد والتفكير غير المعتاد .

فالصوفي يعرف مجالاً للوجود لأنه قد جرب مع الآخرين أشياء كثيرة ولكن لا يمكنه الحكم عليه جدلاً حتى لو كانت كل المجادلات قد جربت من قبل شخص ما في وقت ما ، وقد أقر بعضها واعتبرت «شيئاً معقولاً» .

ونشاط الصوفي كنشاط الفنان يقتصر على التصوير والتوضيح .

الموسيقى

يعرفون أننا نصغي إلى الموسيقى وندرك كثيراً من أسرارها ، لذا فهم يعزفون الموسيقى ويلقون بأنفسهم في «حالات» . فإذا عرفت أن كل معرفة يجب أن يكون لها كل متطلباتها ، لا للموسيقى فحسب وإنما للفكر والتركيز أيضاً فتذكر عندئذٍ ، ما يلي :

لا فائدة من محصول الحليب الرائع
الذي يأتي من بقرة ترفس الدلو .
معين الدين الششتي .

كيف يرفع الإنسان من شأنه

هناك شيئان : الخير ، وذلك الشيء الذي يجب أن يصبح خيراً وهو الحقيقة ، وهناك الحقيقة الزائفة ، هناك الله وهناك الإنسان .

وإذا كان الإنسان ينشد الحقيقة فيجب أن يكون مؤهلاً لتقبلها . لكن الإنسان لا يدرك هذا حق الإدراك ، ولأنه يعتقد في وجود الحق ، فهو يفترض أن بإمكانه الوصول إليه ويستمر في هذا الإعتقاد .

فمثلاً سيستمر الناس من بعدي في استعمال نوع من الأنغام كوسيلة للوصول إلى الحق وكنوع من التعويذة التي تتفتح بموجبها الأبواب .

وهكذا فإنهم سيستمعون إلى الموسيقى ويعزفونها ويتأملون في الحروف المكتوبة ، لسبب بسيط هو أنهم شاهدوا كل هذه الأشياء بالفعل .

والفن يساعد في الربط الصحيح بين العناصر التي تجعل الإنسان جديراً بهذه الصلة بالحقيقة الصريحة لا بما هو زائف .

تذكر دائماً أن (المعرفة) الحقيقية التي تقوم بالوصل بين العالم الظاهري

والباطني نادرة لا يصل إليها إلا قلة من الناس .

ولا شك أن الكثيرين يفضلون الاقتناع بصحة التجربة البسيطة على العثور على ذخيرة من اللب .

معين الدين الششتي .

سر المتصوفين

فيما يلي أنشودة باللغة الأردية يغنيها أتباع الولي الششتي «السيد مير عبد الله شاه» الذي عاش في القرن التاسع عشر ، ولهذا الولي مقام في مدينة «دلهي» .

وتهدف الأنشودة إلى إظهار صفة يشترك فيها الصوفيون ولا يمكن التعبير عنها بالأسماء أو بالطقوس أو باللباس الخاص ، رغم أن كل هذه الأمور لها صلة بالسر الداخلي لوحدة الوجود .

أرى رجلاً حراً جالساً على الأرض
في شفتيه غليون ، ثوبه مرقع ، ويداه مرهقتان
هل هو أحد الأصفياء العظماء ؟
نعم ، يا صديقي ، هو كذلك !

الشيخ سعدي بابا ، السلطان عارف خان والشاه ولي الله الأمير .
ثلاثة أمواج من بحر واحد ، ثلاثة ملوك في ثوب متسول .
هل يمكن أن يكون أي من هؤلاء الأسمى ؟
نعم ، يا صديقي ، كلهم هو !
الكل هو ، هو ، هو !

المسلمون ، الهندوس ، المسيحيون ، اليهود والسيخ .
كلهم أخوة في إحساسهم الخفي ـ ولكن من يعرف هذا في داخله ؟ . .
يا رفاق الكهف !

ما هو سر الفأس ، ووعاء المتسول ؟
ما سر جلد الغنم والقرن وغطاء الرأس ؟
ما سر الجوهرة فوق الحزام ؟
الكل هو ، صديقي ، هو !

هل تذهب إلى قمم الجبال ؟
هل تجلس في أحد المقامات ؟
ابحث عنه عندما يأتي المعلم ،
ابحث عن الجوهرة داخل المنجم !
الكل هو ، يا أصدقائي ، يا رفاقي ، الكل هو !

....

٢ ـ الطريقة القادرية

نظم هذه «الطريقة» أتباع عبد القادر الجيلاني الذي ولد في نيف بمنطقة جيلان ، وتوفي عام ١١٦٦ م ، وقد استخدم مصطلحات وتعابير تشبه إلى حد بعيد تلك التي استخدمها الروزيكروسيون في أوربا ، لقد اختص عبد القادر الجيلاني في الحالات الروحانية ، وقد بالغ أتباعه في وصف شخصيته ، فلم تعد تمثل المعلم الصوفي كما تحدث عنها بتعريفاته الخاصة .

ولعل مبالغة الجماعات القادرية في الانغماس بالجذب الصوفي هو السبب في إفساد الطريقة .

وقد نجم عن هذه المبالغة نموذج شائع بين المتحمسين عندما تصبح حالة الشطح الفكري نهاية وليست وسيلة يتحكم فيها شخص خبير بالموضوع .

وفيما يلي نماذج مقتبسة تتضمن قصصاً تعليمية لأتباع الطريقة القادرية وبعض التعليقات من عبد القادر نفسه .

ويبدو أن عبد القادر كان يتمتع بقدرات فائقة في طفولته المبكرة كجلال الدين الرومي ، والكتب التي تتحدث عن سيرته الذاتية حافلة بمآثره وقدراته .

وردة بغداد

يستخدم الدراويش كلمة (ورد) كرمز للتعبير عن الوِرد ويعني بها الرياضة الروحية .

ويصور لنا «عبد القادر الجيلاني» مؤسس الطريقة القادرية الحادثة التي جرت له وأعطي على أثرها لقب وردة بغداد .

إذ يروى أن بغداد كانت ملأى بالمعلمين الصوفيين حتى أنه لدى وصول عبد القادر إلى بغداد ، قرر هؤلاء أن يوجهوا إليه رسالة ، لذا أرسل المتصوفون في أطراف المدينة إليه وعاءاً طافحاً بالماء ، وكان معنى هذا أن كأس بغداد مليء حتى القمة .

ورغم أن هذا حدث في الشتاء ، وفي غير أوان تفتح الورد ، فقد أتى عبد القادر بوردة كاملة التفتح ووضعها فوق الماء ليشير إلى أمرين أولهما قواه غير العادية ، وثانيهما أن له متسعاً في المدينة .

وعندما تسلم مجلس الصوفيين هذه الإشارة صاح أفراد المجلس بصوت واحد «عبد القادر وردتنا» وسارعوا إلى إدخاله للمدينة .

الخمر

زرع أحد الرجال كرمة تنبت عنباً لا يصلح للأكل إلا بعد ثلاثين سنة ، وحدث أن مر به أمير المؤمنين وهو يباشر زراعته فتوقف عنده وقال :

ـ «أنت متفائل جداً إذا كنت تأمل في أن تعيش حتى يحمل هذا النوع من الكرمة» .

فقال الرجل : «ربما لا أعيش حتى ذلك الحين ، ولكن ربما عاش خلفائي ليستفيدوا من عملي ، مثلما نستفيد نحن مما قام به أسلافنا» .

فقال الحاكم :

ـ «مهما يكن من أمر ، فأرجو أن تحضر لي قليلاً من العنب عندما ينمو ، إذا استطاع أحدنا الهروب من سيف الموت المسلط على رقابنا طول الوقت» .

ثم مضى في سبيله ، وبعد بضع سنوات ، بدأت الكرمة تحمل عنباً لذيذ المذاق ، فملأ الرجل سلة كبيرة بعناقيد منتخبة ، وذهب بها إلى القصر فاستقبله الحاكم ومنحه هدية من الذهب ، وتحدث الناس بالنبأ فقالوا : لقد منح الحاكم مبلغاً كبيراً من المال لفلاح بسيط مقابل سلة من العنب .

ولما سمعت إحدى النساء الجاهلات هذا النبأ ، ملأت في الحال سلة بالعنب وقدمتها إلى حارس القصر قائلة :

ـ «أطلب المكافأة نفسها التي قُدمت إلى الفلاح هذا الصباح ، وقد جلبت هذه الفاكهة لتقدمها إلى الملك ليمنحني مقابلها نقوداً » .

ونقل الخبر إلى أمير المؤمنين الذي أجاب :

ـ اطردوا كل أولئك الذين يدفعهم ميلهم إلى التقليد ، وغرورهم إلى محاكاة غيرهم دون معرفة الظروف المحيطة بهم .

وانصرفت المرأة بانزعاج شديد ، ولم تستفهم من صاحب الكرمة عما حدث بالفعل .

المعلم والكلب

كان معلم صوفي يسير ذات يوم في إحدى الطرقات مصطحباً تلميذه ، وفجأة هاجمه كلب ضار ، فغضب المريد وصاح :

ـ «كيف تجرؤ على مهاجمة معلمي بهذا الشكل ؟» .

فقال المعلم الحكيم :

ـ «إنه أقوى منك لأنه ينبح على أي شخص حسب عادته وميله ، في حين أنك تنظر إليّ كسيد لك ، ولا تنتبه إلى أي مزايا لدى الأشخاص الكثيرين الذين

مررنا بهم في رحلتنا هذه والمتمتعين بالذكاء ، فلم تلتفت ولا بنظرة بسيطة لهم» .

الحالات وأبناء آوى

يعتقد ابن آوى أنه تناول كفايته من الطعام عندما يكتفي بأكل بقايا أحد الأسود .

وأنا أنقل علم الوصول إلى «الحالات» ، لكن إذا اكتفى الإنسان بهذا ففيه ضرر لأنه سيصبح شهيراً قوياً ، وسوف يقود الناس إلى عبادة «الحالات» فيصبحون غير قادرين على العودة إلى الطريق الصوفي .

عبد القادر الجيلاني

المتشرد ، الغنم والقرويون

أمسك ذات يوم فلاحو القرية بأحد المتشردين ، وأوثقوا رباطه إلى شجرة ليتأملوا في المعاناة التي سيعانيها ، ثم انصرفوا عنه بعد أن قرروا إلقاءه في البحر في مساء ذلك اليوم بعد أن ينتهوا من عملهم اليومي .

لكن أحد الرعاة ، ولم يكن شديد الفطنة ، تقدم إلى المتشرد وسأله عن سبب تقييده بهذا الشكل .

فقال المتشرد :

- «لقد وضعني بعض الناس هنا لأنني لم أقبل مالهم» .

فسأله الراعي مذهولاً :

- «ولماذا يريدون إعطاءك النقود ، ولماذا تقبلها» .

قال المتشرد :

- «لأنني متأمل وهم يريدون إفسادي ، إنهم لا يعبدون الله» .

فاقترح الراعي أن يحل محل المتشرد ونصح المتشرد بالهروب كي لا يتوصل إليه الكفار .

وهكذا تبادلوا المواضع .

وعاد مواطنو القرية بعد حلول الظلام فألقوا على رأس الراعي كيساً وربطوه ثم ألقوا به في اليم .

وراعهم في اليوم التالي أن يروا المتشرد قادماً إلى القرية مع قطيع الأغنام .

فسألوه : «أين كنت ؟ ولماذا أحضرت هذه الأغنام ؟» .

فقال المتشرد :

«يوجد في البحر أرواح عطوفة تقفز تارة إلى أعلى وتارة إلى أسفل» .

وفي لمح البرق اندفع الناس إلى شواطىء البحر وقفزوا إليه وهكذا استطاع المتشرد الاستيلاء على القرية !

المرض المُفزع

زحف أحد اللصوص في إحدى الليالي إلى نافذة مفتوحة في بيت إحدى العجائز بعد أن قرر سرقتها ، وكانت ترقد في فراشها وتتحدث بانفعال شديد وبطريقة غريبة فسمعها اللص تقول :

ـ «آه من مرض الدب دب المرعب ! هذا المرض اللعين ستكون نهايتي على يديه .

ففكر اللص وقال لنفسه :

ـ «هذه المرأة التعيسة تعاني من مرض مفزع ، هو مرض دب دب الخبيث وهو مرض لم أسمع به من قبل !» .

ولما اشتد عويل المرأة قال اللص لنفسه :

ـ «تُرى ، هل أصابتني العدوى ؟ لا بد أن يكون نَفَسها قد انتقل إليَّ عندما انحنيت على النافذة . . .» .

وكان يصيبه الهلع كلما فكر فيما أصاب المرأة لخوفه من المرض وبعد بضعة أشهر أصابته رعشة شديدة فقرر الاعتكاف في بيته مع زوجته .

وقال وهو يئن ويتأوه :

ـ «هذا المرض اللعين ، كيف لي أن أشك في إصابتي بهذا المرض اللعين . . .» .

وأخذت الزوجة تتساءل عما أصاب زوجها وخيل إليها بادىء الأمر أنه لا بد قد هوجم من حيوان متوحش يدعى دوب دوب . ولما انهار زوجها تماماً ولم تجد أثراً لاعتداء أي وحش عليه بدأت تشك في خطورة الأمر .

واعتقدت أن رجل الدين في البلدة هو أفضل شخص لحل المشكلة ، وكان هذا الرجل عالماً بالقانون أيضاً وفقيهاً ، فاتجهت فوراً إلى بيته وطلبت إليه الذهاب لرؤية زوجها .

فأسرع الفقيه إلى منزل اللص فرحاً لأن الفرصة أتيحت له لاستعمال سلطته الدينية .

وعندما رأى اللص رجل الدين واقفاً بجوار فراشه ، أيقن أن نهايته قد دنت فاستجمع قواه ثم قال هامساً :

ـ «إن المرأة العجوز التي تسكن في نهاية الطريق مصابة بمرض الدوب اللعين وقد انتقلت إليَّ العدوى منها ، فأنجدني إن استطعت أيها الفقيه المحترم !

واضطرب الفقيه ، لكنه قال :

ـ «فكر يا بنيّ في التوبة وابتهل إلى الله ليرحمك ، فربما لم يبق لك في الدنيا إلا ساعات قليلة» .

وترك اللص ثم اتجه نحو كوخ المرأة ، ولما أطل من النافذة سمعها تئن وهي تتلوى من الألم وترتعش :

ـ «أيها المرض الأحمق ، إنك تقتلني . . . قف ، أيها المرض الشرير ، إن دمائي تسيل . . .» .

واستمرت المرأة بعض الوقت على هذا الحال ، تارة تنتحب وتارة تصمت ، وأحس الفقيه بقشعريرة غريبة ورجفة فأمسك بإفريز الشباك ، وصار يهتز كما تهتز الأسنان المصطكة .

وعند ذلك زحفت العجوز من فراشها ، وأمسكت الفقيه المرتعد بيديها وصاحت به :

ـ «ماذا تصنع يا رجل الدين والعلم في هذا الوقت من الليل ، هل تنظر خلسة من خلال نوافذ الناس المحترمين ؟

فقال العالم باضطراب :

ـ «أيها المرأة الطيبة سيئة الحظ . . . سمعتك تتحدثين عن مرض الديب ديب اللعين ، والآن أخشى أن يكون المرض قد انتقل إليّ وأن أموت .

فصرخت العجوز الشمطاء مذعورة :

ـ أيها الأحمق ، لقد اعتقدت أنك رجل العلم والحكمة ! لقد سمعت أحدهم يقول :

ديب ديب ، فتخيلت أنه مرض قاتل ! انظر في ذلك الركن لترى ما يكون الديب ديب المرعب في الحقيقة !» .

وأشارت إلى صنبور الماء الذي تبين الفقيه فجأة أنه يرشح بالماء محدثاً

صوتاً هو ديب ، ديب ، ديب . . .» .

ولكن لرجال الذين قدرة على استعـادة حيويتهم ونشـاطهم فتخلص الرجـل من قلقه وأسرع إلى بيت اللص فقد كان لديه عمل هناك .

وهمهم اللص قائلاً :

ـ «انصرف ، لقد تركتني عندما كنت بحاجة إليك ، إن منظر وجهك الـذي يوهن العزيمة لا يطمئنني على مستقبلي . . .» .

فقاطعه الرجل الجليل بقوله :

ـ «أيها التعس اللئيم ! هل تعتقد أن رجلاً لـه ما أملك من علم ودين يتـرك شيئاً كهذا دون حـل ؟ إذن اصغ جيـداً لكلامي وأفعـالي ، وسوف أبين لـك أنني أعمل دون كلل كما ألهمني الله من أجل سلامتك .

فتنبه اللص في الحال هو وزوجته لـدى سماعهمـا كلمة «شفـاء» إلى جلال قدر ذلك العالم المعروف .

وأخذ الفقيه قليلاً من الماء وغمغم بضع كلمات ، ثم أمـر اللص بأن يعـده بـأنه لن يعـود للسرقـة ، وأخيراً نشر الماء على اللص وهـو يغمغم ويومىء بضـع إيماءات ، ثم ختم كلامه قائلاً :

ـ «اذهب أيهـا المرض اللعين من أي وجهـة أتيت ، ولا تعـد أبـداً لتصيب هذا الرجل التعيس !

وهكذا شفي اللص .

ومنذ ذلك الحين لم يعد إلى السرقـة إطلاقـاً ، ولم يخبر أحـداً عن معجزة شفائه لأنه رغم كل ما حدث فلا يزال غير راض عن الفقيه وأفكاره .

قيـل إن المرأة العجـوز لم تـرض عن كـلام الفقيـه ، أمـا الفقيـه فلم يكن مستعداً لنشر تفصيلات الحادث .

ولكن ، كما هي طبيعة البشر ، فإن كل شخص من أبطال الرواية قد نقل القصة بطريقته الخاصة إلى الآخرين ، وهذا هو السبب في أننا نستطيع معرفة القصة بكاملها ، وما حدث لكل من المرأة واللص ورجل الدين .

اللص ، صاحب الدكان والقانون

اقتحم أحد اللصوص دكاناً من الدكاكين ، وبينما هو منهمك في السرقة دخل في عينه مثقاب كان صاحب الدكان قد تركه على رف من الرفوف ، فأخذت الدماء تنزف من عينه .

وذهب اللص إلى القاضي شاكياً حاله فقال :

ـ «إن عقوبة السرقة هي السجن ، لكن عقوبة الإهمال والتسبب بالضرر لعين شخص ما هي بالطبع تعويض كبير جداً» .

فقال صاحب الدكان مدافعاً عن نفسه :

ـ لقد أتى ليسرقني» .

فقال القاضي : سوف تنظر في هذا محكمة أخرى» .

فقال اللص : «إن أخذتم جميع ممتلكاتي تجوع أسرتي أثناء وجودي في السجن ، وهذا ليس من العدل .

وقال القاضي :

ـ «إذن سوف آمر بإخراج عين صاحب الدكان لتأخذ بثأرك منه» .

فقال صاحب الدكان :

ـ «ولكن إن فعلت هذا فستكون خسارتي أكبر من خسارة اللص ، وهذا ليس عدلاً ، وأنا صائغ فإذا فقدت عيناً تتدمر طاقتي على العمل» .

فقال القاضي :

ـ «حسناً جداً ، طالما أن القانون نزيه وحيث أنه لا يجب لشخص أن يعاني أكثر مما يجب ، وما دام أفراد المجتمع متشاركين في الربح والخسارة ، فأحضروا لي رجلاً لا يحتاج في عمله إلا لعين واحدة ، واقلعوا عينه الأخرى» .

ونُفذت أوامر القاضي .

ساعد أصحابه . . .

ساعد أصحابه مهما كان مظهرهم ! وسوف تسمع يوماً ما هذه العبارة :

ـ «لقد كنت بحاجة إليك ، لكنك لم تساعدني ، إن أولئك الذين ساعدوا أصحابي قد ساعدوني أنا» .

ابن العارف القادري (عن حديث شريف للنبي محمد (ص) .

الثمن والعمل

التقى حصان بضفدعة ، فقال الحصان : «خذي هذه الرسالة من أجلي ، واحمليها إلى حية ويمكنك التهام كل الذبابات التي تحيط بي» .

فأجابت الضفدعة :

ـ «لقد أحببت الثمن ، ولكن لا أستطيع القول بأنني سأنجز العمل» .

النبات

شوهدت ذات يوم ، في مدخل بيت (عن القادر الجيلاني» وردة في وعاء وإلى جانبها ورقة كتب عليها :

«شم هذه وخمن ما هي» .

ودعي كل شخص يدخل إلى البيت لكتابة جواب الأحجية ، وفي نهاية اليوم قدم عبد القادر لأحد مريديه صندوقاً فيه الأجوبة وقال :

ـ «كل من أجاب بكلمة «وردة» يمكنه البقاء ليباشر تعليمه إذا رغب وسوف

يُفصل كل من لم يكتب شيئاً على الإطلاق ، وكل من كتب كلمة أخرى غير كلمة «وردة» .

فسأل أحدهم : «هل من الضروري اللجوء إلى أساليب سطحية للحكم على قابلية الطالب للتعلم ؟

فأجاب المعلم الكبير :

ـ «أعرف الأجوبة ، لكنني أريد أن أبرهن للآخرين أن الظواهر الخارجية تدل على شخصية الإنسان من الداخل .

ومن ثم ناول «عبد القادر» المجتمعين قائمة تتضمن أسماء كل الأشخاص الذين كتبوا كلمة «وردة» رغم أنه لم يقرأ أجوبة الداخلين إلى البيت .

تُصور هذه القصة معنى العبارة التالية :

«الظاهر هو الطريق إلى الحق» .

إن ما رآه عبد القادر من الداخل يمكن رؤيته من الظاهر أيضاً ، وبهذه الطريقة ولهذا السبب فإن هناك نوعاً معيناً من السلوك المتوقع من التلاميذ .

نقل البركة

استدعى عبد القادر كل أتباعه في بغداد وقال لهم :

ـ «أرجو ألا تنسوا ما سأقوله لكم الآن وإلا أصبحتم نهباً لخطأ جسيم ، وأنا أخاطب أولئك الذين يجهلون أكثر من غيرهم ، لأن العارفين والواصلين لن يرتكبوا الأخطاء التي سوف أحدثكم عنها الآن :

ـ «يمكن لكثير من الناس من خلال بعض الرياضة الروحية (وهي فترة الواجب وتكرار أدائه) أن يؤثروا في الآخرين بخبرتهم العجيبة ، ويؤدي هذا التأثير إلى إحداث نوع من التهيج والرعشة وغيرهما من الانفعالات ويدل على

مرحلة الوصول ، وربما حدثت لبعض المعلمين الكبار رؤيا وكان لها تأثير إلهي .

لكن مثل هذه الأمور يجب أن تتوقف على الفور لما تحدثه من أثر في «القلب» الذي لم يتهيأ بعد للاتصال الحقيقي بالإله والذي لا يتم إلا بحصول شيء في نفس المريد .

«وربما كان هذا الانفتاح في القدرة الذي يكتشفه فجأة الجاهل أو قليل الخبرة منتشراً بصفة خاصة بين القرويين البسطاء فيندمجوا فيه تدريجياً ، ويظنوا أنه حالة حقيقية من حالات الوصول ؟ على أن مثل هذه الحالة تدل دلالة ما ويجب التنويه بها عندما تحصل .

أما أولئك الذين حدثت لهم فيجب أن يمروا بمرحلة خاصة من الاستعداد والتهيئة .

وقد استنفد الإلحاح على هذه الرياضة الروحية أو الصوفية قدرة أتباع الأولياء والأنبياء وظنوا أنهم يتقبلون البركة ، وإن أولئك الواصلين لا يجرؤون على الاستمرار في هذه الحالة عندما تظهر وأما أولئك الذين يطلقون لها العنان فلن يصلوا أبداً .

فعليك اتباع المجاهدة التي يوصي بها المعلم فهو يعرف لماذا تحدث هذه الأمور وينظم البحث تبعاً لذلك .

٣ ـ الطريقة السُهْرَوَرْدِية

أسس الشيخ «شهاب الدين السهروردي» هذه الطريقة في القرن الثاني عشر الميلادي متبعاً منهج المتصوف القديم «الجنيد» .

ومعلمو الطريقة السهروردية في التصوف مقبولون لدى أصحاب الطريقة النقشبندية وغيرها من الطرق ، كما هو الحال بالنسبة لمعظم الطرق الصوفية الأخرى . وقد تأثرت كل من الهند وإيران وأفريقيا بنشاطهم الصوفي في طريقتهم الخاصة رغم أن السهروردييين هم فرق صوفية كثيرة ، ولهم رياضات صوفية عديدة ، فمن الحصول على النشوة الصوفية إلى الرياضة الروحية الهادئة من أجل الوصول إلى الحقيقة ، أما تعاليم الطريقة فيمكن تقديمها على هيئة قصص وأساطير .

وتتضمن هذه الروايات أو الأساطير مادة أساسية لأتباعها لتهيئة المجال أمام الرياضات الروحية التي يجب أن يمارسها المريد .

وبدون هذه الرياضات يمكن أن تنمو في ذهن الطالب حالات متباينة من التفكير تجعله غير مؤهل ليحيا حياة عادية .

النجار ابن يوسف

كان يوجد في قديم الزمان ، نجار يدعى نزار بن يوسف ، وقد أمضى عدة سنوات في دراسة الكتب التي تتضمن علوماً قديمة تكاد تكون منسية .

وكان لدى هذا النجار خادم أمين ، فقال لخادمه ذات يوم :

ـ «لقد وصلتُ إلى العمر الذي يجب أن أستخدم فيه العلوم القديمة لأؤكد وجودي ، وأريد منك أن تساعدني في تنفيذ خطة أجدد بها شبابي» .

وشرح خطته ، لكن الخادم لم يوافق أول الأمر ، إذ كان عليه أن يمزق أوصال نزار ويضعه في برميل كبير مملوء بسائل معين .

فقال الخادم : «لا أستطيع أن أقتلك يا سيدي» .

ـ «بل يجب أن تفعل ، لأنني سأموت على أية حال ، وسوف تحرم مني ، خذ هذا السيف وقف حارساً على البرميل ، ولا تقل لأيٍ كان ما تفعله ، وبعد ثمانية وعشرين يوماً افتح البرميل وأخرجني منه ، ولسوف تجد أنني قد استعدت شبابي .

وهكذا وافق الخادم وبدأ في تنفيذ الخطة .

وبعد بضعة أيام ، أحس الخادم بشعور من عدم الارتياح في داخله ، وانتابته جميع أنواع الوساوس ، ثم بدأ يعتاد دوره الغريب ، وكان الناس يأتون للمنزل للسؤال عن سيده ، فيجيبهم الخادم : إنه ليس هنا في الوقت الحاضر . وأخيراً حضر مندوبون من السلطة الحكومية بعد أن شكوا في اختفاء السيد .

وقالوا : «لنفتش المنزل ، فإن لم نجد شيئاً ، نعتقلك على ذمة التحقيق ، ولن نطلق سراحك حتى يظهر سيدك .

واحتار الخادم في أمره ، فلم يفت من الوقت المحدد لتجربة سيده إلا إحدى وعشرين يوماً ، لكنه حزم أمره وقال :

ـ «اتركوني في هذه الغرفة مع هذا البرميل بضع دقائق ، وبعدها أكون على استعداد للذهاب معكم» .

ودخل إلى الغرفة ففتح غطاء البرميل ، فقفز منه على الفور رجل ضئيل الحجم لا يتجاوز طوله طول اليد ، وركض هذا الرجل حول البرميل وهو يكرر قوله :

ـ «لقد بكرت ، لقد بكرت . . .» .

وما لبث المخلوق الصغير أن اختفى في الهواء والخادم يرقبه بفزع ، وخرج الخادم من الغرفة فقبض عليه رجال الشرطة . ولم يشاهد سيده مرة أخرى ، رغم وجود عدة حكايات أسطورية عن نزار بن يوسف النجار ، ولكننا نترك هذه الحكايات لوقت آخر .

الفتاة التي عادت من الموت

كانت توجد فتاة جميلة وهي ابنة لرجل طيب ، وكان جمالها فريداً بين النساء بالإضافة إلى نعومتها .

ولما أصبحت في سن الزواج تقدم للزواج منها ثلاثة من الشبان الأقوياء الذين ينتظرهم مستقبل باهر ، ولما تبين الأب أنهم جميعاً يصلحون للزواج ، ترك أمر الاختيار لابنته .

لكن الشهور مضت ولم يقع اختيار الفتاة على أحد هؤلاء الشبان .

وفي أحد الأيام داهم المرض الفتاة على حين غرة وأسلمت الروح بعدها ببضع ساعات ، فأخذ الشبان الثلاثة جثمانها إلى إحدى المقابر ودفنوها في حزن عميق .

وكانوا متساوين في حزنهم عليها ، فاتخذ الشاب الأول فناء المقبرة منزلاً له ، وأخذ يقضي الليالي هناك في حزن وتأمل ، ولم يصدق أنه قد حرم من فتاته .

وخرج الثاني للتجول والسياحة في أنحاء العالم بحثاً عن المعرفة كفقير عادي .

أما الشاب الثالث فكان يقضي الوقت في تعزية الأب المفجوع .

ووصل الشاب الذي أصبح «فقيراً» خلال إحدى رحلاته إلى إحدى البلدان حيث أقام رجل اشتهر بالفنون الغريبة ، فأراد الشاب أن يكمل بحثه عن المعرفة ، فتوقف وطرق الباب ، فسُمح له بالدخول حيث كان صاحب المنزل يتناول طعامه ، وعندما دعاه المضيف ليشاركه الطعام ، سمع فجأة صوت طفل صغير يجهش بالبكاء ، وكان يبدو أن هذا الطفل حفيد الحكيم ، وفي هذه اللحظة أمسك الحكيم بالطفل وألقاه في النار ، فقفز الفقير محتجاً ، وهم بمغادرة البيت وهو يصيح :

ـ «اللعنة ! لقد أخذت حصتي من أحزان العالم ، لكن هذه الجريمة تفوق كل ما سمعت عنه فيما مضى !» .

فقال صاحب المنزل : «لا تفكر في هذا فإن الأمور الصغيرة تبدو في نظر المرء مختلفة إن لم يكن على علم بها» .

ثم قرأ عبارة ما وحرك يده برموز غريبة ، فخرج الصبي من النار دون أن يمسه أذى .

وحفظ الفقير العبارات والرموز ، وفي اليوم التالي توجه إلى قبر حبيبته ، فقرأ هذه العبارات والرموز فوق القبر ، وفي أقل من لمح البصر كانت الفتاة تقف على قدميها ، وقد عادت إلى الحياة ورجعت إلى والدها ، فعاد الشبان إلى التنافس على طلب يدها .

فقال الأول :

ـ «لقد كنت أعيش في فناء المقبرة وكنت دائم الاتصال بروحها ، فكنت كالحارس لها أقدم ما تطلبه من دعم ومساندة» .

وقال الثاني :

ـ «أنتما تجهلان الحقيقة ، وهي أنني أنا الذي تجولت في أنحاء العالم بحثاً عن المعرفة ، وأنا الذي تسببت في عودتها للحياة» .

وقال الثالث :

ـ «لقد حزنت من أجلها ، ولازمت والدها كصهر وابن بار به ، أواسيه وأساعده» .

ولما احتكموا إلى الفتاة نفسها ، قالت :

ـ «إن من وجد العبارة التّي سببت عودتي للحياة كان محباً للخير ، ومن عُني بوالدي أثناء غيابي ، كان يتصرف كابنه الحقيقي ، أما من مكث إلى جوار قبري فقد كان محباً لي ، وهو من سأتزوجه» .

حكاية المضيف والضيوف

المعلم كصاحب البيت الذي يستقبل الضيوف في بيته ، وضيوفه هم أولئك الذين يحاولون دراسة الطريقة ، وهم أشخاص لم يسبق لهم أن استضيفوا في بيت ، وليس لديهم فكرة واضحة عنه ، ومع ذلك فالبيت موجود بالفعل .

وعندما يدخل الضيوف إلى البيت ويشاهدون المكان قد هيىء لهم للجلوس ، يتساءلون : ما هذا ؟، فيقال لهم :

ـ «هذا مكان للجلوس ، فيجلسون على الكراسي دون أن يدركوا تماماً مهمة الكرسي .

ويقوم المضيف بتسليتهم ، لكنهم يستمرون في توجيه الأسئلة ، وبعضها لا علاقة لها بالموضوع ، ولكن نظراً لطيبة خلق المضيف فهو لا يلومهم على ذلك .

ويسأل الضيوف مثلاً عن موعد الطعام ومكانه ، ولا يعلمون أنه في تلك

اللحظة بالذات هناك أشخاص آخرون يعملون في طهو الطعام ، وأن الغرفة التي سيجلسون فيها لتناول الطعام قد أُعدت ، لكنهم لا يستطيعون رؤية الطعام ومن يعده ، لذا فهم مضطربون أو قلقون ، وفي بعض الأحيان منزعجون ، وعلى المضيف الطيب أن يريح بالهم ليتمكنوا من تناول الطعام بشهية ، لكن الضيوف لا يكونون بادىء الأمر في حالة تمكنهم من البدء بتناول الطعام .

وبعض الضيوف يتفهمون جيداً كل ما يتعلق بالبيت ، وهؤلاء هم الذين بإمكانهم الاتصال بزملائه الأبطأ فهماً ، ويقوم المضيف في الوقت نفسه بالإجابة عن سؤال كل ضيف وفقاً لقدرته في إدراك وحدة البيت ووظيفته .

ولا يكفي أن يكون البيت موجوداً ليكون مهيئاً لاستقبال الضيوف ، ولا يكفي أيضاً أن يكون المضيف موجوداً ، ويجب على أحد الأشخاص أن يتمرن على وظيفة المضيف ليعتاد الغرباء على البيت ، والمضيف هو المسؤول عن هؤلاء الضيوف ، كما أن الكثيرين منهم لا يدركون أول الأمر أنهم ضيوف ، ولا يعرفونه معنى الضيافة وماذا يقدمون لها وما يمكن أن تقدم لهم .

أما الضيف الذي تعلم كثيراً عن البيوت والضيافة ، فيشعر بالراحة طول فترة ضيافته ، ويتمكن من فهم المزيد عن البيوت وعن أوجه العيش المختلفة فيها ، ويتذكر أيضاً قواعد السلوك ، ويتوجه باهتمام خاص إلى كل ما يحيط بمعنى البيت فيصبح أكثر قدرة على الملاحظة ، فيتبين جمال وقيمة الأثاث الموجود في البيت .

التنجيم

عرف أحد المتصوفين بواسطة علم التنجيم وكشف الغيب أن إحدى المدن سيهاجمها الأعداء في وقت قريب ، فأخبر جاره الذي كان واثقاً من صحة كلامه ، فأخذ يسدي إليه بالنصيحة فقال :

ـ «أنا على يقين من صدقك فيما تتنبأ به ، وعليك أن تخبر الملك ، ولكن

إذا كنت تريد من الناس أن يصدقوا كلامك فيجب أن تخبرهم بأنك توصلت إلى هذه النبوءة بفضل علم التنجيم لا بفضل حكمتك ، وعندئذ سيقوم الملك بإجراءاته ويتم إنقاذ المدينة ، ففعل المتصوف ما نصحه به جاره ، وهكذا أنقذت المدينة بواسطة الاحتياطات والتدابير التي اتخذت .

قول للشيخ ضياء الدين

تبرئة الذات أسوأ من الاتهام الأصلي .

ثلاثة مرشحين

اتجه ثلاثة رجال لحضور إحدى الحلقات الصوفية وطلبوا الانضمام إلى هذه الحلقة ، لكن واحداً منهم انصرف مباشرة من الحلقة بعد أن غضب بسبب تصرف غريب من المعلم .

أما الثاني فقد انسحب أيضاً بعد أن أخبره أحد التلاميذ (بناء على تعاليم الأستاذ) أن الحكيم منافق .

أما الثالث فسُمح له بالكلام ، ولكن لم يتلق أية تعاليم فترة طويلة ، حتى فقد اهتمامه بالدروس وترك الحلقة .

وبعد انصراف هؤلاء الرجال تكلم المعلم أمام المجتمعين في حلقته قائلاً :

ـ «لقد كان الرجل الأول توضيحاً للمبدأ الذي يقول :

«لا تحكموا على الأمور الأساسية بالنظر» .

أما الثاني فكان توضيحاً للنصيحة التي تقول :

ـ «لا تحكموا على شخص من طريقة كلامه أو من حاجته إلى التعبير» .

ولما سُئل الحكيم عن سبب عدم إعطائه تعليمات لمريديه بهذا الصدد قال :

ـ «أنا هنا لأقدم للناس المعرفة الأسمى ، لا لأقدم المعرفة التي يتظاهر الناس بمعرفتها منذ أن كانوا في أحضان أمهاتهم .

هذا يجعلني أفكر في . . .

قال السُهروردي :

ذهبت لرؤية أحد الرجال وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، وكان يوجد على مقربة منا جمل يتهادى بتثاقل فقلت له :

ـ «ماذا يوحي لك منظر هذا الجمل ؟

قال : «إنه يوحي بالطعام» .

لكنك لست عربياً فهل لحم الجمل مأكول ؟

قال الرجل :

ـ «لا ، ليس هذا هو السبب ، فإن كل شيء يجعلني أفكر في الطعام .

. . . .

٤ ـ الطريقة النقشبندية

الشيوخ :

نشأت مدرسة الدراويش المسماة الخواجكان (السادة) في آسيا الوسطى ، وقد أثرت هذه المدرسة على تطور الامبراطوريتين الهندية والتركية .

كما أن طريقتهم في التصوف أدت إلى نشوء عدة مدارس خاصة اتبعت أسماء شخصيات صوفية .

وتنظر كثير من المصادر التي ألفت عن التصوف إلى هذه الطريقة على أنها أقدم طريقة في «سلاسل الإبلاغ الصوفية» .

ويعد الخواجة (بهاء الدين النقشبندي) المتوفى حوالي ١٣٨٩ م) من أعظم الشخصيات في هذه المدرسة ، وقد عرفت بعد عصره بالنقشبندية وتعني أصحاب النقش .

عمل «بهاء الدين» سبع سنوات كرجل من رجال البلاط الحاكم ، ثم قضى سبع سنوات أخرى في العناية بالأغنام وسبع أخرى في بناء الطرقات .

ودرس على يد «باباسماسي» المعروف ، وينسب إليه الرجوع إلى المبادىء والرياضات الروحية الأصلية للتصوف ، وكان يسمح لمشايخ النقشبندية بتلقين

المريدين لأخذ الطرق الصوفية الأخرى . ولم يكن من السهل على الباحثين تتبع تاريخ نشأة الطريقة النقشبندية والتعرف على أتباع هذه الطريقة ، لأنهم لم يتخذوا لأنفسهم زياً متميزاً ، ولم يكن لهم نشاط يلفت النظر ، وقد كان للنقشبنديين في الشرق الأوسط وأواسط آسيا شهرة فائقة كحركة دينية إسلامية بالدرجة الأولى ، وربما كان ذلك لسبب بسيط هو أنه كان لدى المشايخ النقشبديين تقليد متوارث في العمل ضمن الإطار الاجتماعي لثقافة شعبهم .

كيف نشأت الطريقة

ذهب ثلاثة دراويش في رحلة طويلة جداً ، ولما عادوا من رحلتهم قال لهم الناس :

ـ «ما هو الشيء الذي ساعدكم على إتمام الرحلة ومتابعة طريقكم وتحمل الحرمان ثم في إتمام العودة ؟

فأجاب الأول :

ـ «القطط والفئران ، لأن تصرفاتها في الحياة علمتني أهمية الهدوء والنشاط» .

أما الثاني فأجاب :

ـ «الطعام لأنه أعانني على تحمل مشاق الرحلة وفهم الأمور» .

وكانت إجابة الثالث هي :

ـ «الرياضة فقد علمتني أن أكون نشيطاً ومنظماً» .

وحاول الجهلة من السامعين اتباع هذه النصيحة بخنوع ، لكنهم فشلوا ، وابتعدوا بالفعل لا في الظاهر عن طريق الدراويش ، أما أولئك الذين هم من أنصاف الجاهلين فقالوا :

ـ «لن ننافس أحداً ، لكننا سنحاول أن نؤلف بين هذه المبادىء» .

ولم يكونوا ناجحين ، لكنهم ابتعدوا على الأقل عن طريق الدراويش وتركوهم في سلام ، طالما أنهم حسب اعتقادهم قد أحرزوا التعاليم كاملة .

ثم قال الدرويش للآخرين :

ـ «الآن نبين لكم أن الأسرار البسيطة والأمور العادية جداً في هذه الحياة ، إذا اجتمعت تمكن الإنسان من القيام بأطول رحلة ، وهذه هي التعاليم الصوفية ، وهكذا نشأت الطريقة (طريقة العارفين) ، وبهذه الآداب لا يزال الظاهريون والباطنيون يتصرفون .

ثلاث زيارات لأحد الحكماء

قام بعض السالكين بزيارة لبهاء الدين النقشبندي حيث كان جالساً في فناء بيته محاطاً بمريديه في جو صاخب .

فقال أحد الوافدين :

ـ «ما هذا ، ليست هذه طريقة جيدة للتصرف مهما كانت الحجة» .

وهكذا أظهر الوافدون احتجاجهم للعارف«بهاء الدين النقشبندي» .

وقال آخرون :

ـ «هذا ممتاز ، فنحن نحب هذا النوع من التعليم ونرغب في الاشتراك فيه» .

ومع ذلك فإن بعض الوافدين قالوا :

ـ «إننا متشوقون لمعرفة المزيد عن هذا اللغز» .

وقال الباقون لبعضهم البعض :

ـ «ربما كان هذا السلوك ينطوي على شيء من الحكمة ، ولكن هل نستفسر عن ذلك أم لا ؟» .

ثم صرفهم المعلم ، فأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ويدونون آراءهم فيما حدث ، بل إن أولئك الذين لم يشيروا إلى تجربتهم بطريقة مباشرة قد تأثروا ، وكانت كل تصرفاتهم وأحاديثهم تبين آراءهم في ذلك .

وبعد قليل ، مر بعضهم في ذلك الطريق مرة أخرى وطلبوا رؤية المعلم ، فلما وقفوا ببابه ، لاحظوا أنه يجلس في باحة بيته محاطاً بتلاميذه الذين جلسوا بأدب في تفكر عميق .

فقال أحد الزوار :

ـ «هذا أفضل ، لعله قد أخذ درساً من احتجاجنا» .

وقال آخرون :

ـ «هذا عظيم ، لا شك أنه كان يختبرنا في المرة الماضية» .

وقال بعضهم الآخر : «هذا جو قاتم جداً» .

وكانت هناك آراء وأقوال أخرى مشابهة . . .

ولما انتهى وقت التأمل ، صرف المعلم كل زواره .

وبعد فترة من الزمن عاد بعض الزوار وطلبوا منه تفسيراً لما مر بهم من تجربة .

وقفوا بباب البيت ونظروا إلى باحته فوجدوا المعلم جالساً هناك وحده ، ولم يكن في حالة كشف أو تأمل ، ولم يكن هناك مريدون .

قال المعلم : أخيراً تسمعون القصة بحذافيرها ، لقد صرفت تلاميذي بعد إنجاز مهمتي ، لقد كان التلاميذ أثناء الدرس الماضي على جانب من الوقار ، وكنت أنوي تطبيق برنامج الإصلاح ، وعندما أتيتم في المرة الثانية كانوا مرحين فقد كنت أطبق البرنامج .

إن المرء لا يفسر سلوكه للناس العاديين مهما كانوا مهتمين بذلك ، وعندما

يقوم المرء بأي عمل فإن ما يعنينا هو تأديته بشكل صحيح ، ومن ثم فإن الحكم على ظواهر الأمور ليس بذي قيمة .

طريقة من طرق التعلم

كان «بهاء الدين» جالساً مع بعض مريديه عندما حضر أتباعه إلى قاعة الاجتماع فطلب أن يخبره كل منهم عن سبب حضوره .

فقال الأول : إنك أعظم رجل على وجه الأرض .

فعلق الشاه قائلاً :

ـ «إنه يظن أنني عظيم لأنني أعطيته جرعة من الدواء عندما كان مريضاً» .

وقال آخر :

ـ «لقد بدأت حياتي الروحية عندما أتيحت لي زيارتك» .

فقال الشاه : «لقد كان هذا الشخص قلقاً غير واثق من نفسه ، ولم يكن أحد يصغي إليه ، فلما جلست معه وأنصت إليه استعاد ما سماه «حياته الروحية» .

أما الثالث فقال :

ـ «أنت تفهمني ، وكل ما أطلبه منك هو أن تأذن لي بحضور محاضراتك لتكون فيها فائدة لروحي !» .

عندئذ علق «بهاء الدين» قائلاً :

ـ «إنه يحتاج إلى من يفهمه ويهتم به حتى لو انتقده ، وهذا له فائدة روحية» .

أما الرابع فقال :

ـ «لقد تنقلت من شخص إلى آخر ، ومارست التعاليم الصوفية ، لكنني لم

أشعر بأن نفسي مشرقة لاتصالي بك ، إلا عندما طلبت مني مهمـة (واجباً) .

فقال المعلم بهاء الدين :

ـ «لقـد دبرت مهمـة للرجـل إلا أنهـا لا تنتمي لحيـاتـه «الـروحيـة» على الإطلاق ، وكان عليّ أن أتأكد من حـديثه عن النـاحية الـروحية بغية التعمق في الجانب الروحي منه لا العاطفي .

الخليفة

تـوفي «ثابت بن المنـور» المتصـوف الشهيـر تـاركـاً أهـل «بلخ» دون معلـم حقيقي ، فأرسل «بهاء الدين» رجلاً وقوراً من تركستان يدعى «السيار» ، ولـم يكن في ذلك الحين قد تجاوز الأربعين عاماً ، ليكون معلماً لأهل بلخ .

ولمـا وصل «السيـار» إلى «بلخ» وتوجه إلى الخانقـاه ، وجـد هنـاك منـدوب الخليفة محاطاً بتلامذته الذين كانوا ينظمون شؤون المجتمع ، وأدخل السيار إلى المطبخ حيث جلس ينتظر ، فلم يتعرف عليه سوى تلميـذ واحد ، لكن «السيـار» أمر هذا التلميذ أن يعتصم بالصمت ، وقال له :

ـ «أنا وأنت هنا من طبقة متواضعة» .

وبعد ذلك بشهر ، مر الشيخ الأكبر في خراسان بـالخانقـاه ، وعندمـا دخل المطبخ صاح :

ـ «إن الصديق الحقيقي في هذا المكان ! ، أما الأصدقاء الزائفون فهم في كل مكان آخر !» .

ولم يفهم أحـد معنى هذه العبـارة ، إلى أن وصلت رسالـة من الخواجكـان موجهة إلى «السيار» بوصفه الخليفة الجديد .

ومنذ ذلك الحين ، بدأ الناس يعـاملونه معـاملة كريمـة ، أما التلميـذ الذي كان قد تعرف على الخليفة وهو «عظيم زاده» ، فقد عُين بدوره رئيساً للخانقاه .

أقدم العارفين

ألقى بهاء الدين في حلم يقظة ، نظرة على ماضي الزمن ، ثم قال لجماعة من زواره من السالكين :

ـ «لقد رأيت وشاهدت في التو واللحظة أولئك العارفين القدماء الذين مضت سنوات عديدة على وفاتهم» .

فقالوا : «وكيف حال هؤلاء العارفين ؟» .

قال : «إنهم يظنون أنكم من الجان» .

ـ «أما بالنسبة لك ، فلو رأيتهم لعددتهم غير لائقين بصحبتك ، ولما سألت أسئلة تتعلق بهم» .

لماذا فعلتُ هذا

جاء أحد الرجال إلى المعلم الكبير بهاء الدين وطلب عونه في حل مشاكله وإرشاده إلى طريق العرفان .

فطلب منه بهاء الدين أن ينصرف عن الدراسات الروحية ويترك مجلسه على الفور .

واحتج عليه أحد الزوار ، وكان يتمتع بطيبة القلب ، فقال الحكيم بهاء الدين :

ـ «سأفسر لك تصرفي» .

وفي تلك اللحظة دخل عصفور إلى الغرفة وأخذ يطير هنا وهناك ، باحثاً عن مكان يخرج منه ، وانتظر الصوفي حتى استقر الطائر بالقرب من النافذة الوحيدة الموجودة في القاعة ، ثم فجأة أخذ يصفق بيديه .

وعندها أصيب الطائر بالذعر ، وطار من خلال الشباك المفتوح إلى حيث الحرية .

وعندها قال بهاء الدين :

ـ «لقد كان هذا الصوت بالنسبة للرجل كصدمة مفاجئة ، بل شتيمة ، ألا توافق على هذا ؟» .

التعليم غير المباشر

التحق أحد التلاميذ بمجلس الشاه «بهاء الدين البخاري» ، وبعد حضوره بضع جلسات ، أشار التلميذ الأكبر عند بهاء الدين إلى التلميذ كي يقترب من الشيخ ويحدثه .

فقال الرجل :

ـ «لقد أتيت من عند الشيخ رضوان ، وأملي أن تقدم لي شيئاً .

ـ «من أين أتيت ؟» .

ـ «من عند الشيخ رضوان» .

وكان بهاء الدين يطلب إلى الرجل أن يعيد ما قاله ، ويسأله مرة ثانية وثالثة ، فاقتنع الرجل بأن بهاء الدين مصاب بالصمم أو بقلة الفهم .

وبعد مرور ساعة على هذه الشاكلة قال بهاء الدين :

ـ «لا يمكنني سماعك ، فأنا لم أسمع كلمة مما قلته» .

فوقف التلميذ وانسحب من المجلس وهو يغمغم قائلاً :

ـ «سامحك الله !» .

فقال الشاه على الفور :

ـ «وأنت أيضاً ، وليسامح الله الشيخ رضوان» ، وهنا سمع الشاه ولم يعد أصماً .

هواء قصر العارفين

يُروى أن ملك بخارى أرسل ذات يوم في طلب بهاء الدين النقشبندي ليستشيره في أمر من الأمور ، فقال الرسول :

ـ «هناك سفير قادم إلى البلاد ويجب أن تحضر معي على الفور لتكون ناصحاً للملك عند مجيئه» .

فأجاب بهاء الدين :

ـ «لا أستطيع أن أذهب معك ، لأنني أصبحت معتاداً على هواء قصر العارفين ، ولا يمكنني أن أعبئه في جرار وآخذه معي .

فاحتار الملك وانتابه القلق ، وقرر معاتبة «بهاء الدين» لافتقاره إلى الكياسة رغم أنه من أعظم الحكماء .

وألغيت زيارة السفير ولم تعد هناك مباحثات بينه وبين الملك . وبعد بضعة شهور ، كان الملك جالساً في بلاطه ، فهجم عليه فجأة أحد الأشخاص يريد قتله ، وتصادف دخول بهاء الدين في هذه اللحظة بالذات إلى قاعة العرش ، فقفز على الرجل وانتزع منه سلاحه .

فقال الملك :

ـ «أنا مدين لك بحياتي أيها الشاه ، رغم قلة كياستك» .

قال بهاء الدين :

ـ «إن كياسة العارفين تظهر لدى الحاجة» .

أجوبة بهاء الدين

وصلت إلى إحدى المدن ، فرأيت الناس مزدحمين . . . ووجهوا لي أسئلة عديدة ، لكن إجابتي عليها واحدة .

قالوا : «من أين أتيت ؟» .
وقالوا : إلى أين أنت ذاهب ؟
وقالوا : مع من تسافر ؟
وقالوا : ما هو أصلك ؟
وقالوا : ما هو ميراثك ؟
وقالوا : ما هي وصيتك ؟
وقالوا : من تفهم ؟
وقالوا : من يفهمك ؟
وقالوا : ما هو مذهبك ؟
وقالوا : من لا عقيدة له !

فقلت لهم : ما يبدو في نظركم كثير هو في الحقيقة واحد ، وما يبدو لكم معقداً هو في الحقيقة سهل ، وما يبدو لكم بسيطاً هو في الحقيقة صعب .

والجواب لكم جميعاً هو «الصوفيون» .

الصوفي الذي دعا نفسه بالكلب

كان مولانا شيخ الطريقة النقشبندية والعارف الكبير ، جالساً ذات يوم في زاويته عندما اقتحم مجلسه كاتب يستشيط غضباً .

وصاح المقتحم :

ـ «أنت جالس هنا كالكلب محاطاً بتلامذتك الذين يقدمون لك فروض الطاعة والولاء !، أما أنا فأدعو الناس للرياضة الروحية كي يحصلوا على الرحمة الإلهية عن طريق الصلاة والزهد . ولما سمعه التلاميذ ينطق كلمة «كلب» تقدموا لطرده . فقال مولانا : «مكانكم ، إن كلمة «كلب» ليست سيئة ، فأنا كالكلب في طاعتي لسيدي ، وأنا أيضاً كالكلب أطارد المتطفلين واللصوص وأفرح عندما يأتي صديق لسيدي فيقترب مني ، عندها أهز ذيلي فرحاً بقدومه .

إننا نمارس ما يفعله الكلاب . . .

أفكار باقية

سئل «صديق حمزاوي» :

ـ «كيف أصبحت خليفة لحكيم سمرقند بعد أن كنت خادماً بسيطاً في قصره ؟» .

قال : «لقد علمني ما أراد لي تعلمه ، وبالفعل تعلمت .

ولقد قال لي ذات يوم : لا يمكنني أن أعلم التلاميذ جميعاً العلم نفسه ، لأنهم يريدون توجيه الأسئلة ويطلبون الاجتماعات ، ويفرضون إطاراً للعمل ولهذا فهم يعلمون أنفسهم ما يعرفونه بالفعل» .

فقلت له : ـ «علمني ما تستطيع ، وقل لي كيف أتعلم» .

وهكذا أصبحت خليفة له ، وقد اعتز الناس بالآراء التي تتعلق بالتعليم والتعلم وطريقته ، ولا يمكن أن يتوفر لديهم الأفكار مع التعلم .

حكايات نقشبندية

لكنهم يقولون : هذه القصة التي ترويها لنا قديمة .

ويقول بعضهم : إنها جديدة .

أو يقولون : ألا تقصها علينا مرة ثانية .

وربما قالوا : لا تكرر روايتها لنا .

ويقول الباقون : لكن هذه القصة مختلفة عن شكلها القديم .

أيها الدرويش هؤلاء هم الناس ، وهذا هو الإنسان .

أقوال المعلمين

الروذباري : المكاشفات للأسرار والمشاهدات للقلوب .

المغربي : أفضل الأعمال عمارة الأوقات بالموافقات .

الخرقاني : يمكن نقل الكثير بصرف الإنتباه غير المجدي بدلاً من جذبه وذلك في زمن معين .

الجرجاني : المعلم والمتعلم ، كلاهما يقدمان العلم .

الفرمذي : الطريقة الوحيدة للبحث الصحيح هي تجربة طرفي التناسب في الرياضة .

الهمداني : خدمة الإنسانية لا تساعد في إصلاح العيش فحسب ، بل يمكن أن تساعدنا في الإحتفاظ بالمعرفة الباطنية وتأملها ومن ثم نقلها .

اليساوي : النشاط المحلي هو الأساس في طريقة الصوفي .

البرقي : الجماليات أكثر الأشكال تواضعاً بالنسبة لإدراك الحق .

الأندكي : لا يكون الجهد جهداً دون زمان أو مكان أو إخوان .

الغجدواني : إننا نعمل في كل الأمكنة والأزمنة ، ويعتقد الناس أن الرجل العظيم لا بد أن يكون من المشاهير ، لكن العكس هو الصحيح .

أحمد صديق : الدلالة على وصول الإنسان ألا يخطىء في شيئين : الرمزي بدلاً من الخاص والحرفي بدلاً من الرمزي .

الفغنوي : إن علمنا ليس علم العالم ، إنه علم العالمين .

الرِوْجَري : عندما يبحث المرء عن شيء ما حيث يظن بخياله أنه سيجده فيه يكون هذا حماقة ، لأنه في الحقيقة موجود في كل مكان .

الرمتياني : يمكن أن تتجزأ المعلومات ، لكن المعرفة لا تتجزأ ، والسبب في تجزيء المعرفة هو الأسلوب المدرسي[أ] .

السماسي : يفكر الإنسان بأمور كثيرة ، فهو يعتقد أنه واحد ، لكنه في الحقيقة جملة أشخاص ، ولن تتكون لديه فكرة جيدة عن نفسه حتى يصبح واحداً .

السُخري : نرسل فكرة للصين فيقولون إنها فكرة صينية ، وعندما نرسل رجلاً إلى الهند يقولون إنه تركستاني .

النقشبندي : إذا قال الناس «إيك» فهم لا يعنون البكاء في كل الأوقات ، وإذا

(أ) الأسلوب المدرسي أو السكولاستي هو التمسك الشديد بالتعاليم والأساليب التقليدية الخاصة بمذهب أو بفرقة (المترجمة) .

قالوا «لا تبك» فلا يعني هذا أن تصبح مهرجاً على الدوام .

العطار : ربما كان في الوثيقة الأصلية سبع درجات من الحقيقة ، لكن الكتابة أو الحديث الذي ليس له مغزى ربما كان يحوي درجات كثيرة من الحقيقة .

خاموش : ليس المهم أن يتم التعليم سواء بالصمت ، باللغة بالجهد أو بالطاعة ، فالمهم هو «كيف تم ذلك» ، وليس المهم إتمام العمل .

الكشغري : إذا كنت تلح على السؤال التالي : «لماذا يتبع المعلم في تعليم تلاميذه هذا الأسلوب أو ذاك ؟ » فأنت لا تملك المقدرة على تفهم الجواب بشكل عميق .

الشرخي : إذا كان لك حق فسوف يقدم المعلم لك المساعدة في التوصل إلى هذا الحق ، ولكن إذا كان يستخدم نوعاً واحداً من الطرق فهو ليس معلماً .

السمرقندي (معلم الأحرار) : كل حيلة أو خيال تزييف للحقيقة .

اللاهي : إننا لا نعيش في الشرق أو في الغرب ، ولا ندرس في الشمال ، كما أننا لا نعلِّم في الجنوب ، لسنا ملزمين بهذا الطريق ، ولكن ربما كنا ملزمين في التحدث بهذه الطريقة .

البخاري : ربما كانت الطريقة من خلال قطرة ماء ، أو ربما كانت من خلال مجموعة من القواعد المعقدة (النظام) .

زاهد : عندما نجد أحد المتصوفين يُدَرّس أو يُعلّم شيئاً ما ينتمي إلى عالم غير العالم الروحي فيجب أن تعلم أن هناك روحانية الحياة .

درويش : يجب أن يحل الهدوء عندما يحين وقت الهدوء ، وتكون هناك رفقة عندما يحين وقت الرفقة ، ويكون الجهد في موضع الجهد ، ويكون هناك أي شيء في زمن ومكان أي شيء .

السمرقندي أميني : امض من الزمان والمكان إلى اللازمان واللامكان إلى العالم الآخر ، فهناك أصلنا .

السيماقي : إن أخذت ما هو نسبي ليصبح مطلقاً فسوف تضيع ، والأفضل الا تخاطر فلا تأخذ شيئاً .

السيرهندي : «لا تتحدث عن الأربع طرق فحسب ، أو عن الأثنين والسبعين طريقة ، أو عن الطرق العديدة التي هي متعددة كتعدد أرواح البشر» ، بل تحدث عن الطريقة والوصول فكل شيء تابع لها .

معصوم : لا تتجلى الذات إلا بالفهم .

عارف : لكنها تتمو مستقلة عنه ، وهؤلاء الناس الذين يطلق عليهم أسم الدراويش ليسوا كما تظنهم ، فكر إذن في الحقيقة فهي كما تظنها .

البدواني : إن كنت ضدنا فلن تملك أن تحطمنا ولكن يمكن أن تعقد الأمور بالنسبة لنا ، ولو كنت تظن أنك تساعدنا .

جان جانان : يستطيع الإنسان أن يشارك في الأزلية ، على أنه لا يفعل هذا بالتفكير في أنه يستطيع التفكير في ذلك .

الدهلوي : إننا نقضي فسحة في مكان ، لا نضع علامة لتمييز المكان ، وبدلاً من هذا نأخذ من الذخيرة الموجودة في المكان .

الكاندهاري : أنت تسمع كلماتي ، أسمع إذن ، هناك أيضاً كلمات أخرى غير كلماتي ، وهذه الكلمات لا تسمع بالأذن العادية ، وأنت تظن أنه لا توجد أفكار صوفيه بعيداً عني لأنك لا ترى غيري ، إنك هنا لتتعلم لا لتجمع معلومات تاريخية .

جان فيشان : ربما اتبعت نهراً واحداً ، ولكن يجب أن تتأكد من أنه يقودك إلى المحيط ، فلا تخطىء بين النهر والمحيط .

(*) هو الشيخ شمس الدين حبيب الله جان جانان ، ولد عام ١١١٣ هـ .

الكرامات والخدع

استقبل بهاء الدين الفقير «قلندر» الذي رغب في تقديم المعجزات أمامه ليثبت أنه من أعظم العارفين الصوفيين .

قال الشاه : نحن هنا في بخارى حيث لا يقوى الإيمان ولا يضعف بحوادث غير عادية كالمعجزات والكرامات ، ولكن ربما قدمت معجزاتك لمجتمع الدراويش ، ولكل من يأتي لرؤيتنا ! .

وهكذا أجل الاحتفال الذي كان سيقام في اليوم التالي لتقديم عرض قلندر بدلاً منه ، وبدأ «قلندر» في عرض كراماته واحدة إثر الأخرى طوال يوم كامل ، فأعاد الحياة لميت وسار على الماء ، وأنطق رأساً مفصولاً عن جسمه ، وما إلى ذلك من الكرامات .

وساد الإضطراب بين أهل بخاري ، وفكر بعضهم أن هذا الرجل لا بد أن يكون تلميذاً للشيطان ، ولم يرغبوا في اتباع طريقته في الحياة ، ولم يُرجعوا كراماته إلى أي قوة للخير .

أما أتباع الشاه فقد أعلن بعضهم أن «شمساً جديدة قد بزغت» ، وأخذوا يعدون العدة للتوجه إلى صومعته أياً كان مقرها .

وطلب بعض الأتباع الذين التحقوا مجدداً بالشاه أن يقدم لهم معجزات أخرى كالتي قدمها «قلندر» وليثبت مقدرته على الزعامة .

لكن بهاء الدين مكث ثلاثة أيام دون عمل ، ثم بدأ بتقديم «المعجزات» أو «الكرامات» أمام حشد كبير من الناس ، فرآه الناس وسمعوا ولمسوا أموراً كثيرة لم تخطر على بالهم مما كان يروى عن كرامات القديسين والأولياء في كل العصور ، ولم يلبث «بهاء الدين» أن بين لكل منهم حقيقة هذه المعجزات والخدع فقال لهم :

ـ «أنتم يـا من تبحثون عن الشعـوذة ، اتبعوا طـريق الشعوذة ، فللذيّ عمـل أكثر جدية» .

المسؤولية

حاول أحد اللصـوص في إحدى الليـالي أن يتسلق من نافـذة أحد البيـوت التي كـان ينوي سـرقتها ، فسقط على الأرض لأن إطـار النافـذة كـان مكسـوراً ، وأدى هذا إلى كسر ساقه ، فذهب إلى المحكمة ليشكو صاحب البيت .

فقـال لـه القـاضي : يجب أن تكـون الـدعـوى ضـد النجـار الـذي صنـع النافذة» .

فقـال النجـار : «هـذا ليس ذنبي ، لكنـه ذنب البنّـاء الـذي صنـع فتحـة النافذة» .

وعندما استدعي البناء قال :

ـ «إن السبب في حـدوث هـذا الخـطأ يعـود إلى مـرور إحـدى النسـاء الجميلات في الطريق أثناء عملي وقد لفت نظري جمالها» .

وبحثوا عن المرأة فقالت :

ـ «كنت في ذلك الحين أرتدي ثوباً جميـلاً ، لكنني في الأحوال العـادية لا ألفت نظر أحد ، إنه ذنب الثوب الذي كانت ألوانه جميلة ومتنوعة .

وقال القاضي :

ـ «أمامنا المتهم ، فلندعُ الرجل الذي حاك الثوب ونحمله مسؤوليـة الضرر الذي أصاب ساق اللص» .

ولما أحضروا الرجل تبين أنـه زوج السيدة الجميلة ، وهـو في الوقت نفسـه اللص الذي قام بالسرقة .

الزيف

توجه رجل ذات يوم إلى عارف صوفي ، وحدثه عن أحد المعلمين المزيفين الذي كان ينصح أتباعه بالرياضة الروحية فقال :

ـ «هذا الرجل مخادع فهو يطلب من تلامذته » «عدم التفكير في شيء» .

فسأله العارف : «ولماذا أتيت لرؤيتي ؟» .

ـ «أتيت لأبين سخف هذا الرجل ولأناقش موضوع التصوف أيضاً» .

ـ «ألم تأت لتؤيد زعمك بأن هذا الرجل دجال ؟ » .

ـ «كلا ، فأنا أعرف هذا» .

ـ «ألم تكن راغباً في إظهار معرفتك العظيمة التي تفوق معرفة الإنسان العادي» .

ـ «كلا ، إنما كنت راغباً في نصحك وإرشادك» .

ـ «حسناً ، إذن أنصحك بعدم التفكير في شيء ، وهذه أفضل نصيحة» .

وانسحب الرجل من المجلس على الفور بعد اقتناعه بأن المعلم كان مخاتلاً .

وكان أحد الغرباء الذي فاتته رؤية بداية هذا اللقاء ، قد انضم إلى الإجتماع في اللحظة التي كان الحكيم يقول فيها : «أفضل نصيحة هي عدم التفكير في شيء» .

فتأثر بهذا الكلام تأثراً عميقاً ، وقال لنفسه :

ـ «عدم التفكير في شيء ، يا له من خيال بعيد !» .

وانصرف بعد جلسة ذلك اليوم دون أن يسمع ما يناقض فكرة عدم التفكير في شيء .

وفي اليوم التالي ، سأل أحد التلاميذ معلمهم عن أكثر الرجال صدقاً في كلامه ، فأجاب :

ـ «ولا أحد ، لا زال أمام هؤلاء الرجال فرصة كي يتعلموا أن الطمع حجاب وحاجز ، ولا يكمن الجواب في كلمة واحدة ، أو زيارة واحدة ، أو حل واحد سهل ، لأن التلميذ لا يستوعب التعاليم الصوفية إلا بالاحتكاك المستمر بهذه التعاليم التي تتجمع شيئاً فشيئاً وتتمثل في فهم للحقيقة ، وهكذا يصبح السالك واجداً» .

فقال المعلم جلال الدين الرومي :

ـ «يأتي إليك رجلان أحدهما يحلم بالفردوس والثاني بالجحيم ، ويسألانك عنهما وعن حقيقتهما ، فما هو ردك ؟

والجواب هو أن تحضر مجالس المعلم كي تصبح في حالة انسجام تام .

الدراسات والقوافل

زار أحد الأشخاص الشيخ «روجري» ، وطلب منه قبوله كتلميذ من تلاميذه ، فسأله الشيخ عن أحواله ومشاكله ، ثم قال له : «انصرف الآن ، وسوف تتلقى الرد قريباً» .

ثم دعا الشيخ أحد تلاميذه وقال له :

ـ «اذهب إلى بيت فلان (الذي يريد أن يصبح تلميذاً) ، وعينه في وظيفة جيدة ومربحة ضمن قافلتك التجارية ، دون أن تذكر له شيئاً عني» .

وبعد فترة تلقى الشيخ رسالة من التلميذ يقول فيها :

ـ «أرجو قبول اعتذاري لعدم انتظاري الوظيفة التي قدمتها لي ، فقد حالفني الحظ أخيراً ، وحصلت على وظيفة هامة لدى تاجر من كبار التجار في

المـدينة ، ويجب أن أخصص لهـا كـل وقتي ممـا يجعلني مقصـراً في حق أسرتي» .

وكان الشيخ «روجري» دائم التنبؤ بأن الناس يقصدونه عندما يشعرون بخيبة الأمل ، وليس هذا المثل الوحيد على أعماله وسلوكه من الناحية الأخلاقية .

الرياضة

كل رجل حسن الخلق شبيه بأمثاله ، فالمريد يمكنه الإتصال بالعظماء كما يتصل بأمثاله من التلاميذ عبر الزمان والمكان ، فهناك تناغم صحيح من خلال قوة المدرسة الفكرية التي تجمع بينهم .

لقد جددنا جوهر التراث الذي خلفه القدماء ، لكن هـذا العمل لم يقم بـه كثير من الدراويش الذين يبحثون عن الفناء في الله ، ويجب أن ندعهم يمارسون ما يريدون ممارسته من رياضـة روحية ، فـلا تنهمك في جـدال معهم ، انصرف أنت إلى طريقك وأنا إلى طريقي» .

إن الواجبات والرياضات الروحيـة للمدرسـة الصوفيـة تشكل كـلاً واحداً ، فالحقيقة وآداب التعلم والمشاركين فيه يشكلون يداً واحدة ، أما الجاهل فلا يرى في هذه اليد سوى اختلاف بين الأصابع ، ولا يلتفت إلى العمل الواحد المشترك الذي تقوم به اليد نفسها .

بهاء الدين النقشبندي :

حول دياناتك

يلاحظ من خلال مطالعة الأدب الصـوفي أننا نكـرر القول بعـدم اهتمامنـا بدياناتك أو بحاجتك إليها ، فكيف نوفق بين هذا القـول وبين الحقيقة التي تقـول ان المؤمنين يعتبرون من المصطفين بين البشر ؟ .

إن رقي الإنسان هدف تصبو إليه التعاليم الباطنية لجميع العقـائد الـدينية ،

وهناك دائماً تراث تتناقله سلسلة من الأتباع الذين يختارون أشخاصاً لنقل هذه المعرفة من أهل الوصول إلى هذا الرقي .

وقد تناقل الناس من جميع الأجناس هذه التعاليم ، ولأننا نخلص لهذه التعاليم فقد جمعنا في طريق التصوف كل أولئك الذين لا يعنون بالمظاهر ، وبذلك احتفظنا بمقدرتنا على المضي في متابعة الطريق .

لكن المعتقدات الموجودة لدى اليهود والمسيحيين والزرداشتيين والهندوس والإسلاميين الحَرْفِيين تفتقر إلى هذا الشيء الثمين .

وقد أعدنا هذا المبدأ الحيوي إلى كل هذه الديانات ، وهذا هو السبب في وجود كثير من اليهود والمسيحيين وغيرهم بين أتباعي .

ويقول اليهود إننا نحن معشر المتصوفين ، اليهود الحقيقيون ، أما المسيحيون فيقولون أيضاً إننا مسيحيون .

ولن تدركوا الوضع الحقيقي للديانات الموجودة ، وللالحاد نفسه ما لم تدركوا العامل الأسمى ، أما الإلحاد في حد ذاته فهو دين له مشكلة العقائدي الخاص .

أحمد يَسوي .

صرح المتنورين
أسباب وجود المدرسة الفكرية

لقداتخذت الطريقة التي انتهجها العارفون جوهرها المستمر منذ العصور القديمة ، وهي تحتفظ بصلتها المتوازنة مع كل من المعلمين القدماء والمعاصرين على حد سواء ، وذلك بالاحتكاك المباشر بالوجود .

وقد اضطرب كثير من الماديين لوجود طرق عديدة ومبادىء متعددة نسير عليها في الطريقة .

وزاد اضطرابهم عندما وجدوا أن أتباع المدرسة الواحدة يتبعون في بعض الأحيان معلماً آخر غير معلمهم ، على الرغم من سيرهم على نهج معلمهم وأساليبه الصوفية .

وليس السبب غامضاً إن عرفتم الوصول إليه ، إذ يكمن الجواب في المثل القديم الذي يقول :

ـ «تحدث إلى كل شخص حسب فهمه» .

إن مهمة المعلم هي التعليم ، ولكي يقوم بمهمته ، يجب أن يضع موضع الاعتبار الاهتمامات الموجودة لدى تلاميذه والأفكار الثابتة التي يحتفظون بها ، ومن هنا فإنه يستخدم مصطلحات بخارية مع أهل بخارى ومصطلحات بغدادية مع أهل بغداد .

وينظم المعلم الهيكل الخارجي لوسائل التعلم كما ينظم الهيكل الخارجي لبناء المدرسة مع الاهتمام بطبيعة التلاميذ وأوصافهم في الوقت نفسه .

ولنأخذ مثلاً المجتمعات الموسيقية فنحن لا نتردد على هذه المجتمعات ولا نستخدم الموسيقى ، فضررها أكثر من فائدتها بالنسبة لزماننا ومكاننا .

والموسيقى تنمي الوعي إذا استمعنا إليها بالشكل الصحيح ، لكنها تضر بأولئك الذين لم يتهيئوا بشكل كافٍ لسماعها وعزفها .

وقد اتخذ أولئك الذين يجهلون هذه الحقيقة الموسيقى كشيء مقدس في حد ذاته ، كما أنهم يخلطون بين الشعور الذي يحسون به لدى الاندماج فيها وبين المشاعر المتسامية ، ويستخدمون الموسيقى لإثارة العواطف والأنفعالات التي تحول دون أي تقدم .

والمتصوفون يتبعون الطريقة التي تلائم طبيعتها الروحية ، ويلتزمون بالبقاء مع معلمهم حتى يكتمل تعليمهم ثم ينصرفون ، أو يُرسلون إلى معلم آخر ، ليساهموا في الرياضات الروحية الخاصة التي يقدمها لهم ، لأنه ربما كان لديهم

جانب ما للإستفادة من هذه الرياضة الروحية الخاصة .

ونحن نتبع أسس النشاط الصوفي عندما نتبع خطى العارفين ، ونمارس رياضاتنا الروحية بطريقة أو بأخرى ، وبعض الرياضات تبطل لأنها لا تلائم هذا الزمان أو ذلك المكان ، وينطبق هذا على كل المدارس الصوفية .

ولهذا السبب نجد أن بعض المعلمين يسمح لهم بتهيئة التلاميذ وفقاً لكل الطرق الصوفية ، لكنهم يعملون في هذا المجتمع وفقاً لا حتياجاته التي تستند إلى العلم الأصلي الذي تستند عليه كل الطرق الأخرى .

لقد أوجد أسلافنا مدرستنا الفكرية الصوفية ، وهم أشخاص موثوقون ، كانوا يتبعون باستمرار الأصول الروحية ، ومع ذلك فإن معرفتك تبدو ضئيلة ، وكذلك المظاهر الخارجية (التي تبعث على الرضا لما لنا من سمعة أخلاقية) ، إذا قورنت بالحقيقة الأساسية للرياضة الروحية في ميراثنا القوى .

....

القسم الرابع
من العارفين

من العارفين

لقاء مع الخِضر

الخِضر هو «المرشد اللامرئي» للمتصوفين ، ويُعتقد أنه المرشد المجهول لموسى عليه السلام في القرآن الكريم .

ونجد إشارة إلى هذا «الرجل الأخضر» بكلمة اليهودي في مناسبات عديدة ، وقد تحدثت عنه بعض الأساطير والحكايات فجعلت منه شخصية شبيهة ببعض القديسين كالقديسْ جورج وإيليا[أ] .

والرواية التالية تتميز بالأعمال الخارقة التي كانت تنسب إلى «الخِضر» سواء في الأدب الفولكلوري أو بين معلمي الدراويش .

ذات يوم بينما كنت واقفاً على ضفاف نهر «أوكسوس» ، رأيت رجلاً يقع في النهر ، فهرع رجل آخر في ثياب متصوف لمساعدته لكن المياه سحبته أيضاً ، وفجأة شاهدت رجلاً ثالثاً في ثوب من اللون الأخضر الزاهي يقذف بنفسه في النهر ، لكن شكله تغير عندما لامس سطح الماء ، ولم يعد رجلاً بل كلمة[ب] .

(أ) نبي يهودي في القرن التاسع قبل الميلاد ، أصبح فيما بعد شخصية أسطورية في الديانة اليهودية .

(ب) أصلها اللاتيني «Logos» وتعني الكلمة ، وفي مصطلح الصوفيين يطلق ابن العربي على الكلمة طائفة من الأسماء ، منها الحقيقة المحمدية و«روح الخاتم» و«القطب» ، وهي الأصل الذي يستمد منه كل علم إلهي باطني ، وهي منبع الوحي والإلهام (المترجمة) .

وتعلق الرجلان الآخران بهذا الشيء وسحباه نحو الشاطىء ، كنت أراقب ما يجري من بعيد متخفياً بين الشجيرات وأنا لا أكاد أصدق ما أرى واتجه الرجلان نحو ضفة النهر ، فوصلا وهما يلهثان من شدة التعب ، أما الشيء أو الرمز فأخذ يطفو حتى أنساق جانباً ، وبدأ الرجل ذو الحلة الخضراء يندفع نحو الشاطىء مبللاً بالماء ، ورأيت الماء يسيل منه ، ولكن لم أكد أقترب منه حتى جف الماء تماماً ، فألقيت بنفسي إلى جانبه ، وصحت قائلاً :

ـ «لا بد أنك «الخضر» (ع) سيد الأولياء ، أتمنى أن أنال بركتك» .

وكنت أخشى لمس ثوبه ، لأنه كان يبدو كنار متوهجة خضراء اللون .

فقال :

ـ «لقد رأيتَ الكثير ، فاعلم أنني أتيت من عالم آخر ، وأنني أحمي أولئك الذين يقدمون الخدمات للآخرين ، دون أن يعرفوا شيئاً عن ذلك ، وربما كنت تلميذاً من تلاميذ السيد عماد الله ، لكنك لست كامل النضج لتفهم ما نقوم بصنعة لوجه الله تعالى» .

وعندما رفعت بصري ، كان قد رحل ، وكل ما استطعت سماعه هو صوت ينبعث في الهواء .

وبعد عودتي من «خوتان» ، رأيت الرجل نفسه وكان يرقد على بساط من القش في منزل للاستراحة بالقرب من مدينة «بيشاور» ، فقلت لنفسي :

ـ «إذا كنت في المرة الماضية غير كامل النضج ، فقد أكتمل نضجي الآن» .

ولمست ثوبه الذي كان ثوباً عادياً لكنني خلت أنني أرى تحته شيئاً أخضر اللون فقلت له :

ـ «ربما كنت «الخِضْر» (ع) ، لكنني أريد أن أعرف كيف يتسنى لشخص

عادي مثلك أن تكون له كرامات ، ولماذا ؟ ، فأرجو أن تشرح لي سر مهنتك لأتمكن من ممارستها» .

فضحك وقال :

ـ «أنت متهور يا صديقي ! ، لقد كنتَ في المرة الماضية عنيداً ولا زلت كذلك ، اذهب وأخبر كل من تلقاه أنك شاهدت «الخِضْر إلياس» وسوف يضعونك في منزل المجانين ، وكلما أصررت على هذا أسرعوا بأخذك إلى هذا المنزل» .

«ثم أمسك بحجر صغير ، فأخذت أحملق فيه ، وسرعان ما ألفيت نفسي جامداً مشلول الحركة كالصخر الثابت ، وأمسك الرجل بسرجه ومضى لا يلوي على شيء ، وعندما أروي هذه القصة للناس يضحكون أو يظنون أنني أروي لهم الحكايات فيقدمون لي الهدايا» .

الحسن البصري

سئل الحسن البصري :

ـ «ما هو الإسلام ومن هم المسلمون ؟» ، أجاب :

«الإسلام يوجد في الكتب والمسلمون في المقابر» .

ماذا يعرف الإنسان حقاً

يزعم الناس أنهم يعرفون الحق ويدركون العقيدة ، وهم في الحقيقة لا يعرفون شيئاً .

الجرجاني .

سفيان الثوري

لقي رجل في الحلم أحد المتصوفين وقد كوفيء على أعماله الطيبة ، وكان هذا المتصوف يقول :

ـ «لقد كافأني الله حتى عندما فقلت بزرة فاكهة من الطريق خشية انزلاق أحد المارة بسببها» .

وعندما علم سفيان الثوري بهذا قال :

كم هو محظوظ هذا الرجل لأنه نال قصاصاً عن كل مرة قدم فيها خيراً للناس ، وكان يشعر بسعادة نفسية من أجل ذلك .

الغزالي .

الخطيئة

الخطيئة مع الله خطيئة واحدة ، أما الخطيئة مع الإنسان فأكبر بكثير .

سفيان الثوري .

. الإنسان يجب أن يكون في موضعه الصحيح

قال أويس القرني لزواره :

ـ «هل تبحثون عن الله ، ولماذا أتيتم إليّ ؟» .
وظن الزوار أنهم يقصدون الله ، فقد وهبهم حضوراً وفيضاً . . .
واستطرد أويس : فإن لم تقصدوا الله فما شأنكم بي ؟
ولم يتمكنوا من فهمه لأنهم كانوا مفكرين وعاطفيين .

أبو يزيد البسطامي

سئل أحد عبدة النار من المجوس عن السبب في عدم إسلامه ، فقال :

ـ «إن كنتم تعنون أنني يجب أن أصبح رجلاً طيباً مثل أبي يزيد فأنا أفتقر إلى الشجاعة ، وإن كنتم تعنون أنني يجب أن أكون سيئاً مثلكم فسوف أبغضكم» .

الطبقة

إن الطبقة المتدنية من المجتمع تتكون من أولئك الذين يتخمون أنفسهم في الحياة باسم الدين .

ابن المبارك .

الأسماء

تدعوني مسيحياً لتثير غضبي وتشعر أنت بالرضا ، أما الآخرون فيدعون أنفسهم بالمسيحيين ليشعروا بأحاسيس أخرى ، حسناً ، إذا كنا نتعامل بالكلمات المثيرة فسوف أسميك عابد الشيطان ، وهذا يتيح إثارة ترضيك فترة من الزمن .

زبرداشت خان .

أبو يزيد البسطامي

قال أحد الأتقياء لأبي يزيد البسطامي ، وكان تلميذاً من تلاميذه :

ـ «أعجب لمن يؤمن بالله ، لماذا لا يذهب إلى المسجد للعبادة» .

قال أبو يزيد :

ـ «وأما أنا فأعجب لمن يعرف الله إذ يمكنه أن يعبد الله دون أن يفقد صوابه فتصبح صلاته باطلة» .

الخدمة

لست أعمل خيراً لله ، أنتظر من أجله أجراً أو ثواباً .

رابعة العدوية .

لكي يصبح المرء مؤمناً

ربما كنت تبدو في نظر نفسك مؤمناً ، ولو كنت مؤمناً دون عقيدة من العقائد ، لكنك لن تعتقد في شيء حتى تدرك الطريق الذي استطعت أن تصل

بواسطته إلى ما وصلت إليه .

وقبل أن تفعل عليك التسليم بأن كل معتقداتك ربما كانت خاطئة ، وبأن ما تظنه عقيدة هو مجموعة من الآراء السابقة التي تحيط بك وتشمل الإرث الذي خّلفه أجدادك الذين تكن لهم شعوراً وجدانياً .

أما الإيمان الحقيقي فينتمي إلى عالم المعرفة الحقيقية ، وربما كان الإيمان أفكاراً مجتمعة ولن يكون إيماناً حقيقياً حتى تتكون لديك المعرفة ، إن الأفكار الملتحمة قد تفيدنا في الحياة العادية ، أما الإيمان الحقيقي فيهبنا القدرة على البحث العميق .

من كلام علي بن أبي طالب

حداد نيسابور

أبدى أبو حفص ، حداد نيسابور ، علامات تشير إلى موهبة طبيعية منذ صغره ، وقبل الشيخ «باوردي» أن يكون تلميذاً من تلاميذه .

وعاد أبو حفص إلى دكان الحدادة ليستمر في عمله ، وفيما هو جالس يفكر تفكيراً عميقاً ، سحب قطعة متوهجة بالحرارة من الدكان بيده ، ولم يشعر بالحرارة فدهش لهذا الرجل الذي كان يقوم بمساعدته في العمل ، فانهار لدى رؤيته مشهد لم يسبق له مثيل .

وقد عرف عن أبي حفص أنه لا يتكلم العربية ، فقد كان يستعين بمترجم للتحدث بالعربية أثناء زيارته للشيخ . الأكبر لمتصوفي خراسان .

لكنه أخذ يتكلم العربية بطلاقة عند ما زار كبار المتصوفين في بغداد ، وكان فريداً في صفاء لغته .

ولما سأله شيوخ بغداد عن معنى الكرم قال :

ـ «أريد أن أسمع منكم تعريفاً للكلام» .

فقال الجنيد :

- «الكرم لا يعرف بكرمك ولا علاقة لك به» .

وعلق أبو حفص فقال :

- «أحسن الشيوخ الكلام ، لكنني أشعر بأن الكرم أن يكون المرء منصفاً دون أن يطلب إليه ذلك» .

وقال الجنيد للآخرين :

- «قفوا جميعاً إجلالاً لأبي حفص فقد فاق كل بني جنسه» .

ومن أقوال أبي حفص :

- «لقد تركت العمل ثم عدت إليه ، فلما هجرني لم أعد إليه أبداً» .

الهُجويري : من كتابه «كشف المحجوب» .

الشبلي والجنيد

أبو بكر بن دلف بن جَحْدَرْ (الشبلي) وأبو القاسم الجنيد «طاووس العلماء» ، من العارفين الصوفيين ، وقد عاشا منذ ما ينوف على ثلاثمائة سنة ، وتتلمذ عليهما الكثيرون .

وفي كتاب «كشف المحجوب» للهجويري ، وهو من أشهر الكتب في التصوف حديث عن قصة تلمذة الشبلي على الجنيد ، أما الجنيد فقد تأثر بإبراهيم بن آدم أو أدهم في قصيدة لي هانت[1] Leigh Hunt ، وكان قبل بوذا ، أميراً تنازل عن عرشه ليتبع الطريقة الصوفية ، وقد توفي في القرن الثامن .

ذهب الشبلي وكان جليساً للأمراء معتداً بنفسه وبسلوكه الطريق الصوفي ،

(أ) مؤلف إنجليزي توفي عام ١٨٥٩ م ، اكتسب شهرته كشاعر بالدرجة الأولى بعد قصيدته المسماة «أبو بن أدهم» (المترجمة) .

إلى الجنيد باحثاً عن المعرفة الحقيقية فقال :

ـ سمعت أن لديك جوهرة العلم الرباني ، فإما أن تمنحني هذه الجوهرة أو تبيعها لي» . فقال له الجنيد :

ـ «لا يمكنني بيعها لك لأنك لا تملك ثمنها ، كما أنني لا أستطيع منحها لك فلن تعرف قيمتها ، الق بنفسك غير هياب في عباب هذا المحيط كما فعلتُ أنا ، كي تظفر بهذه الجوهرة» .

فسأله الشبلي :

ـ «وماذا أفعل إذن ؟ » .

قال الجنيد : «أذهب بع الناس كبريتاً» .

وفي ختام العام قال له :

ـ «لقد شهرتك هذه التجارة بين الناس فكن درويشاً ، ولا تشغل نفسك بغير السؤال» .

وفي خلال العام كان الشبلي يجوس شوارع بغداد يسأل المارة أحسانهم ، بيد أن الناس لم يأبهوا له ، ثم رجع إلى الجنيد فقال له :

ـ «أرأيت الآن ؟ ! لست في أعين الناس شيئاً فلا تشغل فكرك بهم ، ولا تقم لهم وزناً ، لقد عملت في الماضي حاكماً ، فعد إلى بلدك وأسأل جميع الذين أسأت إليهم أن يعفوا عنك» .

فأطاع الشبلي ووجد هؤلاء المظلومين جميعاً وظفر بالعفو من كل منهم إلا واحداً فشل في العثور عليه ، فقال له الجنيد :

ـ «لا يزال لديك ميل إلى الإهتمام بالنفس» ! .

وطلب منه أن يذهب ويسأل الناس عاماً آخر .

وكان الشبلي يحضر ، الأموال التي يجنيها كل يوم إلى الجنيد فيفرقها بين الفقراء ، ويدع الشبلي من غير طعام إلى صباح اليوم التالي ، فلما انقضى العام على هذه الحال قبله الجنيد مريداً من مريديه على أن يقوم بخدمة التلاميذ الآخرين فشعر الجنيد أنه أصبح كثير التواضع ، وكان من عادته أن يعبر عن الفرق بين الصوفيين وغيرهم من الناس الذين يهتمون بالحياة الدنيا فيتفوه بأقوال لا يفهمها عامة الناس .

وسخر منه ذات يوم أولئك الذين كانوا ينتقصون من قدره ، ورموه بالجنون لحديثه ذي الألغاز فقال :

أنا بالنسبة لكم مجنون

وأنتم في نظري عقلاء

فأنا أصلي ليزداد جنوني

ويزداد تعقلكم .

إن «جنوني» من قوة الحب ؛

أما تعقلكم فمن شدة غفلتكم .

غلام حيدر الكشميري

أصدر «غلام حيدر» أوامره بإحضار بعض الأشخاص ليمثُلوا أمامه بعد أن سمع نقاشاً بين مريديه عن أهمية الملاحظة الدقيقة للقانون الديني كوسيلة للتنوير .

وكان بين التلاميذ اليهودي والمسيحي والزرداشتي ، فكان يوجد الهندي والسيخي والبوذي ، كما كان بينهم الشيعي والسني ، ومنهم أيضاً التجار والعمال والمزارعون والكتبة والخبازون بالإضافة إلى نساء من جميع الأنماط .

وظل رجاله ثلاثة أعوام يجمعون هؤلاء الناس في مكان واحد وفي وقت واحد دون أن يعلموهم برغبة «غلام حيدر» في رؤيتهم ، وعندما نشر هؤلاء

(*) الجنون لقب مدح عند المتصوفة ، ويعني المشغول بحب الله .

الرجال شائعات عن وجود كنز في «كشمير» ، اكتمل اجتماع الناس ، ولما علم «غلام حيدر» بذلك أمر بإحضارهم إلى زاويته .

ولدى انتهاء الجميع من تناول الطعام ، خاطب «غلام حيدر» المجتمعين ومنهم قسم كبير من الغرباء الذين لم يعتنقوا ديانته ، وكان هناك فريق من التلاميذ الذين اكتفوا بالمراقبة عن بعد .

وتحدث غلام حيدر في مجلسه بعدة لغات مبيناً حاجة الإنسان إلى بذل الجهد بكل نفس راضية ، وإلى السيطرة على أعرافه الدينية التي حملها منذ مولده وعلى تعصبه الديني .

ورغب الجميع في اتباع حيدر ، واختفت العداوة المتبادلة بينهم ، وقد نشأ بين هؤلاء ، المعلمون الذين عرفوا باسم «أرغفة الخبز» ، وهم أولئك الذين شكل عجينتهم «غلام حيدر» الكشميري ، رغم أفكارهم ومعتقداتهم السابقة ، وقال حيدر إثر هذا الإجتماع :

ـ «العجين هو العجين ، وليست هناك عجينة أفضل من غيرها» .

لا تأكل الحجارة

كان أحد الصيادين سائراً في إحدى الغابات ، فرأى لافتة كتبت عليها عبارة «يمنع أكل الحجارة» ، فثار فضوله وتبع أثراً كان يقود إلى ما وراء العلامة حتى وصل إلى كهف أحد المتصوفين ، وكان هذا المتصوف واقفاً على بابه فقال له الصوفي :

ـ «إن سبب استغسارك هو أنك لم تشاهد إطلاقاً لافتة تمنع أكل الحجارة لعدم وجود عادة أكل الحجارة » .

«إن الإنسان لا يستطيع التغلب على وضعه الحالي المؤسف إلا إذا استطاع تجنب العادات الأخرى التي هي أكثر إيذاء من أكل الحجارة» .

لماذا لا يستطيع الكلب أن يشرب

سئل الشبلي : من قادك إلى الطريق الصوفي ؟ .

قال : كلب رأيته يوماً ظامئاً ، وكان يقف إلى جوار النهر ، فكلما هم بشرب الماء ورأى انعكاس صورته في الماء ارتد مذعوراً لأنه ظن أن هناك كلباً آخر غيره .

وأخيراً ، استجمع قواه وقفز في الماء بسبب عطشه ، وهنا اختفى «الكلب الآخر» ، فوجد الكلب أن صورته التي كانت حاجزاً أمامه قد أختفت .

وهكذا أختفى الحاجز الذي كان أمامي وعرفت نفسي ، وعرفت طريقي الذي تعلمته من تصرف الكلب .

وصف المجاهدة

دعا أحد الخبثاء ذات يوم «عثمان الحيري» لتناول الطعام ، وعندما وصل الشيخ عثمان الذي كان صوفياً ، عاد فأقصاه ، ثم ناداه مرة أخرى بعد أن ابتعد عدة خطوات .

وتكرر هذا أكثر من ثلاثين مرة والمتصوف صابر ولطيف ، فهزم الرجل وإنهار وطلب عفو «عثمان الحيري» .

فقال له عثمان : أنت لا تفهم ما أعني ، فإن ما فعلته لم يكن أكثر مما فعله أحد الكلاب المتمرنين ، إنك عندما تدعوه يأتي وعندما تقصيه يذهب ، وهذا التصرف لا يقتصر على المتصوف ، بل يمكن لأي إنسان أن يفعل ذلك .

ماذا قال الشيطان

كان أحد الدراويش مستغرقاً في تأملاته ذات يوم ، فلاحظ وجود شيطان ما بالقرب منه ، فقال الدرويش :

ـ «لماذا تقف هناك دون أن تسبب الأذى لأحد ؟»

فرفع الشيطان رأسه متعباً وقال :

ـ «ما دام هناك مفكرون ومعلمون فليس ثمة ما أقوم به» .

المشايخ الأربعة والخليفة

قرر الخليفة المنصور أن يعين واحداً من أربعة مشايخ هم ، أبو حنيفة ، سفيان الثوري ، ميسر وشريح في منصب القاضي الأكبر للدولة ، لكنهم أخذوا يضعون خطة للتهرب من الوظيفة وهم في الطريق إلى قصر الخليفة ، فقال أبو حنيفة :

ـ «سأستخدم الحيلة للهروب من هذه الوظيفة ، أما ميسّر فربما يتظاهر بالجنون ، وأما سفيان فربما لاذ بالفرار ، وما من شك في أن شريح هو الذي سيعين في منصب القاضي» .

وسارع سفيان للهرب خوفاً من العقاب بسبب عصيان أوامر الخليفة ، ودخل الشيوخ الثلاثة مجلس الخليفة المنصور الذي قال لأبي حنيفة :

ـ «سوف تكون أنت القاضي» .

فرد أبو حنيفة بقوله :

ـ «لا أستطيع يا أمير المؤمنين لأنني لست عربي الأصل ولن يقبل العرب أن أكون قاضياً» .

فقال الخليفة :

ـ «لا شأن لهذا بالأصل والعرف فنحن بحاجة إلى العلم وأنت أعظم الحكماء في عصرنا» .

لكن أبا حنيفة ألح على الرفض وقال :

ـ «إن كان كلامي صحيحاً فأنا لا يمكن أن أكون قاضياً ، وإن كان غير

صحيح فأنا لا أستحق هذا المنصب ، ولذا فلست مؤهلاً للوظيفة» .

وهكذا أثبت أبو حنيفة وجهة نظره وأُعفي من المنصب .

أما «ميسّر» المرشح الثاني للمنصب فاقترب من أمير المؤمنين وصاح بعد أن أمسك بيده :

ـ «هل أنت بخير وكيف هم صغارك ، وكيف حال ماشيتك ؟» .

فصاح الخليفة : أبعدوه ، إنه مجنون . وبقي شريحْ الذي ادعى المرض ، لكن المنصور قدم له العلاج وجعله قاضياً .

مسألة شرف

أُحضر أحد المتصوفين الذين كان هائماً في الصحراء إلى خيمة أحد زَعماء البدو ، وقال له شيخ البدو :

ـ «سوف نقتلك ، فأنت جاسوس تعمل لحساب أعدائنا» .

فقال المتصوف : ـ «أنا بريء» .

ثم سحب سيفاً وقال :

ـ «هل ترى هذا السيف ؟ ، سوف أقتل به أحد رجالك قبل أن تقتلني ، وبهذا أنقذ شرفك من أن يلطخ بدماء أحد المتصوفين» .

الفضيل قاطع الطريق وابنه

كان الفُضيل[1] بن عياض ابن أحد قطاع الطرق ، وبعد تحوله إلى الحياة الدينية ، شعر بأنه كان يعبد الله بالطريقة الصحيحة ، فأخذ يكفر عن الجرائم التي اقترفها من قبل بالبحث عن ضحاياه وتعويضهم عن خسارتهم .

---

(١) الفضيل بن عياض ، إمام زاهد ، ولد في سمرقند ومات بمكة ، كان في بادىء الأمر قاطعاً للطريق ثم تاب وهام على وجهه وأصبح من كبار المتصوفين .

ولكن حدثت له في أحد الأيام حادثة غريبة ، فقد أجلس ابنه على ركبتيه وقبله ، فسأله الطفل :

ـ «هل تحبني يا أبي ؟» .

قال الفضيل : «نعم أحبك» .

ـ «ولكن ألا تحب الله أيضاً ؟» .

قال الأب : «أجل» .

ـ «ولكن كيف لك أن تحب اثنين بقلب واحد ؟

ومنذ ذلك الحين بدأ الفضيل يشعر بأن ما كان في نظره حباً هو في الحقيقة شعور عاطفي ، وأنه لا بد من وجود شكل سامٍ من أشكال الحب» .

وكانت هذه الحادثة هي الأصل في قوله المأثور :

ـ «إن أرقى وأنبل بني البشر في نظرنا ، هو في الحقيقة أدنى الطبقات العالية من الجنس البشري» .

مشاكل الكرم

ذهب احد التلاميذ ليقدم الولاء والأحترام لأحد المتصوفين ، فسأله سؤالاً نابعاً من فضوله :

ـ «لماذا يقف في فناء بيتك ثلاثون بغلاً ؟» .

فقال المتصوف على الفور :

ـ «إنهم هناك من أجلك ؟ » .

فسر التلميذ لدى سماعه هذا الكلام وقال :

ـ «سوف أدفع لك ثمنها بالطبع» .

قال العارف :

ـ «وربما كان ثمنها أكبر من أن تتحمله وحدك ، وأطلب إليك ألا تبلغ أحداً بأنني أعطيتك البغال ، لأنني لا أريد أن يعرف الناس ما أنا عليه من الكرم ، ففي اعتقاد الناس أن الأعمال الحسنة هي التي لا نلمس نتائجها» .

قال التلميذ :

ـ «ليس هناك أبخس من الثمن الذي تطلبه ، وقاد البغال بسرور وهو يحدث نفسه قائلاً :

ـ «لقد استفدت من معلمي ، وهذا هو أول مظهر من مظاهر النعمة الداخلية» .

وسرعان ما حل الظلام ، ووقع التلميذ بين أيدي عسس الليل ، فقالوا لبعضهم :

ـ «لنتهم هذا الرجل بهذه التهمة أو تلك . . . ، فمثلاً ندعي أنه أشترى البغال بمال مسروق ، إلا إذا اعترف بكيفية حصوله على المال» .

وربما كان له بعض الأخطاء بسبب تربيته السيئة ، كما أن ملابسه رثة ، وقد تعرف عليه بعضنا ، ويبدو أن له شركاء مريبين .

ولما مثل التلميذ أمام المحكمة رفض بادىء الأمر أن يجيب على أي سؤال حول كيفية حصوله على البغال ، فأمر الحاكم بجلده .

وأرسل المعلم فريقاً آخر من التلاميذ لينقلوا إليه أخبار الرجل ، فأفادوه بأن الرجل يرفض الكلام وبأنه أصبح واهناً من كثرة التعذيب .

فأسرع المعلم الصوفي إلى المحكمة فلما سمعت شهادته وعُرف أنه الشخص الذي أعطى البغال للرجل ، أُطلق سراح السجين .

وبعد ذلك تحدث المعلم إلى هيئة المحكمة وتلاميذه والجمهور الذين

ذهلوا جميعاً لهذا الحادث قائلاً :

ـ«إن صفة الكرم تجلب لصاحبها الأذى ، فربما أفسدت الرجل الذي يتمتع بهذه الصفة ، كما أنها تسبب الأذى للشخص الذي يحاول تقليدها ، وربما سببت أيضاً شعور الشخص الذي ناله الكرم بشيء من الحساسية تجاه هذا الكرم ، خاصة إذا كان على معرفة بالشخص الذي أكرمه» .

إذن لا ينبغي أن يكون هذا الكرم متبوعاً بالفضل ، ولهذا فإن الصوفيين يحاولون القيام بالمكرمات خِفْيَة» .

ـ «إن أرفع درجات الكرم بالنسبة للرجل العادي تتساوى مع أدنى درجات الكرم الحقيقي ، لقد كان الكرم أصلاً وسيلة للتعبير عن السخاء ، لكنه أصبح وهماً ولعنة لصاحبه» .

حظ الإنسان

أعلن «المهدي العباسي» أن الإنسان ربما أحبط جهود أولئك الذين يقدمون له المساعدة ، ولما اعترض بعضهم على هذا الرأي وعدهم بأن يقدم لهم الدليل الكافي على صحة قوله .

وبعد مرور فترة نسي الناس ذلك القول ، طلب المهدي من أحد رجاله أن يضع حقيبة من الذهب في وسط أحد الجسور ، وطلب إلى رجل آخر أن يحضر أحد الأشخاص المديونين إلى أحد طرفي الجسر ويطلب إليه عبور هذا الجسر .

ووقف «المهدي العباسي» والشهود على الجانب الآخر من الجسر ، وعندما وصل الرجل إلى الجانب الآخر للجسر سأله العباسي :

ـ «ماذا وجدت في وسط الجسر ؟ » .

قال الرجل : «لا شيء» .

ـ «وكيف ذلك» ؟ .

ـ «لقد خطرت لي فكرة مسلية عندما بدأت في عبور الجسر وهي أن أعبره وأنا مغمض العينين ، وهكذا فعلت» .

الزهرة والحجر

عندما عُرض المعلم الأكبر الشهيد «منصور الحلاج» على الجماهير مداناً بتهمة الإرتداد عن الدين والهرطقة ، لم يظهر أي حركة تدل على شعوره بالألم وذلك عندما بترت يداه أمام الناس ، كما أنه لم يبد أي علامة تشير إلى تألمه عندما ألقي الناس عليه الحجارة التي سببت له جروحاً بالغة .

وتقدم منه أحد أصدقائه الصوفيين فرمى عليه زهرة ، وهنا صرخ الحلاج متألماً ، لقد فعل هذا ليبين أن الأذى الذي يسببه له أولئك الذين يعتقدون أنهم على حق ، لا يصيبه ، لكن اللمسة البسيطة من شخص يعرف تماماً أنه مظلوم ، تؤثر فيه أكثر من أي عذاب .

ولقد بقي المنصور وسواه من الصوفيين خالدين على مدى الأيام ، رغم عجزهم عن مواجهة ذلك الطغيان ، أما أولئك الذين عذبوهم فقد نسيهم الناس .

ولما أشرف المنصور على الموت قال :

ـ «يحاول الناس تقديم أعمال الخير ، ونصيحتي لكم أن تبحثوا عن شيء أصغر جزء منه أعظم من كل الخير المتوفر لديكم ، هذا الشيء هو «المعرفة» للحقيقة أو العلم الحقيقي» .

أحمد بن حنبل والعقل المتكيف

أحمد بن حنبل هو مؤسس أكبر مدارس الفقه الإسلامي ، وقد كان رفيقاً لكثير من الصوفيين العارفين .

وقد حاول بعض الهراطقة ذوي النفوذ في بغداد تجريده من زعامته لأنه كان يصحح آراءهم .

لكن الإمام أحمد بن حنبل رفض ، فجلد ألف جلدة وعذب ، وقبل أن يموت بسبب المعاملة السيئة سئل عن رأيه في أولئك الذين حكموا عليه بالإعدام فقال :

ـ «لا أملك سوى القول بأنهم جلدوني لاعتقادهم بأنني أنا المخطىء وبأنهم على حق ، فكيف أطلب العدالة من أولئك الذين يعتقدون أنهم على حق ؟ » .

الإنسان يؤمن بما يظن أنه حقيقي

ركب الشيخ «أبو طاهر الحرمي» حماره ، وذهب إلى السوق كعادته ، فتبعه أحد التلاميذ ، ولما رآه أحد الرجال صاح :

ـ «انظروا ها قد جاء الكافر العتيد ! » .

فغضب تلميذ من تلاميذ الحرمي وصاح في الرجل ، ولم يمض قليل حتى نشبت بينهما مشادة كلامية ، لكن الشيخ الصوفي هدأ من غضب مريده بأن قال :

ـ «إذا أوقفت هذا الشغب ، أدلك على طريقة تتجنب بها هذه المتاعب» .

وذهبا معاً إلى بيت الشيخ ، فطلب الشيخ من مريده أن يحضر له صندوق رسائله ، ثم قال :

ـ «انظر إلى هذه الرسائل ، إنها رسائل خاصة بي ، ولكن كل صاحب رسالة يدعوني بلقب مختلف ، فواحد يدعوني «شيخ الإسلام» وآخر يسميني «المعلم الجليل» ، وثالث يقول «عاقل الحرمين» وغير ذلك من الألقاب .

لاحظوا أن كل شخص يعطيني لقباً مناسباً لنظرته لي ، وهكذا فعل ذلك الشخص ذو الحظ السيىء ، ومع هذا فإن ما فعله الرجل في نظرك شيء غير عادي فلماذا ؟ طالما أن هذه هي القاعدة العامة في الحياة ؟ .

أي الطرق أصلح ؟

عُرف عن أحد الحكماء ميله إلى الآراء الغير حكيمة ، سواء بالنسبة للحقائق أو البراهين ، وقررت السلطة في المدينة اختباره لتتمكن من الحكم على مدى خطورته على النظام العام .

وفي يوم الاختبار امتطى الحكيم حماره مواجهاً خلفية الحمار ، وأخذ يستعرض الجند ، وعندما حان الوقت للكلام قال القضاة :

ـ «ماذا كنت أواجه عندما نظرتم إليّ الآن ؟ » .

قال القضاة : لقد كنت تواجه الطريق الخاطىء .

فأجاب : «أنتم بهذا تعبرون عن وجهة نظري ، لأنني كنت أواجه الطريق الصحيح من وجهة نظر بعض الناس ، أما الحمار فقد كان يواجه الطريق الخطأ» .

العارف

رُوي أن أحد العارفين من المتصوفة أراد أن يلتحق بأحد معلمي الصوفية عندما كان شاباً ، فطلب من المعلم أن يقبله بين تلاميذه .

فقال المعلم :

ـ «لم تستعد بعد لتكون تلميذاً» .

ولما ألح الشاب قال المعلم :

ـ «حسناً ، سوف أقدم لك شيئاً من العلم وآخذك معي إلى مكة المكرمة للحج ، ففرح التلميذ فرحاً عظيماً .

وقال المعلم : ما دمنا سنسافر كرفقاء ، فإن على أي منا تولي القيادة ، أما الآخر فيكون طائعاً له ، فماذا تختار ؟ » .

قال التلميذ : «سأكون أنا التابع وأنت القائد» .

واستهلا رحلتهما ، وفي إحدى الليالي ، كانا يستريحان في صحراء الحجاز عندما بدأ المطر ينهمل ، فنهض العارف وأمسك بغطاء ليقي التلميذ من المطر .

فقال التلميذ : «ولكن هذا ما يجب أن أفعله أنا» .

قال الحكيم : «آمرك أن تسمح لي بحمايتك» .

وعندما طلع الفجر قال الشاب :

ـ «الآن بدأ يوم آخر ، سأقوم بدور القائد وأنت تقوم بدور التابع» ، فوافق العارف» .

قال الشاب :

ـ «سأقوم الآن بجمع الأغصان المقطوعة لأوقد النار» .

قال الحكيم : «لا ، سوف أقوم أنا بهذه المهمة» .

فقال الشاب : «آمرك بالجلوس هناك ، ريثما أتم جمع الأغصان ! » .

فقال المعلم :

ـ «كلا ، لن تقوم بهذا العمل لأنه لا يتفق مع متطلبات التلميذة ، فالتابع لا يسمح لنفسه بأن يخدمه القائد» .

وهكذا أخذ العارف يوضح لتلميذه بين الحين والآخر معنى التلمذة ، وتفرقا عند بوابة المدينة المقدسة ، ولما التقى الشاب بالحكيم فيما بعد ، لم يتمكن من مواجهة نظراته ، فقال الشيخ :

ـ «إن ما تعلمته هو شيء من طبيعة المريدين» .

إن المريد يجب أن يعرف كيف يطيع ، ولا يكتفي بأنه يجب أن يطيع ،

أما السؤال عما إذا كان سيصبح مريداً أم لا فيأتي بعد معرفة التلميذ معنى التلمذة ، والناس يتساءلون باستمرار عن إمكانية انضمامهم كتلاميذ ، ولكن يبدو هذا التساؤل غير صحيح (فبإمكانهم أن يصبحوا تلاميذاً إن رغبوا في ذلك) ، فلا بد أنهم يعيشون في عالم زائف ، عالم غير عقلاني ، ومثل هؤلاء لم يتعلموا من الدرس الأول .

هلال السمرقندي

توجه «هلال» مع خمسة من المريدين في رحلة طويلة عبر آسيا الوسطى ، وكان هلال يوجه زملاءه في سلوكهم وتصرفهم بوسائل عديدة ، وفيما يلي نروي شيئاً عن مغامراتهم :

عندما وصل المريدون مع العارف إلى «بلخ» ، وصل وفد يضم شخصيات بارزة للقاء العارف .

وقال «هلال» لأحد التلاميذ ويدعى «يوسف لانج» :

ـ «لتكن أنت العارف» .

فاستقبل الوفد يوسف وكرمه ، وانتشرت الأخبار عن الكرامات التي قدمها عندما كان يزور أحد المرضى .

فقال هلال : «هذا ما يظنه الناس في المتصوفين ، لكننا نعرف أنهم ليسوا كذلك ودخل الرفاق مدينة «سرخب» في ألبسه متشابهة ، وساروا معاً ، فسألهم رئيس المدينة :

ـ «من هو العارف الأكبر ؟ » .

قال هلال : «أنا» .

وأخذ الناس يهتفون :

ـ «لقد عرفنا ذلك من النور المنبعث من عينيه» .

فقال هلالي لرفاقه :

ـ «ليكن في هذا عظة لكم» .

وعندما دخل الرفاق مدينة «قواندهار» ، دعاهم رئيسها إلى وليمة ، فجلسوا كأنهم في إحدى حلقاتهم ، وأمر هلال أن يعتبره الرفاق أقل التلاميذ شأناً ، وأن يعاملوا «جعفر أخو ندزادة» على أنه العارف .

لكن الرئيس قال :

ـ «إن من هو أقل التلاميذ شأناً يشع منه في الحقيقة نور داخلي ، ومهما كان رأيكم فيه فهو في رأيي قطب زماننا» .

وأعجب الجميع بهلال الذي اضطر إلى الإقرار بما يتمتع به حاكم المدينة من قدرة خاصة في تمييز أو إدراك ما لا يدركه الآخرون .

لعنة البدوي

تقدم أحد رجال البدو في واحات الكوفة من الحسن حفيد الرسول محمد (ص) ، وأخذ يشتمه ويشتم أباه وأمه فقال الحسن :

ـ «أيها البدوي ، هل أنت في عِوَزٍ ؟ وما هي مشكلتك ؟» .

لكن البدوي أسترسل في شتائمه دون أن يلتفت إلى ما قاله الحسن ، فأمر الحسن أعوانه أن يمنحوا البدوي بعض المال ، ثم قال له :

ـ «أرجو منك المعذرة ! ، أيها البدوي ؛ فهذا كل ما لدينا ، ولو كان عندنا غيره لما ترددنا في منحه لك» .

ولما سمع الرجل هذا الكلام غلب على أمره وقال :

ـ «إنك حقاً حفيد الرسول (ص) ، وقد جئت إلى هذا المكان لأختبر نسبك وطبيعتك ، وللتأكد من منا سبتهما لبعضهما بعض» .

لماذا كان الدرويش في البلاط

من أقوال الشيخ الجليل «ابن الخفيف الشيرازي» :

ـ «يجب على الصوفي ألا يزور الحاكم أو يقوم بتحية الحاكم إذا أتى لزيارته» .

وبعد فترة توجه اثنان من مريديه لزيارته ، فعجبا عندما قيل لهما أنه كان في بلاط الملك ، وتغيرت نظرتهما إلى صدقه وطهارته ، وقررا القيام بجولة في المدينة بدلاً من تقديم احترامهما له .

ولما اشتبكا في إحدى المشاحنات ، عندما زارا أحد الحوانيت واتهما بالسرقة ، ساقهما الجنود ليمثلا أمام الملك لمحاكمتهما ، فأمر الملك بقتلهما على الفور ليكونا عظة للناس بعد أن اقتنع بجرمهما ، فتدخل «ابن الخفيف» الذي كان لا يزال في بلاط الملك وأنقذ حياة الرجلين ، عندئذ قال لهما الحكيم :

ـ «من الطبيعي أن تفكرا في أنه لا يجب عليَّ أن أتواجد في بلاط الملك ، لكنكما تعلمان أن الصوفي يمكنه القيام بأشياء غير متوقعة لأسباب مجهولة ولكن معقولة .

إلزامية التعليم

سئل «بشر بن الحارث» عن سبب عدم قيامه بالتعليم فقال :

ـ «لقد توقفت عن التعليم لأنني وجدت في نفسي رغبة ملحة فيه ، وعندما تزول هذه الرغبة الملحة أقوم بالتعليم بملء إرادتي الحرة .

وقتٌ للتعلم

كان حكيم «أسكالون» Ascalon لا يتحدث إلى تلاميذه إلا فيما ندر ، لكنهم كانوا معجبين بأفكاره ، فسألوه :

ـ «هل يمكنتا أن نأخذ الدروس في وقت يلائمنا ؟، إن لدى بعضنا واجبات تجاه أسرهم ونريد أن نحضر دروسك» .

فقال : عليكم البحث عن شخص آخر للقيام بهذه المهمة ، لأنني لا أقوم بالتدريس عندما يتواجد الحضور في وقت محدد ، وهؤلاء هم الذين يحسون برغبة ملحة في التعليم ، ومن ثَمَّ فهم وحدهم يستطيعون التكيف مع جمهور السامعين .

إذا طَلبتُ ورفضوا . . .

سئل أحد الدراويش :

ـ «لماذا لا تطلب صدقة من الناس فتجلب لنفسك طعاماً ؟» قال : إذا طلبتُ منهم ذلك ورفضوا فهناك خوف عليهم أن يعانوا من جراء ذلك ، فقد قال الرسول (ص) :

«بادروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها» . . . . . .

ماذا تظن بي

أتى مريد إلى «معروف الكرخي» وقال له :

ـ «لقد كنت أتحدث إلى الناس عنك ، فاليهود يدعون أنك يهودي ، والمسيحيون يحترمونك كأحد قديسيهم ، أما المسلمون فيقرون بأنك أعظم مسلم» .

أجاب معروف :

ـ «هذا ما يقوله الناس في بغداد ، فعندما كنت في القدس قال اليهود إنني مسيحي ، أما المسلمون فقالوا إنني يهودي ، وقال المسيحيون إنني مسلم» .

فقال المريد :

ـ «فماذا إذن نقول عنك ؟» .

ـ «أولئك الذين لا يفهمونني يجعلون مني قديساً ، وبعضهم الآخر لا يحترمني فيشتمني ، وهذا ما أردت قوله فيجب أن تكون فكرتكم عني على هذا الأساس .

عبادة الولي

سأل أحد الأشخاص شيخاً من المتصوفين فقال :

ـ «هل هناك قيمة لعبادة الولي ؟» .

فقال على الفور : «هذا غير مشروع ومحرم في الدين الإسلامي» .

فانصرف الزائر وهو يشعر بالرضا لهذا الجواب .

وقال أحد المريدين الذي كان حاضراً :

ـ «لكن إجابتك لا تغطي مضمون السؤال» .

فقال له الشيخ :

ـ لقد كان السؤال عن الشريعة ، ويظهر من السؤال أن السائل يريد التأكد من معلوماته في هذا الصدد ، وقد بحث عن هذا التأكيد عندي بعد أن سمع أنني حجة موثوقة .

ومع ذلك فهناك علاقة أخرى تربطنا بالأولياء غير العبادة ، فزيارة مقابرهم تعد فضيلة ، ولهذه الفضيلة قيمة لمن يفهمها ، ولم يكن هذا الرجل من هؤلاء المتفهمين ، لذا فالوجه الآخر للسؤال غير مهم .

وقد استفسر أحدهم في الشهر الماضي عن علاج الأمراض بزيارة أضرحة الأولياء والتأمل عندها ، وسألوا هل هذا العلاج يعود إلى إيحاء نفسي أم إلى الولي نفسه .

فوافقته في قوله ، فلم يكن لديه قدرة على تفهم أمور أكثر عمقاً أو بمعنى

آخر ربما كان هذا صحيحاً إلى حد ما في بعض الأحيان وصحيح تماماً في أحيان أخرى . . . وهكذا . .

ـ «فالمكفوفون يمتازون بقدرتهم في رؤية بعض الأشياء ، والأولياء بشر ، وزيارة قبور الأولياء يرتبط لدى بعضهم بعبادة الأولياء ، إن عبادة الأولياء جهل ، ومن ثم فليس هناك جدوى من «عبادة الأولياء» .

قد يزور بعضهم مقام أحد الأولياء ، لكن قليلاً منهم يدرك سبب زيارة هذا المكان بالذات ، وما هي طبيعة الفضيلة التي تنبع من هذه الزيارة ، ومن الأمور العادية أن يتخيل جميع الحجاج أنهم «أتقياء» فهم يمارسون التجربة نفسها ، لكنهم ليسوا كذلك .

فهل حاولت يوماً أن تبين لشخص ما خطأه وضيق أفقه ؟، ربما أنصت إليك ، ولكن نظراً لاعتزازه بنفسه فسيعترض على ما تعنيه ، إن لم يرفض ما تقوله رفضاً باتاً» .

«محمد شاه» مرشد تركستان

كان «محمد شاه» مرشد تركستان معلماً في القرن التاسع عشر وكان يأخذ أمثلته من عصارة الحياة وتصرفات الناس العادية ، وفيما يلي نموذج من أسلوبه .

أخذ «محمد شاه» جماعة من أفراد حلقته ليشاهدوا بعض المشاهد ومنها مئذنة طويلة بالقرب من أحد الأنهار ، فقال لهم :

ـ «هذه المئذنة بناها أولئك الذين يثابرون على العمل» . ثم أخذهم ليشاهدوا مجموعة من الحجاج البراهمة الذي كانوا يتجهون إلى نهر «جومنا» المقدس .

وقال : «هؤلاء هم المثابرون» .

وبعد بضعة شهور أمرهم بملاحظة بعض القضاة أثناء بحثهم في القضايا التي تعرض عليهم ليلاحظوا المجهود الذي يقوم به القاضي ، وأثر الشاهد وأقوال المدعين وجهود المتهمين .

ثم قال :

ـ «تشاهدون في كل هذه الأحوال رجالاً ونساءً مثابرون» ، وما يهمنا هو نتيجة هذه المثابرة ، فهي التي يحصدها الناس ويستفيدون منها ، ولكن إذا لم

يتم إرشادهم إلى الطريق الصحيح لا يجنون الفوائد من متابعة المثابرة ، ويصبحون كمن يواظب على المثابرة بشيء قد تدرب عليه .

لماذا يتخفى الدرويش

سئل «جلال الدين الرومي» السؤال التالي ، وكان السائل ابنه :

ـ «كيف ولماذا يختبيء الدرويش ؟ وهل يتنكر بمظهر آخر غير مظهره الحقيقي ، أم أنه يخفي شيئاً ما في نفسه ؟.

قال العارف :

ـ «يمكن للمرء أن يفعل هذا بعدة طرق ، فمثلاً يمكنه كتابة قصائد الحب فيظن الناس أنها قصائد حب عادية ، وربما أخفى الدرويش وضعه الحقيقي في الطريقة باتخاذ تسمية ما ، فمن الدراويش الكتّاب ومنهم التجار مثل «بابا فريد» ، ومنهم من يمارس نشاطات أخرى كثيرة .

ـ «ربما كان هذا بسبب التفكير السطحي لدى بعض الناس ، وربما كان أحد الدراويش متعمداً التصرف بطريقة قد لا تروق للجميع» .

وقال الرسول (ص) « اخفى الله كبار العارفين » .

وهي وسيلة يمكن أن يتخذها أولئك الذين يتبعون الطريقة ليشعروا بالطمأنينة.

ثم تلى العارف هذه الكلمات من شعره :

عارفون أبداً ، وهم متخفيون سالكون .
وللرجل العادي يظهرون ، وعلى هيئة أخرى يبدون ؛
ويتجولون في نور داخلي ، وبالمعجزات يمرون ،
ومع هذا فهم لأي من الناس حقاً ، لا يُعرفون .

من كتاب مناقب العارفين .

صلوات للميت

رأى «سفيان الثوري» جنازة لأحد الأشخاص فتبعها وأخذ يصلي مع الناس عند المقبرة ، وبعد الصلاة أخذ الناس يتحدثون عن الميت ومناقبه ، فقال سفيان :

ـ «ليتني لم أصل من أجل هذا الرجل ، فالناس يتحدثون عنه حديثاً حسناً ، وهذا يعني أنه كان منافقاً سواء عرف هذا عن نفسه أم لا ، لأن الإنسان يكون مذموماً من بعض الناس إن لم يكن منافقاً .

«الثوري» في تأمله

ذهب «الشبلي» لزيارة «الثوري» ، وكان هذا العارف يجلس هادئاً دون أن تهتز فيه شعرة ، فسأله الشبلي :

ـ «ممن تعلمت هذا الهدوء ؟» .

فرد «الثوري» : من القطط، فقد شاهدت قطاً يرقب ثقباً صنعه أحد الفئران بتأمل عظيم يفوق تأملي هذا» .

هياج غريب

خرج «سهل عبد الله» من إحدى الاجتماعات الدينية ذات مرة وقد أصيب بحالة من الهياج الشديد .

فقال «ابن سالم» صف لنا هذه الحالة» .

قال «سهل» : «لم تكن هذه الحالة كما تظن بسبب قوة تنبعث في جسدي ، بل إنها على العكس من ذلك تعود إلى ضعفي» .

فعلق بعض الحاضرين قائلاً :

ـ «إذا كان هذا ضعف ، فما هي إذن القوة ؟

قال سهل :

ـ «القوة هي ألا يظهر على العقل أو الجسم أي شيء على الإطلاق عندما يحصل شيء كهذا» .

الحمار

كان «سهل» في إحدى رحلاته مع «إبراهيم بن أدهم» فسقط على الأرض من شدة المرض ، وقال الناس إن إبراهيم باع كل ما يملك لينفق على علاج الرجل المريض ، وطلب «سهل» ذات يوم طعاماً شهياً فباع إبراهيم حماره ليجلب له طعاماً .

وعندما تماثل «سهل» للشفاء سأل عن الحمار ليركبه فقال إبراهيم : أنا هو ، اركب على كتفيّ ، وحمله على ظهره بقية الرحلة .

ابن سالم

تجمع حشد من الناس أمام بيت «ابن سالم» وطلبوا منه التحدث إليهم فقالوا :

ـ «إن تلاميذك هنا» .

قال : هؤلاء ليسوا تلاميذي ، بل إنهم تلاميذ أولئك الذين يحضرون مجلسي ، أما تلاميذي فهم قلة .

مسؤولية المعلم

عين الحاج «بكتاش» «نور الدين شقمق» خليفة له في بقعة من أقصى الشمال ، وكان للشيخ «شقمق» في ذلك الحين كثير من التلاميذ لأنه كان درويشاً اجتذب من خلال قراءاته للعارفين من المتصوفين القدماء حلقات عديدة من التلاميذ ، وكانت له أيضاً صلة حميمة ببعض المعلمين الصوفيين .

وتلقى نور الدين تعاليمه الصوفية من «الحاج بكتاش» ، لكنها كانت

تتعارض بشدة مع العادات والأفكار التقليدية التي اعتاد عليها تلاميذه .

وحاول شقمق التهرب من المسؤولية بتسليم جماعته للحاج بكتاش ، لكن الحاج رفض وقال لشقمق :

ـ «لن تتمكن أنت نفسك من الانتقال إلا إذا كنت كالجسر بيني وبين قومك» .

وخشي «شقمق» أن تقوض هذه التعاليم الجديدة سلطته .

فقال «الحاج بكتاش» :

ـ «إذا كنت ستقدم تعاليمك من خلال سلطتك فلن تتمكن من تقديم أية تعاليم» .

وذهب بعض تلاميذ «شقمق» ليشكوا أمر معلمهم إلى «الحاج بكتاش» ، فقد وجدوا أن تصرفاته أصبحت غريبة ، وقالوا :

ـ «لم نعد قادرين على تقبل الملاحظات الاعتيادية .

فقال الحاج :

ـ «هذا ما أريده» .

وخشي تلاميذ آخرون من أن يؤثر الحاج على شقمق ، فيؤدي هذا إلى تأثيره عليهم ، ونقلوا هذا للحاج فقال :

ـ «إنهم يرون أن ما حدث لشقمق شيء حسن ، غير أنهم يعتقدون أنه سيء ، إنه انفعال لا بد أن يظهر .

ومضت أربع سنوات قبل أن يدرك تلاميذ «شقمق» أن «الحاج بكتاش» كانت لديه أمور أخرى غير «الإمساك بالجياد الضعيفة» .

قال بكتاش :

ـ «لقد كان غروركم هو الذي جعلكم تتخيلون أنكم من ذوي الشأن ولا يمكن لأي كان أن يستعبدكم» .

الجوهرة

توجه شاب إلى «ذي النون» ، وقال له بأن الصوفيين على خطأ وتحدث إليه في أمور أخرى كثيرة ، فنزع «ذو النون المصري» خاتماً من إصبعه وناوله للرجل قائلاً :

ـ «خذ هذا الخاتم إلى السوق وبعه لتحصل على قطعة نقود ذهبية» . وبعد عرضه في السوق لم يقدم أحد ثمناً للخاتم يتجاوز قطعة فضية واحدة .

فعاد الرجل بالخاتم ، فقال « ذو النون» :

ـ الآن خذ هذا الخاتم لصائغ حقيقي واسأله ماذا يدفع ثمنه» . فقدم الصائغ للرجل ألف قطعة نقود ذهبية ثمناً للخاتم .

فذهل الشاب ، وقال ذو النون :

ـ «إن معرفتك بالصوفيين تماثل معرفة الصياغ بالمجوهرات ، فإذا كنت راغباً في تقييم إحدى الجواهر عليك أن تصبح صائغاً» .

من يستمع إلى شيء منكر يعد شريكاً لكل متحدث عن المنكر .

الشافعي .

أبو يزيد البسطامي

صادف أبو يزيد أحد الكلاب ، فأخذ يشد ثوبه بعيداً حتى لا يلطخه الكلب ، فقال الكلب بصوت آدمي :

ـ «لو كنتَ مبللاً فما من سبب يدعوك لتجنبي ، ولو كنتُ مبللاً فباستطاعتك غسل ثوبك ، أما الكراهية التي تشعر بها نحوي فلا سبيل لإزالتها .

فقال أبو يزيد :

ـ «تعالَ ، أيها الكلب الذكي ، وابق معي فترة من الزمن .

فأجاب الكلب : هذا محال ، لأن الناس يستخدمونني كشتيمة ينعتون بها شخصاً ما ، في حين أن الناس ينظرون إليك كأنموذج للكمال» .

فصاح أبو يزيد :

ـ «وا أسفاه ! إن كنت لا أستحق العيش مع من يعتبره الناس أدنى المخلوقات ، فكيف أدنو من الحق الذي ينظر إليه الكل كأعلى شيء ؟

عندما سئل با يزيد البسطامي : كيف يكون الصوفي ؟ قال :

ـ «الصوفي هو الذي يستغني عن الراحة ويبذل المجهود وهذه هي الرياضة الروحية للصوفي» .

المعبود

أخبر أحدهم «أويساً القرني» أن هناك درويشاً يجلس على أحد المقابر لابساً رداء الكفن وينتحب ، فقال :

ـ «قولوا له إن الطريقة أصبحت معبوداً ؛ وعليه أن يسمو في مجاهدته ليتخطى هذه العقبة» .

المال

قدم رجل لأويس القرني مبلغاً من المال فقال :

ـ «لست بحاجة إلى مالك فلدي قطعة من المال» .

فقال الرجل :

ـ «ولكن كم سيدوم هذا المال ؟ إنه لا شيء» .

فأجاب أويس :

ـ «وهل تضمن لي عيشاً أطول من المدة التي يكفيني فيها هذا المـال ، إذا فعلتَ فسأقبل منحتك» .

لا تندم على الماضي ولا تقلق من أجل المستقبل .

ذو النون .

ربما كان العالِم الذي يحاط بالأصـدقاء منـافقاً ، لأنـه لو أراد قـول الصدق لانفضوا من حوله» .

سفيان الثوري .

تعـود «الجنيد» أن يتحـدث إلى مجلس مؤلف من عشرة أشخـاص ، وكان يتوقف عن الكلام عندما يزيد عـدد الحاضـرين عن ذلك ولهـذا كان مجلسـه في أكثر الأحيان مؤلفاً من عشرين شخصاً وليس أكثر .

عندما نتحدث نحرص على عدم الوقوع في خطأ لغوي ، ومع ذلك فعندما نتصرف نقع في بعض الأخطاء ولا نصل إلى بغيتنا .

إبراهيم بن أدهم .

القرية المبتهجة

يقولون : «هذه القرية مبهجة» ، لكن قلب الإنسان يصبح أكثـر بهجة وهـو يقول : «أنا لست مبتهجاً بالقرى البهيجة» .

يحيى الرازي .

الأساسيات ، السلوك والعمل

التصـوف سلوك ، لكل وقت سلوكـه ولكل حـالة سلوكهـا ، ولكل مـوضع سلوكه ، ومن يسلك السلوك الملائم لكل مناسبة يصل إلى بغيته ، أما ذلك الذي لا يلتفت إلى قواعد السلوك فهو بعيد عن عقلية الوصول .

أبو حفص .

الإنسان الكامل

يضع راكب الجمل خططه ، ويضع الجمل أيضاً خططه .
يستطيع العقل المنظم أن يفكر جيداً .
ويمكن لعقل الإنسان الكامل أن يكون كاملاً .

رسول شاه .

المصباح ليس هناك ليضيء نفسه .

نواب «جان فيشان خان» .

إن سمى الإنسان نفسه صوفياً فهذا ادعاء كبير ، ومهما يكن من أمر تذكر أنني لا أدعو نفسي صوفياً .

أبو الحسن الخرقاني .

يا من لم تقرأ علم السماوات ،
ولم تطأ قدمك عتبة الحانات ،
يا من لا تعرف نفعك من ضرك ،
هيهات أن تصل إلى المصطفين هيهات !

بابا طاهر عُريان[أ] .

السفر بعربة أو دون عربة

إذا ألقيت بنفسك في البحر دون مرشد فهذا خطر كبير ، فالإنسان يخطىء بما في داخله أكثر مما يخطىء في الأشياء التي تأتيه من الآخرين .

(أ) «بابا طاهر العريان الهمداني» من شعراء منتصف القرن الخامس الهجري ، متصوف في شعره أفكار صوفية / المترجمة .

إذا كانت رحلتك في البحر على متن إحدى السفن ، فهذه رحلة محفوفة بالمخاطر ، فهناك يكمن خطر التعلق بالسفينة .

وفي الحالة الأولى النهاية مجهولة وما من دليل .

وفي الحالة الثانية تصبح الوسيلة غاية وما من وصول .

النِفري .

قال أحد الدراويش العارفين :

ـ «عندما تسمع رجل يقول : «قيل» .

فاعرف أنه يقول : «أنصت إلى ما أقوله أنا» .

بشر الحافي .

إن الأمور التي تعد اليوم ممكنة كانت بالأمس مستحيلة ، والأمور التي يُظن اليوم أنها خطأ ستكون صواباً في الغد .

حذيفة .

إن الأخطاء مبهجة في كثير من الأحيان لعقول أولئك الذين يقترفونها .

ابن عباس .

سئل «معروف الكرخي» عن السبب الذي امتنع من أجله عن تصحيح صلاة أحد الأشخاص فقال :

ـ «للدرويش مطلق الحرية في تقديم تعاليمه ولكن بعد أن يتم طقوسه الدينية» .

هناك بعض أشكال للمعرفة لكنها في الحقيقة جهل ، وبعض أشكال من الكلام يظن أنه فصيح لكنه في الحقيقة لغو .

عن حديث للرسول (ص) .

أشار «علي» رضي الله عنه إلى قلبه وقال :

«عندي هنا ما يكفي من المعرفة ، لكنني لا أستطيع أن أجد شخصاً آخر أودعها عنده ، هناك أشخاص كثيرون لكنهم سرعان ما يصبحون شكوكين(*) ، كم أحن إلى من يملك المعرفة بالفعل !

إذا كنتُ مخطئاً فلن يؤثر هذا على مستقبلك .

وإن كنت على حق فهذا له أهمية كبيرة في مستقبلك .

الخليفة علي (رضي الله عنه) .

أولئك الذين يعبدون المظاهر

لو عرف المسلم ما هو الوثن ،
لعرف أن في الوثنية ديانة .
ولو عرف الوثني ما تكون الديانة
لعرف أنه كان ضالاً .
فهو لا يرى في الوثن شيئاً بل يرى المخلوق واضحاً .
ولهذا يعد في شريعة الإسلام وثنياً .

الشبستري .

العبادة

يمر الجنس البشري في ثلاث مراحل :

ففي المرحلة الأولى يعبد أي شيء : الرجل ، المرأة ، المال ، الأطفال ، الأرض والحجارة .

(*) أصحاب مذهب يقول بأن المعرفة الحقيقية غير مؤكدة .

وعندما يتقدم قليلاً إلى المرحلة التالية يعبد الله .

وأخيراً يصل إلى المرحلة التي لا يقول فيها : «أنا أعبد الله» ، كما أنه لا يقول : «أنا لا أعبد الله» فقد مر من هاتين المرحلتين إلى المرحلة الأخيرة .

جلال الدين الرومي .

الزهد

تأتي المعرفة أولاً ، ثم الزهد ، وهناك المعرفة التي تلي الزهد ، إن «عالماً» واحداً أفضل من مائة ألف زاهد .

المحبوب

طرق الحبيب يوماً بابي ، فأطللت من كوة عليه ، وقلت له : «من ؟»

أجاب : ـ «أنا» .

فأغلقت الكوة ولم أفتح الباب فانصرف ، وجاءني بعد أيام طارقاً فقلت :

ـ «من ؟»

أجاب : ـ «أنت» .

فقلت له : «أدخل بسلام» .

الرومي .

الفراغ

كل إنسان في هذه الحياة نائم ، وعقيدتهم في الحياة المألوفة فراغ وليست ديانة على الإطلاق» .

سنائي ، من كتابه «الحديقة» .

الجوع

إن أولئك الذين يتخمون أنفسهم يفعلون هذا لجوعهم لشيء آخر ، لذا فهم دائمو الجوع ، أما أولئك الذين يرتدون عن الخطأ فهم يصلون لله تعالى ، ولا ينحنون مجرد انحناء في صلواتهم ، إن الصلاة عمل .

سنائي ، من كتاب الحديقة .

وجود الله

ما من عقل بشري بإمكانه فهم شكل الوجود الذي يسمى الله .

سنائي ، من كتاب الحديقة .

الصلاة للنفس

كان «سعد بن وقاص» رفيقاً للرسول (ص) ، وقد أصيب بالعمى في أواخر عمره واستقر في مكة حيث كان محاطاً بالناس الذين يطلبون بركته ، لكنه لم يقدم بركته للجميع بل لأولئك الذين كان طريقهم ممهداً بصفة دائمة .

أخبرنا عنه «عبد الله بن سعد» فقال :

ـ «ذهبت لرؤيته فعاملني معاملة طيبة وباركني ، ولما كنت طفلاً فضولياً فقد سألته :

ـ «يبدو أن الله يستجيب لدعواتك من أجل الغير ، فلماذا لا تدعوه كي يعيد إليك بصرك ؟»

أجاب الشيخ :

ـ «إن الإذعان لمشيئة الله أفضل بكثير من فرحتي بعودة البصر» .

العاطفة

كان «بشر» تلميذاً صوفياً يعيش في جزيرة عبدان ويعمل على مواساة الناس

وتخفيف آلامهم ، وذات يوم ، التقى بشر برجل سيء الحظ يعاني من مرض الجذام والعمى وقد رآه راقداً على الأرض وحيداً ، فاتجه إليه ورفع رأسه على ركبتيه ، وأحس بالأسى والعطف من أجله ، فأخذ يحدثه بعبارات مواسية مفعمة بالإنسانية .

عندئذ تحدث المجذوم فقال :

ـ «من هو الغريب الذي أتى إلى هنا وحال بيني وبين الله ؟ إنني أحب الله سواء كنت سليماً أو غير سليم» .

ويذكر بشر أن هذا الدرس الذي تلقاه من المجذوم لازمه طوال حياته .

يقول «مشغول» :

ـ قد لا يفهم هذه القصة إلا أولئك الذين يدركون أن المجذوم كان يمنع بشراً من الاندماج في عاطفته كي لا يدمر نفسه عندما يتحول إلى ما يدعوه الناس «إنساناً طيباً» .

فالإنسان يفعل الخير تطوعاً ، لا عن رغبة في الاندماج بشيء يلقنه له الآخرون باسم الإنسانية» .

الثوب المرقع

كان أحد اليهود في دمشق ذات يوم ، يقرأ كتاباً مقدساً ، فورد اسم النبي (ص) في الكتاب ، ولم يحب هذا اليهودي ذكر اسم النبي ، لذا فقد محا الاسم من الكتاب ، لكنه عندما عاود القراءة في اليوم التالي وجد الاسم في مكانه ، فقال لنفسه :

ـ «ربما كان هذا دليل على بدء رسالة حقيقية ، سوف أرحل باتجاه الجنوب نحو المدينة المنورة» .

وبدأ رحلته دون توقف حتى وصل إلى مدينة الرسول (ص) ، ولم يعرف

أحـداً هناك ، لكنـه وجد الصحـابي «أنس» بالقـرب من مسجد الـرسول (ص) ، فقال لأنس :

ـ «أيها الصديق ، خذني إلى النبي» .

فقاده أنس إلى المسجد الـذي كان ممتلئاً بالنـاس المحزونين ، وكـان أبو بكر الصديق على رأس المجتمعين ، فتوجه إليه الشيخ ظاناً أنه رسول الله محمـد (ص) . وقال :

ـ «يا رسول الله ، لقد جاء رجل مسن تائه ليسلم عليك» .

ولما سمع الحاضرون اسم الرسول انفجروا بالبكـاء ، فاحتـار الغريب في أمره وقال :

ـ «أنـا غريب ويهـودي ، ولا أدري ما هي الـطقوس التي يتـطلبها الإيمـان بالتسليم لإرادة الله ، هل قلت شيئاً غير منـاسب ، وهل أظـل ملتزمـاً بالصمت ، وهـل هذه هي شعـائر الـدين ؟ ولمـاذا تبكـون ؟ إذا كنتم تقيمـون احتفـالاً فمـا المناسبة ؟

وقال له الصحابي عمر :

ـ «لا شأن لك بنا ، ولكن يجب أن تعلم أيها المنحوس أن الرسـول (ص) قد توفي منذ أسبوع ، وعندما سمعنـا اسمه عـاد الحزن ليسيـطر على أفئدتنـا من جديد» .

وعندما سمع الشيخ المسن هذا الكلام أخذ يمزق ثيـابه من الأسى ، ولمـا عاد إلى صوابه قليلاً قال :

ـ «هل تصنع لي معروفاً ، أرجو أن تسمح لي بأخذ ثـوب واحد من أثـواب الرسول ، فإذا كنت لم أوفق إلى رؤيته ، دعني على الأقل آخذ ثوبه معي» .

فأجاب عمر :

ـ «لا يمكن لأي إنسان أن يمنحنا حلة من حلل الرسول (ص) إلا السيدة فاطمة الزهراء» .

وقال علي :

ـ «لكنها لن تسمح لأحد بأن يدنو منها» .

وذهب القوم فقرعوا باب «فاطمة الزهراء» وأخبروها بما جاءوا من أجله ، فأجابت السيدة الزهراء :

ـ لقد صدق الرسول (ص) عندما قال قبل أن يلقى ربه :

ـ «سوف يأتي عابر سبيل إلى منزلي بعد وفاتي ، وهو رجل طيب يحبني ، فأرجو أن تمنحوه هذا الثوب المرقع هدية مني ، وأرجو أن تعاملوه بلطف من أجلي» .

فوضع اليهودي الثوب عليه ، وأشهر إسلامه وطلب أن يؤخذ إلى قبر الرسول (ص) ، وهناك لفظ أنفاسه الأخيرة .

«العطار» ، من كتابه «إلهي نامة أو الكتاب الإلهي» .

مناجاة سعدي

افعلوا لأجلي ما هو جدير بكم ،

لا ما هو جدير بي .

سعدي من «كلستان» .

الرؤيا

ما فائدة قاعات الدرس وكليات الدين ومحاضرات العلماء والحلقات والتكايا عندما لا تكون هناك معرفة ولا تكون هناك عين ترى ؟

حافظ .

مظهر الدرويش

إن الشكـل الموضـوعي الـذي يبحث عنـه الملوك في صلواتهم هـو ظهـور انعكاس وجه الدرويش .

حافظ .

. . . .

القسم الخامس
قصص تعليمية

قصص تعليمية

القصص التعليمية قصص تروى للناس ، وتشكل هذه القصص جزءاً من نشاط المتصوفين ، والمقصود بها تكوين أساس للمعرفة الصوفية وأساليبها المميزة في التفكير ، ولا تستخدم هذه القصص بهدف التعليم إلا نادراً ، ومع ذلك فالهدف هو كشف معاني الصوفية ومغزاها تبعاً للمدى التطور الفكري لدى الطالب الذي يدرس التصوف ، وهذه نظرية تقول بأنه يتوجب على المرء أن يعمل وفق مستويات مختلفة من المادة نفسها ، وهي غير مألوفة لدى الكثيرين الذين يقولون ان القصة لها رسالة واحدة أو استعمال واحد فقط.

الرجل الكريم

كان يوجد في «بخارى» رجل غني وكريم ، وكانت له مكانة رفيعة في السلطة ، فقد عرف بزعامته للناس ، وكان يقدم هبات سخية لهم ، لكنه وضع شرطاً واحداً لهذه الهبات ، هو الصمت ، فكان يقدم في كل يوم الذهب لبعض الناس كالأرامل والمرضى وغيرهم .

لكنه كان يحرم أي شخص يتفوه بكلمة من هذه الهبة السخية ، ولم يكن باستطاعة الناس أن يظلوا صامتين ، فلما أتى أحد المحامين لإستلام الهبة لم يستطع منع نفسه من الكلام ، فمنع عنه الغني هبته ، على أنه لم يشعر باليأس ،

وأصر على متابعة جهوده للحصول على الهبة ، وسمع في اليوم التالي بمنح الهبة لأحد العاجزين ، فتظاهر بأن أطرافه قد كُسرت ، إلا أن الزعيم كشفه هذه المرة أيضاً فلم يحصل على شيء .

وفي اليوم التالي ، تنكر المحامي في هيئة جديدة ، لكن أمره انكشف أيضاً ، وأعاد المحاولة مرات عديدة حتى أنه تخفى في زي امرأة ، ولكن دون نتيجة ، وأخيراً وجد حانوتياً فطلب منه أن يلفه في أحد الأكفان وقال له :

ـ «إذا مر الزعيم من هنا فلعله يظن أنني ميت فيرمي بضع قطع من النقود في نعشي ، وسوف أمنحك شيئاً منها عند ذلك» .

وبالفعل مر الزعيم وألقى قطعة ذهبية على النعش فأسرع المحامي لالتقاطها قبل أن يظفر بها الحانوتي ، ثم قال للمحسن :

ـ «لقد حرمتني من هبتك فانظر كيف حصلت عليها ! » .

ورد الرجل الكريم قائلاً : «لا يمكن أن تأخذ مني شيئاً حتى تموت ، وهذا هو معنى العبارة الرمزية التي تقول :

ـ « أن يموت الرجل قبل أن يموت» ، فالهبة تأتي بعد «الموت» ، لا قبله ، حتى هذا الموت الذي تتظاهر به ليس ممكناً دون مساعدة» .

خراب مدينة

صاح ذات يوم أحد المتصوفين في لحظة لم يسمعه فيها أحد :

ـ «سأكون سبباً في خراب هذه المدينة» .

وظن الناس أنه مجنون ، فلم يلحقوا به الأذى ، ولم يأبهوا لكرمه لأنه كان مختلاً لا يدري ماذا يقول ، لكن هذا كان لسوء طالعهم ، فقد تسلق الصوفي ذات يوم إحدى الشجرات ، فسقط وكسر بجسمه حائط الخزان الذي كان موجوداً بجانب الشجرة ، فتسبب الفيضان الذي حدث بسبب هذا في خراب المدينة .

ولم يتذكر الناس كلامه إلا عندما رأوا جثته .

الحصان السحري

كان لأحد الملوك ولدان ، الأول متفهماً لأهل بلدته مساعداً للناس ، أما الثاني فقد كان «كسولاً» ، لأنه كان سابحاً في عالم الخيال بصفة مستمرة ، ولم يكن باستطاعة أحد أن يفهمه .

وحصل الابن الأول على عدة أشياء في بلده ، أما الابن الثاني فقد حصل على حصان من الخشب كان أحد النجارين قد وهبه له ، فجلس عليه منفرج الساقين ، لكن الحصان كان حصاناً سحرياً لا يحمل راكبه إلا إذا كان هذا الراكب مخلصاً لرغبة قلبه .

واختفى الأمير الصغير في أحد الأيام باحثاً عما ينشده قلبه وغاب فترة طويلة ، وبعد أن قام بمغامرات مع أميرة جميلة من مدينة النور ، عاد من رحلته وأخذ يقص على والده قصة الحصان السحري ، فأصغى إليه فرحاً بعودته سالماً .

وأتيح لكل الراغبين في ركوب الحصان أن يفعلوا ذلك ، لكن بعضهم الآخر فضل الفوائد التي قدمها لهم الأمير الأول لأن الحصان كان يبدو لهم كلعبة ، ولم يفقهوا منه شيئاً سوى مظهره الخارجي ، وعندما توفي الملك تولى الحكم الأمير المغرم باللعب ، لكن الناس كانوا يستخفون به ، ويفضلون الإثارة والتشويق بما يقدمه لهم الأمير النشيط .

إننا لا نتمكن من التفكير فيما وراء المظهر الخارجي للحصان إلا إذا استمعنا إلى الأمير «الكسول» ، سواء أحضر معه من مدينة النور أميرة من الأميرات أم لا .

وحتى لو كنا نحب الحصان فلن يساعدنا شكله الخارجي في الوصول إلى بغيتنا .

المهد

رزق أحد الأشخاص بطفل ، فذهب إلى أحد النجارين وطلب منه أن يصنع مهداً لطفله ، لكن النجار طلب منه مهلة أسبوع واحد لينجز صنع المهد ، وبعد أسبوع توجه الأب إلى النجار ، لكن المهد لم يتم ، وكان يعود أسبوعاً إثر أسبوع دون جدوى .

وأخيراً شب الطفل وأصبح رجلاً وتزوج بدوره ، فولدت له زوجته بعد بضعة أشهر ولداً .

فقال الجد : «إذهب يا بني واطلب من النجار المهد الذي أوصيته على صنعه» .

فذهب الشاب إلى دكان النجار وذكره بقصة المهد فقال :

«هذه فرصة مناسبة لتنجز عملك ، فعندي الآن طفل صغير ، وبالطبع يكون المهد مناسباً له» .

فقال النجار : انصرف عني ! ، فأنا أرفض أن أكون مضطرباً في عملي بسببكم ، فقد سيطرت عليكم الرغبة الملحة وهذا ما لا أريده» .

الرجال الصم الثلاثة والدرويش الأخرس

كان يوجد في قديم الزمان راع فقير ، وكان هذا الراعي يأخذ كل يوم بعض الماعز إلى إحدى التلال المشرفة على القرية التي يعيش فيها مع عائلته لترعى ماشيته ، وكان أصماً لكن هذا الصمم لم يؤثر عليه مطلقاً .

وذات يوم ، اكتشف أن زوجته نسيت حزمة الطعام اليومية التي كانت ترسلها له مع ابنهما كما جرت العادة ، وقال الراعي لنفسه :

ـ «سأذهب بنفسي وأحضر الطعام من المنزل ، فلا يمكنني البقاء هنا حتى مغيب الشمس دون طعام» .

وفجأة شاهد رجلاً يقطع الشجيرات التي كانت موجودة على جانب التل فتوجه إليه وقال له :

ـ «أرجو منك أيها الأخ الكريم أن تنتبه إلى الماعز فقد نسيت زوجتي أن ترسل لي طعام الغداء وأنا ذاهب الآن إلى القرية لهذا السبب» .

لكن قاطع الشجر كان أصماً فلم يسمع كلمة واحدة من كلام الراعي ولم يفهم شيئاً .

فأجاب :

ـ «ولماذا أعطيك من الشجيرات التي أقطعها من أجل الحيوانات التي أقوم برعايتها ؟ لديّ في المنزل بقرة وخروفين ويجب أن أطعمهما ، فأرجو أن تدعني وشأني ، فلا أريد منك شيئاً لأنك تسعى لأخذ القليل مما أملك» .

ولوّح الراعي بيده في عصبية ، ثم قهقه بصوت أجش ، فلم يسمع الأصم شيئاً ، لكنه قال :

ـ «أشكرك أيها الصديق الطيب لموافقتك ، سأسرع بالعودة ، باركك الله ، لقد منحتني راحة البال» .

وركض إلى القرية وذهب إلى بيته المتواضع ، وهناك وجد زوجته مريضة تعاني من الحمى وإلى جانبها زوجة جاره ، فتناول حزمة طعامه وعاد بها إلى التل حيث كانت الماعز ترعى كما تركها .

أما قاطع الشجر فقد كان منهمكاً في عمله فقال الراعي لنفسه :

ـ «يا له من شخص أمين ! لقد حرس الماعز فلم تشرد ، ولم يطلب أجراً على الخدمة التي قام بها !» .

«وسوف أعطيه المعزاة العرجاء ، فقد كنت أنوي ذبحها على أية حال ، فيصبح عنده طعام شهي له ولعائلته هذا المساء» .

وحمل المعزاة الضعيفة على كتفيه وهبط من التل ، وقال لقاطع الشجر :

ـ «أيها الأخ العزيز ، إليك هديتي ، فقد رعيت الماعز في غيابي ، لقد أصابت الحمى زوجتي التعيسة ، فاذهب واطبخ المعزاة لتتناولها الليلة طعاماً للعشاء ، فقد كانت ساقها عرجاء ، وكنت أنوي ذبحها» .

لكن قاطع الشجر لم يسمع كلامه وصاح غاضباً :

ـ «أيها الراعي الشرير ، إنني لم أشهد ما حدث أثناء غيابك فكيف أكون مسؤولاً عن ساق معزاتك اللعينة ! ، لقد كنت مشغولاً بقطع هذه الشجيرات ولم أعرف ما حدث ! اغرب عني وإلا ضربتك» .

فدهش الراعي من ثورة الرجل وغضبه ، لكنه لم يسمع ما قال ، فنادى أحد المارة وكان يمتطي حصاناً جميلاً ، وقال له :

ـ «أيها السيد النبيل ، أرجو أن تخبرني ماذا يقول هذا الشخص الذي يقطع الشجر ، إنني أصم ولا أدري لماذا رفض هديتي له وكان غاضباً» .

فنزل المسافر عن الحصان واتجه نحوهما ، وكان هذا الرجل لصاً يحترف سرقة الجياد ، ولما كان هو الآخر أصماً فلم يسمع شيئاً مما قالا .

وسألهما عن المكان الذي هو فيه لأنه ضل طريقه ، ولما رأى حركات التهديد والوعيد من الرجلين قال :

ـ «نعم ، أيها الأخوة ، لقد سرقت الحصان ، لكنني أصم ولا استطيع أن أسمع لأعرف أيكما صاحب الحصان» .

وفي هذه اللحظة ظهر درويش مسن كان يسير في الطريق إلى القرية ، فهرع إليه قاطع الشجر وقال له وهو يشد ثوبه :

ـ «أيها الدرويش المحترم ، إنني رجل أصم لا أفقه شيئاً من أقوال هذين الرجلين ، فأرجو أن تحكم بيننا وتفسر ما يقوله كل شخص منهما» .

ولما كان الدرويش أبكماً فلم يستطع الإجابة لكنه تقدم إليهم وتفحص في وجوههم فتوقفوا عن الكلام لدى رؤيته .

وتأملهم واحداً واحداً فبدأوا يشعرون بعدم الإرتياح ، وأخذ يحملق بعينين لامعتين في أعينهم بحثاً عن الحقيقة وسعياً نحو أثر أو دليل ، لكن كلاً منهم أصابه الخوف من أن يكون ساحراً فيسحرهم أو يسيطر عليهم بطريقة ما ، وفجأة قفز اللص على الحصان ومضى مسرعاً لا يلوي على شيء ، وفي الحال شرع الراعي في سوق قطيعه بعيداً صاعداً التل ، أما قاطع الشجر فقد حزم القطع التي جمعها في شبكة ورفعها على كتفيه دون أن يرفع عينه في عين الدرويش ، وهبط التل قاصداً بيته .

وتابع الدرويش رحلته وهو يفكر بأن الحديث وسيلة من وسائل الإتصال غير المجدية ، وكان من الأفضل لو أن المرء لم يمنح هذه الوسيلة .

سيدتي فاطمة والحيوانات

كانت هناك فتاة صغيرة تعيش مع والديها في إحدى الغابات ، وتوفي والدها ، فكان عليها أن تدافع عن نفسها ، وكان لديها في الغرفة محراب تركه والدها ، وكان هذا المحراب مزخرفاً غريب الشكل .

وحدثت فاطمة نفسها فقالت :

ـ «اليوم أصبحت وحيدة ، ويجب أن أبقى في هذه الغابة حيث تعيش الحيوانات ، فمن الأفضل أن أتحدث إليهم وأفهم لغتهم» .

وهكذا قضت فاطمة قسماً كبيراً من اليوم في هذا الحديث مخاطبة المحراب :

ـ «أيها المحراب ، امنحني القوة لأتحدث إلى الطيور والحيوانات والأسماك أيضاً» .

وتوجهت فاطمة بالفعل إلى الغابة ، فوصلت إلى إحدى البحيرات حيث

كانت تقفز إحدى الفراشات على وجه الماء ، وكان في البحيرة بضع سمكات ، وفي أسفل البكرة بضع حلزونات ، فقالت فاطمة لتبدأ الحديث معها :

- «أيها الفراشة ، لماذا لا تنزلين في الماء ؟»

فقالت لها الفراشة :

- «ولماذا أفعل ؟» .

«حتى تكوني آمنة وتتخلصي من الطيور التي قد تأتي وتنقض عليك» .

قالت الفراشة : «ومع ذلك فلم يأكلني أحد من الطيور بعد ، أليس كذلك ؟» .

وكانت هذه نهاية حديثهما .

ثم تحدثت فاطمة إلى السمكة التي كانت تبدو من خلال الماء فقالت لها :

- «أيها السمكة ، لماذا لا تبحثين عن وسيلة تخرجين فيها من الماء شيئاً فشيئاً ؟ لقد سمعت أن بعض السمك يمكنه ذلك» .

فقالت السمكة : «فلتتخيلي لو فعلت لما بقيت على قيد الحياة» .

وأدارت ظهرها وأبدت عدم استعداد لسماع مثل هذا الهراء .

فنادت فاطمة الحلزون وقالت له :

- «أيها الحلزون ، بإمكانك أن تزحف من الماء وتجد كثيراً من الأعشاب لتأكل» .

فقال الحلزون :

- إن الحلزون العاقل يمكنه الإجابة بشكل أفضل على هذا السؤال ، وأرجو أن تتفضلي بإخباري عن السبب الذي من أجله تهتمين بمصلحتي ؟ يجب على كل إنسان أن ينظر إلى نفسه .

فقالت فاطمة :

ـ حسناً ، ربما كان السبب هو أن الإنسان يستطيع رؤية الكثير عن الشخص الآخر ويود مساعدته ليرتفع من شأنه .

قال الحلزون : « هذا غريب » .

وابتعد الحلزون بعيداً إلى إحدى الصخور ، وتركت فاطمة الفراشة والسمكة والحلزون ، وعادت لتتجول في الغابة وتبحث عن كائن آخر تتحدث إليه ، واحست بأنها يجب أن تكون ذات فائدة بالنسبة لأي كائن من سكان الغابة فهي تعرف أكثر منهم ، وبحثت عن الطائر فهو يخبىء طعامه للشتاء أو يبني عشاً دافئاً بالقرب من إحدى البيوت ، كي لا يموت قبل أوانه ، ولكن لم تعثر على أي طائر ، فاتجهت إلى كوخ حيث كان صاحبه وهو رجل مسن جالساً عند الباب يحرق الفحم ويعده لأخذه إلى السوق .

فشعرت فاطمة بالسرور لأنها التقت بشخص آخر غير والديها وأخذت تحدثه بما مر عليها من تجارب في ذلك اليوم ، فقال الرجل العطوف :

ـ لا تقلقي يا بنيتي ، فهناك أمور يجب على المرء أن يتعلمها ، وهي ذات أهمية المستقبله .

فقالت فاطمة :

ـ « أمور نتعلمها ؟ ، ومأذا أتعلم أنا ؟ ليس لدي رغبة في تغيير طريقتي في الحياة والتفكير » .

وابتعدت فاطمة عن الفحام ، كما فعلت الذبابة والسمكة والحلزون من قبل ، وعاشت فاطمة بنت والية ثلاثين سنة أخرى ، قبل أن تتعلم شيئاً آخر .

موسى والراعي

قدم الخواجه فدائي من كَرْس Kars في كتابه «تأملات في أشعار مولانا جلال الدين الرومي» تفسيراً لأحد المقاطع المعروفة في كتاب الرومي «المثنوي» ، هذا التفسير يلفت النظر إلى المستويات المتعددة للإدراك البشري ، ويؤكد أننا لا نصل إلى حقيقة الإنسان ما لم نعرف مساهمته في الحياة .

ومع هذا فيجب على المعلم الصوفي أن يهيء تلاميذه لإدراك «نظرية التوازي[1]» ، لذا فإننا نكون مخطئين لو ركزنا على المنفعة المادية للتصوف ، فالتصوف ليس علاجاً يقدمه المعلمون الصوفيون أو دواءً للأمراض التي يتعرض لها الإنسان في هذه الحياة .

لا يستطيع أي إنسان أن يفهم أكثر مما يمكن لتفكيره أن يستوعب ، لذلك فقد صدق من قال :

- «ما أنت بحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم[2]» .

فالإنسان يستفيد بمقدار فهمه فإذا اقتصر فهم المرأة والرجل على الأمور البسيطة فهذا مربح لهما .

يروى أن «موسى» (ع) ، دعا راعياً متواضعاً بالكافر ، لأنه سمع هذا الرجل الفقير يبدي استعداده لتمشيط شعر الإله وغسل ركبتيه وتقبيل يديه .

فذكّر الله «موسى» (ع) ليعلمه من خلال تلك التجربة وبتلك المناسبة أن الراعي لم يكن ذكياً ولا يملك تجربة كافية ليفهم أن موسى كان يتحدث عن إله معنوي فقال له :

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ .

صدق الله العظيم

---

(١) نظرية تقول بأن العمليات العقلية والجسدية متلازمة ، وأن أحدهما يتغير بتغير الآخر ، ولكن من غير أن يكون بين سلسلتي التغير أي علاقة سببية .

(٢) حديث ينسب إلى الرسول محمد (ص) .

قلنسوة التخفي

كان يعيش في إحدى الجزر المجهولة وإن كانت حقيقية ، أحد الفتيان ويدعي «كاسجان» ، وكان أخوه الأكبر ويدعى «جانكاس» ذكياً نشيطاً ، أما «كاسجان» فلم يكن نشيطاً أو كسولاً ، كما أنه لم يكن ذكياً أو غبياً ، لكنه كان يحاول حل كل مشكلة يمكنه حلها .

ولم يحرز الشقيقان أي تقدم في الجزيرة الخفية ، فقررا أن يجربا حظهما معاً ، فخرجا ذات يوم من منزلهما ، ولم يمض وقت قليل حتى فرقهما الظلام ، أما «جانكاس» فقد سمع فجأة أشخاصاً يتشاجرون ويبدو أن ثلاثة رجال كانوا يتناقشون حول ثلاثة أشياء ملقاة على الأرض ، وشرحوا له المسألة ، لقد توفي أبوهم وترك لهم : قبعة مخروطية الشكل وهي قبعة التخفي ، وبساطاً طائراً ، وعصا تجعل البساط يطير عندما يُضرب بها .

وكان كل واحد منهم يرغب في هذه الأشياء أو على الأقل يتمنى أن يحصل عليها قبل غيره ، لكن «كاسجان» فكر في نفسه قائلاً :

ـ «لا يستحق أي منهم هذه الأشياء» .

لكنه عرض عليهم أن يحكم فيما بينهم ، فطلب أن ينسحبوا أربعين خطوة ثم يستديروا ، وقبل أن يبدأوا بتنفيذ تعليماته وضع القبعة على رأسه ووقف على البساط ثم ضربه بالعصا وأمره قائلاً :

ـ «خذني أيها البساط إلى أي مكان حيث أجد أخي «جانكاس» » .

ولم يمض قليل من الوقت حتى كان طائر العنقا الضخم قد اختطفه وأودعه في مئذنة بجامع خراسان .

ومع هذا ، فلان «كاسجان» كان يفكر في هذا الوقت أن «جانكاس» جعل نفسه أميراً ، فقد سمع البساط كلامه فطار مسرعاً ليستقر بخفة على شرفات قصر الملك في مدينة بلخ بخراسان .

وخرج الملك فرآه بالصدفة وقال :

ـ «ربما كان هذا هو الشاب الذي قيل أنه سيساعد إبنتي ومع ذلك فلن يشتهيها لنفسه».

وحيا كاسجان الملك وقص عليه حكاية أخيه (جانكامن) وقدومه للبحث عنه .

فقال الملك :

ـ «وقبل أن تفعل هذا ، أود مساعدتك لأنك ذا عقل راجح ، إن الأميرة تختفي كل ليلة وتعود في الصباح ، ولا يعرف أحد كيف تم هذا ، لقد تنبأ أحدهم بذلك» .

ووافق «كاسجان» على تقديم العون واقترح البقاء إلى جانب فراش الأميرة لحراستها .

وظل مستيقظاً متنبهاً تلك الليلة ، فرأى الأميرة تنظر إليه لترى إن كان نائماً أم لا ، فأخذت إبرة ووخزته بها ، لكنه لم يتحرك لأنه كان يتوقع حدوث هذا .

فقالت الأميرة : ـ «أنا مستعدة» .

وفي الحال ظهر شبح مخيف وأخذها على كتفيه ، وأخترقا معاً السقف دون أن يظهر عليه أثر .

ففرك كاسجان عيناه ووضع على رأسه قبعة التخفي ، ثم جلس على البساط السحري وضربه بالعصا وهو يصيح :

ـ «خذني أيها البساط السحري إلى حيث ذهبت الأميرة» .

وباندفاع عظيم وجد «كاسجان» نفسه في الأرض اللامرئية فيما وراء الجزيرة اللامرئية ، وكانت هناك الأميرة ومعها الشبح ، ورآهما يسيران خلال غابات من الأحجار الثمينة ، وهشم «كاسجان» قطعة من شجرة الجاد ذات الثمار

الجوهرية ، ثم سارا في حديقة فيها نباتات مجهولة جمالها لا يضاهى ، فوضع «كاسجان» بضعة بذور في جيبه ، وأخيراً وقفا إلى جانب إحدى الجرات التي كانت تزخرفها السيوف اللامعة .

فقال الشبح للأميرة :

ـ «هذه هي السيوف التي يمكن أن تقتل شبحاً مثلي ، لكن واحداً فقط بإمكانه أن يفعل هذا ، وهو «كاسجان» فقد تنبأ المنجمون بذلك» .

ولما سمع «كاسجان» هذا الكلام أمسك بالسيف وقطع رأس الشبح القبيح وأمسك بالأميرة فجرها إلى البساط ، وعاد بها إلى قصر الملك في بلخ بحر المختان وأخذ «كاسجان» الأميرة في الحال إلى الملك ، وأيقظه من نومه قائلاً :

ـ «يا جلالة الملك ، ها هي ابنتك ، لقد أطلقت سراحها وخلصتها من براثن شيطان لعين» .

وروى له كل ما حدث لهما وأحضر معه قطع المجوهرات وبذور النباتات ، فلما استراحت له الأميرة اقترحت أن تتزوجه ، لكن «كاسجان» طار على بساطه السحري ليعثر على أخيه «جانكاس» الذي كان يقيم في نزل لأنه لم يوفق إلى للعمل كمدرس في إحدى المدارس بأجر زهيد .

وعندما عاد الشقيقان إلى بلاط الملك ، بهرت الأميرة على الفور بملامح (جانكاس) الرجولية ، فقررت أن تتزوجه بدلاً من كاسجان ، فوافق كاسجان والملك في آن واحد وقالا بصوت واحد : «هذا ما كنا سنقترحه» .

وعاش الجميع بسعادة ، فقد تسلم جانكاس وعروسه حكم المملكة ، بينما ذهب ملك بلخ و «كاسجان» معاً على البساط السحري إلى الأرض اللامرئية خلف الجزيرة الخفية ، التي أصبحت مملكتهما المشتركة .

الملك والذئب

قرر أحد الملوك أن يروض ذئباً ويجعل منه حيواناً أليفاً ، وقد نبعت هذه الرغبة من المشاكل في هذه الحياة .

فأمر بإحضار جرو صغير كان مع أمه بعد ولادته ، فأمر الملك بوضع الجرو مع مجموعة من الكلاب الأليفة .

ولما كبر الذئب أمر الملك بإحضاره ، فلاحظ أنه يتصرف كالكلاب ، وظل على هذه الحالة عدة أيام ، فدهش الناس وظنوا أن الملك يصنع المعجزات ، فأخذوا يستشيرونه في كثير من شؤونهم ، وصدق الملك نفسه أن معجزة قد حدثت .

وفي يوم من الأيام ، بينما كان الملك في إحدى رحلاته للصيد ، سمع صوت ذئب يقترب ، ولما تقدم الملك وصحبه فر الذئب الأليف وأبرز أنيابه وجرى لاستقبالهم ، وبعد دقيقة اختفى الذئب فقد عاد إلى رفاقه الحقيقيين من الذئاب ، ومن هنا جاء المثل الذي يقول :

سيظل جرو الذئب ذئباً ولو سار خلف بني البشر .

صائد البطيخ الأحمر

كان يوجد في قديم الزمان رجل شرد من بلده إلى أرض أسمها «أرض الحمقى» ، ولما وصل إلى هذه الأرض رأى مجموعة من الأشخاص يولون الأدبار في ذعر ، ويبدو أنهم كانوا في الحقل يحصدون القمح ، فقالوا له :

- «يوجد في الحقل حيوان مخيف» ، ولما نظر في الحقل وجد بطيخة حمراء ، ويظهر أن هؤلاء الأشخاص قد تخيلوا أنها حيوان من الحيوانات .

فعرض عليهم الرجل فكرة قتل «الوحش» ، وبعد أن قطع البطيخة من ساقها أخذ شريحة منها وأكلها ، لكن الناس خافوا منه وكان خوفهم منه أشد من

خوفهم من البطيخة ، فطردوه وصاحوا :

ـ «إن هذا الرجل إذا مكث بيننا ، يقتلنا ، ويجب أن نتخلص منه» .

وحدث أيضاً أن أحد الرجال ضل طريقه أيضاً في وقت آخر وتوجه إلى «أرض الحمقى» فحدث معه الشيء نفسه ، ولكنه بدلاً من أن يعرض مساعدته للتخلص من الوحش أقر بأنهم يواجهون خطراً كبيراً ، فسار على أطراف أصابعه هرباً من «الوحش» ، ولما فعل هذا أكتسب ثقتهم .

وعاش هذا الرجل بين هؤلاء القوم فترة طويلة ، يعلمهم الحقائق الأساسية التي تمكنهم من القضاء على مخاوفهم من البطيخ وتمكنهم أيضاً من زراعته بأنفسهم .

جلالته

وجد «الملا نصر الدين» نفسه ذات يوم في قاعة المقابلات الرسمية للامبراطور الفارسي ، وكان الشاهنشاه محاطاً بالنبلاء وحكام الأقاليم والمتملقين ورجال الحاشية ، وكان كل واحد منهم يطلب تعيينه رئيساً للبعثة التي سوف يرسلها الشاهنشاه للهند .

ونفد صبر الأمبراطور فأخذ يدعو الله ليساعده في حل مشكلة أختيار الشخص المناسب للبعثة بعد أن تطلع إلى هذا الحشد المزعج ، ولما رأى «الملا نصر الدين» أشرقت أساريره وقال :

ـ «هذا هو الرجل الذي سيكون سفيري ، والآن اتركوني بسلام» .

وأمر بتقديم الهدايا من الثياب النفيسة والجواهر الثمينة والأحجار الكريمة والأعمال الفنية ، وكانت كل كل هذه الأشياء هبة منه للقطب الكبير ، ومع هذا فلم ينفض الجمع واتفقوا فيما بينهم على اسقاط الملا ، فحاولوا أول الأمر اقتحام منزله فسرقوا المجوهرات واقتسموها بينهم ، ثم نادوا الملا نصر الدين

وقالوا له معلنين عن تصميمهم على تخريب إمارته وإغراقه في المتاعب .

وقالوا له :

ـ «تهانينا يا نصر الدين ، إن ما قرره ينبوع الحكمة ، طاووس العالم هو جوهر الحكمة ، ولهذا فنحن نرحب بك ، ولكن نريد أن نقدم لك بعض النصح والإرشاد لأننا نعرف جيداً السلوك الدبلوماسي » .

فقال نصر الدين :

ـ «إذان سأون ممتناً لكم» .

فقال رئيس المخادعين :

ـ «حسناً عليك بالتواضع ولتبرهن على ذلك تمتنع عن إظهار اهتمامك بنفسك ، وعندما تصل إلى الهند عليك بدخول أكبر عدد من المساجد ، ثم عليك مراعاة اتيكيت البلاط في البلاد التي تمثل بلدك فيها ، فمثلاً عندما تخاطب المغولي الكبير تلقبه «بالبدر» » .

ـ «ولكن أليس هذا هو لقب الأمبراطور الفارسي ؟» .

ـ «كلا ، ليس في الهند» .

وأخذ نصر الدين يستعد للسفر ، فقال له الأمبراطور الفارسي :

ـ «كن حريصاً يا نصر الدين والتزم بقواعد السلوك لأن الامبراطور المغولي قوي جداً ويجب أن نسيطر عليه» .

فقال نصر الدين :

ـ «أنا على أتم استعداد لهذا ، أيها الملك» .

وبعد أن دخل «نصر الدين» بلاد الهند ، دلف إلى أحد المساجد وصعد إلى المنبر وصاح :

ـ «أيها الناس ، انظروا في وجهي فأنا ممثل الله على الأرض ! ، أيها الناس أحضروا أموالكم فإنني أجمع الأموال» .

وكرر هذا الكلام في كل جامع صادفه من بلوخستان حتى دلهي عاصمة الامبراطورية ، فجمع بهذه الطريقة مبلغاً كبيراً من المال .

وقال له بعض المستشارين :

ـ «أفعل ما يحلو لك بالمال ، فهو منحة ونعمة وهبها الله لك» .

وكانوا يسخرون منه لجمعه المال بتلك الطريقة المخزية .

ومما كان يقوله «نصر الدين» في كل جامع :

ـ «يجب أن يعيش الأبرار بطهرهم ، وأنا لا أحاسب على شيء ، ولا أتوقع من أحد من الناس شيئاً ، فالمال تقومون بإدخاره بعد أن تطلبوه ، ويمكنكم شراء كثير من الأشياء بواسطته ، أما بالنسبة لي فهو كعمل آلي ، وأنا أمثل قوة طبيعية للمنحة والانفاق ، إننا نعلم أن الخير ربما نتج عما هو في ظاهره شر ، والعكس بالعكس ، وإن أولئك الذين ظنوا أن «نصر الدين» كان ينطوي شره على شيء من الخير لم يشاركوا في شيء ، فلسبب ما لم تنجح أعمالهم ، أما أولئك الذين قدموا أموالهم واعتبرهم الناس من البسطاء فقد أصبحوا بطريقة ما من الأغنياء» .

ولكن لنرجع إلى قصتنا ، فقد كان الأمبراطور يجلس على عرشه الطاووسي في مدينة دلهي ، يراجع التقارير التي أتي بها رسله عن التقدم الذي أحرزه السفير الفارسي .

فقال لهؤلاء الرسل :

ـ «أيها السادة ، هذا الشخص الذي يدعى «نصر الدين» لا بد أن يكون من الأولياء أو من المرشدين الإلهيين ، فمن سَمِعَ بشخص يثور على المبدأ الذي يقول بأن المرء لا يسعى إلى المال دون سبب معقول خشية تفسير دوافعه تفسيراً خاطئاً ؟» .

فأجاب الرسل :

ـ «طال عمرك أيها الحكيم العظيم ، هذا الرأي صحيح ، ونرجوا أن نعلم إن كان هناك أشخاص مثله في بلاد فارس ، لأن تفوقهم الأخلاقي على نظرتنا المادية إلى الأمور واضح تمام الوضوح» .

وبعد فترة وجيزة وصل مبعوث من فارس ومعه رسالة سرية أقر فيها الجواسيس المغوليون في بلاط الامبراطور بما يلي :

ـ «إن الملاّ نصر الدين ليس له شأن في فارس ، وقد أخير بشكل عشوائي سفيراً لبلاده ، ولا يمكنتنا فهم السبب الذي من أجله لم يوفق الشاهنشاه في هذا الاختيار» .

فدعا المغولي مجلسه للانعقاد وقال :

ـ يا طيور الفردوس المثالية ! لقد خطرت لي فكرة هي أن الامبراطور الفارسي وثق بهذا الرجل ثقة كاملة فبامكانه أن يشغل منصب السفير إلى البلاط العالي في دلهي !

وهذا يدل على درجة الكمال التي وصل إليها هؤلاء الناس ، وعلينا أن نفكر قبل غزو فارس فمثل هذا الشعب سيقهر سلاحنا ، لأن مجتمعهم قد بُني على أساس مغاير لمجتمعنا» .

فصاح النبلاء الهنود :

ـ «أنت على حق ، أيها المدافع العظيم عن حدودنا» .

وأخيراً وصل «نصر الدين» إلى دلهي ، وكان يمتطي حماره القديم متبوعاً بمرافقيه ومحملاً بأكياس المال الذي جمعه من المساجد ، وكان صندوق الكنز محمولاً على أحد الأفيال وهو صندوق كبير الحجم والوزن كالفيل .

والتقي «نصر الدين» برئيس الاحتفالات عند بوابة دلهي ، وكان الأمبراطور

يجلس مع نبلائه في مكان واسع هو قاعة السفراء التي كانت ذات سقف منخفض ، وبناءً على ذلك ، كان السفراء يضطرون للترجل عن جيادهم ودخول القاعة على أقدامهم ، فيبدون كالأزلاء ، ولا يمكن لأحد أن يمثل أمام الأمبراطور وهو يمتطي صهوة جواده ، إلا إذا كان مساوياً له .

ومع ذلك فلم يجرؤ أحد على القدوم ممتطياً حصانه ، أما نصر الدين فلم يمنعه شيء من اقتحام المكان بفرسه ثم الصعود إلى المنصة الامبراطورية .

وهنا تبادل الملك الهندي ورجال حاشيته نظرات ذات مغزى ، وترجل نصر الدين بمرح وخاطب الملك «البدر» ، وطلب إحضار صندوق كنزه ، وعندما فتح الصندوق وظهر ما بداخله أصيب الحاضرون بالهلع .

وقال نصر الدين لنفسه :

ـ «من الأفضل ألا أقول شيئاً ، فليس هناك ما يخفف وقع ما حدث» ، وهكذا ظل نصر الدين صامتاً .

وهمس المغولي في أذن وزيره :

ـ «ما معنى هذا ؟ هل هو إهانة لمقامكم العالي ؟ » .

فأخذ الوزير يفكر ، وأحس بإنفعال شديد ولم يصدق ما رأى ، وما لبث أن قدم تفسيراً لما حدث بأن غمغم قائلاً للملك :

ـ «هذا شيء رمزي أيها الملك ، فالسفير يعترف بك سيداً ، ألم يخاطبك بالبدر ؟» .

فاطمأن المغولي وقال :

ـ «لقد رضينا بما قدمه الشاهنشاه الفارسي ، فلسنا بحاجة للمال ، ونحن نقدر القيمة الفكرية للرسالة» .

فقال «نصر الدين» بعد أن تذكر العبارة التي قالها المخادعون :

ـ «لقد طُلب مني أن أخبركم بأن هذا هو كل ما لدينا لجلالتكم» .

فهمس الفلكي للملك :

ـ «إن هذا يعني أن الفرس لن يسلموا لنا ولا شبراً واحداً من أرضهم» .

فابتسم المغولي قائلاً :

ـ « قل لسيدك أننا نفهم هذا ، ولكن هناك شيء واحد يجب أن نفهمه ، فإن كنتُ أنا البدر فماذا يكون إذن امبراطور الفرس ؟ » .

فقال نصر الدين مباشرة :

ـ «إنه القمر الجديد» .

عندئذ همس الفلكي الخاص بالبلاط الملكي للمغولي :

ـ «إن البدر أكثر نضجاً وهو مشع بالنور ، من «القمر الجديد» » .

فقال الهندي مغتبطاً :

ـ «نحن مقتنعون بهذا ، يمكنك العودة إلى فارس فتخبر القمر الجديد بأن البدر يحييه» .

وسرعان ما أرسل الجواسيس من الفرس في بلاط دلهي تقريراً كاملاً عن هذا الحديث إلى الشاهنشاه ، وأضافوا بأن الأمبراطور المغولي قد خشي من شن الحرب ضد الفرس بتأثير همة «نصر الدين» .

ولما عاد الملا إلى بلاده ، أستقبله الشاهنشاه بحضور جمهور كبير وقال له :

ـ «أنا سعيد جداً أيها الصديق «نصر الدين» بنتائج خططك المبتكرة ، لقد أنقذت بلادنا ، وهذا يعني أنه لن تجري محاولة لاستلاب المجوهرات أو جمع

الأموال في المساجد ، إنك ستكون معروفاً من الآن فصاعداً باللقب الخاص (السفير) » .

فهمس الوزير في أذن الشاهنشاه :

ـ «ولكنْ يا جلالة الملك ، هذا الرجل متهم بالخيانة العظمى ، إن لم يكن متهماً بما هو أخطر من ذلك ! ولدينا دليل على أنه استخدم أحد ألقابك ولقب به امبراطور الهند ، وهكذا فقد انحرف عن ولائه لك وشوه لقبك» .

فزمجر الشاهنشاه قائلاً :

ـ «نعم ، لقد صدق الحكماء حينما قالوا «لكل كمال نقصان» ، لماذا أطلقت عليّ يا «نصر الدين» لقب «القمر الجديد ؟ » » .

قال نصر الدين : ـ «أنا لا أعرف شيئاً عن البروتوكول ؛ لكنني أعرف أن البدر يتضاءل نوره ، أما القمر الجديد فهو يستمر في النمو فأمجاده العظيمة تمضي قدماً» .

فتغيرت أسارير الامبراطور وزمجر قائلاً :

ـ «اقبضوا على الوزير الكبير أنور ، أيها الملا إنني أعرض عليك وظيفة الوزير الكبير ! » .

فقال «نصر الدين» : ـ «ماذا ؟ هل أقبل هذا بعد أن رأيت بأم عيني ما حدث لسلفي ؟ » .

ولكن ماذا حدث للمجوهرات والكنوز التي أغتصبها المخادعون الأشرار من صندوق الكنز ؟ تلك قصة أخرى .

وكما قال «نصر الدين» العظيم : «لا يبحث عن السبب والنتيجة في الرواية نفسها إلا الأطفال والبلهاء» .

أفعل أكثر من الضحك على الحمقى

أرسل رجل أحد الحمقى ليشتري الدقيق والملح ، فأخذ الأحمق معه طبقاً ليضع فيه ما يشتريه .

وقال له الرجل الذي أرسله :

ـ «تأكد من عدم خلط الدقيق والملح فأريد كلاً منهما على حدة» .

وملأ صاحب الدكان الطبق بالدقيق ثم بدأ في وزن الملح فقال له الأحمق :

ـ «لا تخلطه مع الدقيق ، هنا ، سوف أريك أين تضعه» .

ثم قلب الطبق ليضع البائع الملح ، فسقط الدقيق على الأرض وبقي الملح في الطبق .

وعندما عاد الأحمق إلى الرجل الذي أرسله قال : «إليك الملح» .

فقال له الرجل : «حسناً ، ولكن أين الدقيق ؟ » .

فقال له الأحمق وهو يقلب الطبق :

ـ «كان يجب على البائع أن يضعه هنا» .

وسقط الملح على الأرض .

وهكذا الحال مع الناس ، فهم إن فعلوا ما ظنوا أنه صواب لا يقوموا بما هو صواب بالفعل ، وعندما يحدث هذا بالنسبة للأفكار بدلاً من الأفعال يصاب الإنسان بالضياع مهما ظن بأن تفكيره منطقي .

لقد ضحكت على نكتة الأحمق ، ولكن هل تفعل غير الضحك ، هل تفكر بأفكارك نفسها كما لو كانت الدقيق والملح ؟ .

أسعد إنسان في العالم

كـان أحد الـرجال يعيش بـأمان وراحـة فذهب في يـوم من الأيام إلى أحـد الحكماء الذي أشتهر بمعرفته الواسعة وقال له :

ـ «أيهـا الحكيم الأكبر ، إنني لا أعـاني من مشاكـل مادية ، ومع هـذا فلا أحس بالاستقرار ، وقد حاولت في السنوات الأخيرة أن أحظى بالسعادة والجواب لما يدور في نفسي من أفكار ، وجربت الإحسـاس بالإلفـة في هذا العـالم ولكن دون جدوى ، فأبغي نصيحتك للتخلص من هذا القلق» .

فأجابه الحكيم :

ـ «إن ما هو خفي لبعض النـاس ظاهـر للآخـرين ، وما هـو ظاهـر لبعضهم يخفى على غيـرهم ، وعندي دواء لعلتـك ، لكنه ليس دواءً عـادياً ، فعليـك أن تقوم برحلات وأسفار عـديدة للبحث عن أسعـد إنسان في العـالم ، وعندمـا تعثر عليه تطلب منه قميصه وترتديه» .

وهكذا بدأ الرجل بحثه الدائب عن الإنسان السعيد ، وكان يستوقف الناس ويستجوبهم واحداً واحداً في كل مكان يصل إليه ، فكانوا يرددون القول نفسه :

ـ «نعم أنا سعيد ، ولكن يوجد من هو أسعد مني» .

وبعد رحلة طويلة من بلد إلى آخـر ، وصل إلى الغـابة التي قـال الناس أن أسعد إنسان في العالم قد عاش فيها ، وهنـاك سمع صـوت قهقهة منبعثـاً من بين الأشجار ، فأسرع الخطى حتى رأى رجلاً جالساً في بقعة خاوية فسأله :

ـ «هل أنت أسعد إنسان في العالم كما يقول الناس ؟ » .

قال الآخر : «نعم ، بالتأكيد» .

ـ «أنـا فـلان وحكـايتي كـذا وكـذا . . . ، ولقـد وصف لي الحكيم الأكبـر

علاجاً هو أن أرتدي قميصك فارجو أن تعطيه لي ؛ وأعطيك بالمقابل أي شيء عندي» .

فنظر إليه الرجل السعيد نظرة ثاقبة ثم استرسل في ضحكة طويلة ، وعندما هدأ قليلاً قال له الباحث عن السعادة :

ـ «هل أنت مصاب بلوثة في عقلك لتضحك على هذا الطلب ؟» .

قال الرجل السعيد :

ـ «ربما ، ولكن لو تكلفت مشقة النظر إليّ لعرفت أنني لا أمتلك قميصاً» .

ـ «إذن فماذا أصنع ؟ » .

ـ «سوف تشفى الآن ، إن السعي من أجل شيء لا يمكن الحصول عليه يؤدي إلى ممارستك رياضة روحية توصلك إلى ما تطلبه تماماً كما هي الحال عندما يستجمع شخص ما قواه ليقفز من فوق بركة للماء تبدو أوسع بكثير مما هي ، وعندئذ ينجح في عبورها» .

وفي هذه اللحظة خلع الرجل السعيد العمامة التي كان طرفها يحجب وجهه ، فوجد الرجل القلق أن أمامه الحكيم الأكبر الذي قدم له النصيحة أول مرة .

فسأله بحيرة شديدة :

ـ «ولكن لماذا لم تخبرني في كل هذه السنوات الماضية عندما أتيت لرؤيتك ؟ »

ـ «لأنك لم تكن مستعداً للفهم ، وكنت بحاجة إلى المرور ببعض التجارب التي كان يجب تقديمها لك بطريقة تحملك على الاعتقاد بوصولك إليها بنفسك» .

الخروف ومحفظة النقود

كان أحد الرجال يسير وخلفه خروفه ، فتسلل وراءه أحد اللصوص وقطع الحبل الذي ربط به الخروف وسرقه .

ولما عرف الرجل ما حدث ، بحث عن خروفه في كل الأماكن ، إلى أن وصل إلى بئر من الآبار ، فوجد عندها رجلاً بائساً ، ولم يدر بخلده أن هذا الرجل هو نفسه اللص ، فسأله ماذا يعمل هناك ؟

قال اللص :

ـ «لقد سقطت محفظة نقودي في هذه البئر وفيها خمسمائة قطعة فضية ، فإن قفزت في البئر وأتيتني بها أعطيك مائة قطعة فضية» .

فقال الرجل لنفسه :

ـ «عندما يقفل باب تنفتح للمرء أبواب أخرى ، وهذه فرصة لي تعادل عشر أضعاف ثمن الخروف الذي فقدته» .

وخلع ثيابه ثم نزل في البئر ، وهنا حمل اللص ثيابه وولى الأدبار .

الرومي .

الطائر الهندي

كان أحد التجار يملك طائراً في قفص ، وسافر التاجر ذات يوم إلى الهند موطن الطائر وسأله قبل السفر إن كان يريد شيئاً ، فطلب الطائر حريته ، لكن التاجر رفض .

فطلب الطائر منه أن يزور إحدى الغابات في الهند ليعلن للطيور الطليقة هناك أنه قد أصبح أسيراً .

ففعل التاجر ذلك ، ولكن سرعان ما وقع أحد الطيور البرية المشابهة لطيره

على الأرض فاقداً الوعي ، فظن التاجر أن الطائر من أقارب طائره ، وشعر بالأسى لأنه تسبب في موته .

ولما عاد إلى بيته سأله الطائر عما يحمل من أنباء طيبة فقال :

ـ «نعم عندي أخبار لكنها سيئة ، لقد انهار أحد أقربائك من الطيور في الغابة وخر صريعاً عند قدمي لما علم بأسرك» .

وعندما أنهى كلامه ، انهار الطائر وسقط في أسفل القفص .

وظن التاجر أن أخبار قريبه تسببت في قتله أيضاً ، فالتقط العصفور في حزن ووضعه على طرف النافذة ، وفي الحال انتعش العصفور وطار إلى شجرة قريبة وقال لصاحبه :

ـ «لعلك تدرك الآن أن الأنباء التي حملتها لي وظننتها أنباء «سيئة» كانت في الحقيقة أنباءً طيبة بالنسبة لي ، فقد حملت لي الرسالة التي كانت تقترح طريقة أتحرر فيها ، أيها الأسر» .

وأخيراً حلق الطائر بعيداً فقد نال حريته .

. . . .

القسم السادس

موضوعات المشاهدة الذاتية

موضوعات المشاهدة الذاتية

لقد اخترنا موضوعات المشاهدة الذاتية من أقوال الصوفيين وكتاباتهم لأنها حوت المادة الفكرية الملائمة للدراسة الذاتية .

كذلك فهناك فائدة أخرى لها لجماعة الصوفيين بعد أن يفهمها التلميذ .

لتصبح صوفياً

إذا أردت أن تصبح صوفياً يجب أن تطرح ما في رأسك من معتقدات ومفاهيم لمواجهة ما يمكن أن يحدث لك .

أبو سعيد .

ماذا يجب أن يأتي

لأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة في الدين التقليدي :

ما دام الجامع والمدرسة . . . لا تتهدم منهما الأركان وما دام الشك واليقين . . . يتناوبان في قلب الإنسان فكيف يمكن للمذهب في هذا الزمان .

أن ينتشر ، فيخرج مسلماً واحداً قوي الإيمان . . . !

أبو سعيد .

العبادة

يا رب .
إن كنت أعبدك خوفاً من الجحيم الفني فيه
وإن كنت أعبدك رغبة في جنتك فاحرمني منها .

رابعة العدوية .

الباب

قال صالح القزويني لتلاميذه :

من يدق الباب باستمرار لا بد أن يفتح له الباب
قالت رابعة بعد أن سمعت هذا الكلام :

ـ «إلى متى تقول : سوف يفتح ، إن الباب لم يغلق أبداً» .

الشبيه يدعو شبيهه

ذهب الحسن البصري لرؤية رابعة ، وكانت جالسة وسط مجموعة من الحيوانات ، ولما اقترب الحسن ، هربت الحيوانات ، فقال الحسن :

ـ «لماذا فعلوا هذا ؟ » .

أجابت رابعة : «لأنك كنت تأكل اللحم ، أما أنا فلم يكن عندي من الزاد إلا الخبز ـ الجاف» .

الثمار والشوكيات

النبات الشوكي بالنسبة للحمار ثمرة لذيذة
ويأكل الحمار النبات فيظل حماراً .
حبيب العجمي .

عندما التقي ابن سينا بأبي سعيد

التقي الفيلسوف بالصوفي ، فقال ابن سينا :

ـ «إنني أعرف ما يشاهد» .

فعلق أبو سعيد قائلاً :

«وأنا أشاهد ما يعرف» .

نداء الصوفي

استجب لنداء الصوفي كلما استطعت ذلك في هذه الحياة بقلب محب وصدق ، عندئذ تصبح آمناً في هذا العالم وفي العالم الآخر .

صالح حمزاوي .

الخبز

إذا كان لديك ضيف من الدراويش تذكر أنه يكفيه خبز جاف .

الحارث المحاسبي .

المنفعة

معظم بني البشر لا يعلمون ماذا يهمهم أن يعرفوا ، ويكرهون ما ينفعهم .

النسفي .

وجهة نظر

بالنسبة للخاطىء والسيء أنا شر ؛

ولكن في نظر الطيب أنا خير

ميرزا خان ، أنصاري .

المعلمون ، التعاليم ، المتعلمون

يتحدث المعلمون عن التعاليم

والمعلمون الحقيقيون يَدْرُسون تلاميذهم أيضاً
وقبل كل هذا فإن المعلمين يجب أن يُدرسوا
موسى كاظم .

الخدمة والسيادة

من لا يعرف شيئاً عن الخدمة لا يعلم أقل شيء عن السيادة .
الترمذي .

الفهم والشرح

إن إشارة بسيطة تكفي لمن لديه فهم
ولا تكفي آلاف الشروح لإفهام من ليس لديه نباهة .
الحاج بكتاش .

لمن سيكون درويشاً

لقد أصبح قلبي مضطرباً من العالم وما فيه .
ليس في قلبي متسع إلا للصديق
إذا أتتني ريح عطرة من الحديقة الوردية للوجود ، فسوف يخرج
قلبي من غلافه كالبرعم .
تكلم إلى الناسك في عزلته وقل له :
لأن حافة محراب الصلاة كانحناء الحاجب
فليس ثمة أختلاف حقيقي بين الكعبة وبيت المعبود
فأينما تنظر هناك الله .
إن وجود الدرويش ليس في شكل لحيته ورأسه :
إن طريق الدرويش في وجود كيفي .
يمكن للدرويش أن يحلق شعره دون ندم
لكنه درويش مثل حافظ يتخلى عن شعره .
حافظ .

التصوف

التصوف صدق وليس شكلاً

ابن الجلالي .

كيف يكون الإنسان كما يستطيع أن يكون

إن الصوفي يجب أن يكون كما يستطيع أن يكون ، فلا يتبع الوهم أو الخداع .

الصوفية تعني أن تكون واعياً لما تفعله ، فلا تعتقد أنك تعي مالا يعنيك ، والصوفية فن تهدئة ما يجب تهدئته وتغيير ما يمكن تغييره ، ولا تعنى بتهدئة ما لا يمكن تهدئته أو تغيير ما لا يمكن تغييره أو بعمل هذا الشيء أو ذاك في وقت غير مناسب .

إن سلوك الطريق الصوفي هو تعقب الوحدة في الوجود برغم الادعاءات التي تقول بالتعدد .

التصوف هو أن تأخذ بعين الإعتبار المعاني التي تبرز في التعدد ، دون التفكير بأن المظاهر الخارجية لهذا التعدد هامة في حد ذاتها .

ويمكن أن يدنو المرء من التصوف بدراسة العوامل التي تدخل في تعليم الإنسان كيفية التعلم ، لا بمحاولة الوصول إلى المعرفة دون ممارسة صحيحة .

إنك تصبح قريباً من الصوفية عندما تتكون لديك قناعة بأن العادة والإدراك المسبق شيئاً أساسيان في بعض أنماط الدراسات فقط ؛ فلا تحاول تكوين العادات والحكم بموجب إدراكات مسبقة غير ملائمة .

ويجب أن تحيط بالأمور البسيطة مثلما تحيط بالأمور الهامة ، وعليك ألا تبحث عن الأحاسيس الهامة فقط ، فبعض الناس متواضعون لأنهم يجب أن يكونوا كذلك ، وأكثر الناس شراً سواء من النساء أو الرجال هم الذين يتواضعون

ليفخروا بتواضعهم ، فلا يكون التواضع وسيلة لينتقل الإنسان بروحه إلى ما هو أسمى .

والطريقة الصوفية كما كانت دائماً تحفل بتبني القيم في أي مكان وجدت فيه ، وفي أي زمن ومع الأشخاص ذوي القيمة ، لا حباً في التقليد .

فنجاح الإنسان في رفع شأنه يأتي من خلال الجهد الصحيح والأسلوب القويم ، ولا يأتي النجاح بالتركيز على الطموح أو على كلمات الآخرين التي سبق توجيهها نحو بعضهم .

وهذا فخ ينصب للجانب الجاهل من الإنسان ، فيبدو منجذباً بقوة نحو رجل ما أو كتاب أو احتفال أو مؤسسة أو أسلوب ، غير أن هذا شيء غير صحيح .

السيد إمام علي شاه .

الخير والشر

«الوجود» هو الخير المطلق .

وإذا كان يحوي الشر ، فهو ليس وجوداً

الشبستري .

العلاج

إن داءك موجود في نفسك وأنت لا تلاحظه .

ومرضك كامن في نفسك ، لكنك لا تملك التحكم فيه .

الإمام علي .

العالم

ليس للعالم وجود إلا كمظهر

فهو من أقصاه إلى أقصاه كرياضة تمارس أو مسرحية تمثل .

الشبستري ، جُلْشَانْ ـ راز .

الإرشاد

إذا كان معلمك يرشدك هكذا ، فاصبغ سجادة صلاتك بالخمر .
على السالك ألا يجهل دقائق المراحل .
حافظ .

الأدب الصوفي

هناك ثلاثة طرق لتقديم الأشياء .
الأول تقديم كل شيء .
والثاني تقديم ما يريده الناس
أما الثالث فهو تقديم ما يخدمهم بشكل أفضل .
وإذا قدمت كل شيء فربما كانت النتيجة التخمة .
وإن قدمت ما يريده الناس فربما أترعوا ، وإذا قدمت لهم خدمة مثلى فأسوأ ما في الأمر أن يعارضوك بسبب سوء فهمهم لك ، ولكن إذا قدمت لهم الخدمة ، فأنت أيضاً يجب أن تستفيد مهما كانت الظروف .

أجمل البَذَخشاني(*) .

البحث

لا يفهم لغة الورد إلا الطير .

ولا يعرف كل قارىء المعنى الباطني للصفحة المكتوبة .
أنت يا من تتعلم فصل الحب من كتاب المعرفة .
أخشى ألا تعرف كيف تفهمه جيداً بالبحث .
حافظ .

(*) ينتمي إلى إقليم جبل بَذَخشان .

الخرس

إنه يأخذ اللسان من أولئك الذين يقتسمون السر :
فلا يعودوا مرة أخرى للحديث عن سر المَلِكْ .
نظامي(*) .

اللؤلؤة

ماذا يعرف الناس عن اللؤلؤة الثمينة ؟
يا حافظ ، لا تقدم الجوهر النفيس إلا للأصفياء .
حافظ .

السعادة والحزن

من يملك شيئاً من المعرفة ولو كان قليلاً فهو سعيد ، ومن أُخذت منه المعرفة فهو حزين .

ابن إدريس الشافعي .

الطيبة الحقيقية

خير لك أن تصحب الطيبين من أن تصبح بالصورة الطيبة التي تتخيلها .

ورفقة الأشرار أكثر شراً من عمل الشر .
أبو يزيد .

الموت

تذكر الموت عندما تنام وعندما تستيقظ ، فكر بأنك لن تعيش طويلاً .

أويس القرني .

(*) هو نظامي الكنجوي ، شاعر يتحدث بطريقة المتصوفة وأسلوبهم منذ بداية أشعاره ، كان يعيش في كنجة بإقليم آذربيجان ، لم يحظ بكثير من الدراسات والتحقيقات كغيره من شعراء الفارسية .

تعليق على أحد النساك

لقد ركز نفسه فوق إحدى الجبال
فليس لديه عمل يقوم به .
يجب على الإنسان أن يخرج إلى الميدان
وهو مستمر في عمله بأصالة حقيقية .
سهل التستري .

ثمانية صفات للصوفي

يجب أن تتوفر في المتصوف ثماني صفات :
سعة في العقل مثل سعة تفكير إبراهيم ؛
وأن يقبل المقسوم كما فعل إسماعيل ؛
والصبر كما كان أيوب ؛
والقدرة على الإتصال بالرمز كما كان لزكريا ؛
والغربة عن الأهل كما كانت حالة يوحنا ؛
ولبس الصوف كمعطف موسى ؛
والتجول في الأرض كما كان يسوع المسيح ؛
والتواضع مثلما كان محمد متواضع النفس .
الجنيد البغدادي .

حيث ذهب

رأيت طفلاً يحمل ضوءاً .
سألته من أين أحضره
فأطفأه وقال :
الآن أخبرني أنت ، أين ذهب الضوء ؟ .
الحسن البصري .

الصلات

الأشخاص المتشابهون بالألفة فيما بينهم ، أما تجاذب الأضداد فهو حالة مخالفة ، لكن أولئك المتشابهين على خطأ من وجهة نظر السطحيين وخطؤهم أكبر من خطأ أولئك المختلفين ، فمثلاً يطمع الإنسان بالحب ، ويطمع آخر في أن يُحَبّ .

ويتخيل المفكر المادي أن هذا مختلف ، لكن العكس هو الصحيح ، فالعامل الشائع لدى الأثنين هو الطمع .

إن الشخص ذي الشهرة وتابعه متشابهان فأحدهما يعطي اهتمامه والآخر يجذب الإنتباه إليه ، وكلاهما قيد بسلاسل الإنجذاب ، إنهما ينطلقان معاً ، حمامة مع حمامة ، ونسراً مع نسر» .

السيمابي .

الغنى

ليكن هدفك هو المعرفة ، فإذا فقدت ثروتك تكون المعرفة هي ثروتك ، وإذا أصبحت من الأغنياء تكون زينة لك .

الزبير بن أبي بكر .

التلمذة

يمكنك أن تكون إنساناً حقيقياً بمرشد .

وتبقى حيواناً دون مرشد .

فإذا استطعت أن تقول : «لا يمكنني الخضوع لأي شخص» .

فلا زلت غير كفء لسلوك الطريق .

ولكن إن قلت : «أريد الخضوع بشكل خاطىء فلست الآن جديراً بالطريق ، وسوف تتوه .

ذو الفقار بن جانجي .

«أنا»

تبـدأ المعرفـة من عبارة «مـاذا أكون ؟ » إلى عبـارة «لا أعلم ماذا أكـون» ، وبينهمـا التسـاؤل التـالي : «لمـاذا لم أكن ؟ » و«سـوف أجـد نفسي» ، وبينهمـا أيضاً : «أنا أكون» ، وعبارة «أنا كما أعرف نفسي» . إلى عبارة «أنا أكون» .

أبو الحسن الشاذلي .

تغيير صغير

عندما يكون الإنسان متسولاً تكون النقـود القليلة لديـه ثروة ، لكنهـا ليست كذلك ، ولكي يترفع عن التسول يجب أن يترفع عن النقود القليلة حتى لـو كانت وسيلة ، فإذا استعُمل المال كفاية ففي هذا نهاية الإنسان .

ابن إقبال .

ما هو الشيء الذي يحفظك

المعرفة أفضل من الثروة ، فالثروة يجب العناية بها ، أما المعرفة فهي التي تُعنى بك .

علي .

أمور هدامة

ثلاثة أشياء تحطم الإنسان في الحياة :
الغضب ، الطمع ، الإعتداد بالنفس .
النبي محمد (ص) .

....

مذكرة في التصوف : مباحث تأملية

الخدمة

الخدمة هي تقديم الواجب دون فرح أو إكراه ، والإنسان الذي يقوم بواجبه ليس عبد مستَثمر ، أو شخص يطمع بالجزاء ، وسيجني الناس الفائدة الممكنة من تقديم الواجب ، فإذا طرحوا جانباً المتعة التي يحسون بها عند تأدية الواجب وتأديتهم له بشكل ملزم ، لا بد أن يستفيدوا من المضمون الآخر للخدمة ، وهو الذي يرتقي بإدراكهم .

البحث

البحث عن الحقيقة هو أول مرحلة لإيجادها ، وبعد البحث تأتي مرحلة التأكد من أن الحقيقة تسعى هي أيضاً إلى الباحث نفسه ، أما المرحلة الثالثة وهي المرحلة التي يتعلم فيها التصوف من الطريقة الصوفية ، فتكون عندما يصل التعلم إلى مرحلة معينة ، عندما يدرك الباحث أنه قد حصل على المعرفة في نطاق مأوراء «البحث» و «الإيجاد» أو «الإستقصاء» .

الجهد

هناك العديد من الأشكال للجهد والعمل ، وإحدى مقومات وجود المرشد هي أنه يعرف الوقتَ المناسب لتوجيه جهد التلميذ وعمله والوقت غير المناسب

لذلك ، وكما يعرف نوع الجهد والعمل الذي يجب أن يقوم به كل إنسان ، أما الجاهل فهو وحده الذي يرى أن العمل النافع أو الجهد الإضافي الذي يبذله المرء في أي وقت يشاء ، ولو كان جهداً بسيطاً في وقت ملائم ، شيء غير صحيح .

الحب الأعمى

يحدث الحب «الأعمى» عندما يركز المرء انتباهه على شخص أو شيء في وقت ما ومن قبل أحد الأشخاص في وقت غير مناسب ، فيحسب المرء أن أداة نقل الفكر كافية ، ومعظم الجماعات تشجع الحب الأعمى عن دراية أو غير ذلك ، ولهذا السبب فإن الصوفيين بحاجة إلى رعاية مستمرة من ناصح مخلص يوجه انتباههم حسب الإمكان .

التلمذة

التلمذة مطلوب أساسي في الطريقة الصوفية ، على أنه يجب التمييز بين أولئك الذين يتخيلون أنهم يجب أن يكونوا تلاميذ ، وبين أولئك الذين يمكنهم بالفعل أن يكونوا تلاميذ لأولئك الذين ظهر طمعهم الخفي ، كما يجب أن يعرفوا أين ومتى يجب أن تحدث هذه المرحلة بشكل مفيد .

الأستاذية

إن الطريقة التي يستخدمها المعلم أو الأستاذ في التعليم مبهمة بالنسبة للطلاب في كثير من الأحيان لأنهم يحاولون فهم بعض الأشياء بصفة عامة ، لكنهم في الحقيقة بحاجة ملحة لنتائج هذه الأشياء أو الأعمال ، ودون هذه النتائج لا يمكنهم جني ثمارها .

العشرة

العشرة في الإنسانية ، العشرة في التحول الروحي ، أما أولئك الذين يفتقرون إلى العائلة أو إلى أي نوع من أنواع الرفقة أو العشرة ، فيبحثون عنها ولو

كان ذلك في الأماكن والأوقات التي يكون فيها الإتصال بالآخرين مقيداً من أجل التحول الروحي

ولا يدرك هذا إلا قليل من الناس ، لأن كلمة العشرة أو الرفقة تستعمل بصفة عامة للإشارة إلى حالتين تختلف كل منهما عن الأخرى إختلافاً تاماً .

الأدب

إن الإشارات إلى الإستخدامات المحلية للأدب تؤخذ على أنها استخدامات عامة أو عالمية ، وعندما يقول أحد المعلمين «أجتنب الأدب» فهو يتحدث عن جمهور ووقت معين ، أما الفاشلون من تلاميذه فهم الذين يسيئون فهم الأدب ويحتفظون به كمفتاح لفهمهم ، ويفعل بعضهم عكس هذا فيقولون :

ـ «لقد أنكر المعلم الأدب ، لذا فسوف ننكره جميعاً وبصفة مستمرة» .

الرياضة الروحية

يسيطر الطمع على الإنسان ولو أخفى هذا الطمع ببراعة ، ونجد أن أولئك الذين يتخيلون أن الرياضة الروحية هي المدخل إلى المعرفة طامعون ، فالرياضة الروحية لأزمة لزوم استخدام يد فقدت إصبعاً أو إصبعين .

المظاهر

يحكم الإنسان العادي على شخص ما لا بما في داخله ولكن وفقاً لأفعاله وتصرفاته الظاهرة وبما يقول عنه الناس ، ومع ذلك فهذا الأسلوب ملائم في بعض الأحكام وليس كذلك في الأحكام الأخرى .

فالإنسان يبدو كما يعرفه الآخرون ، فمثلاً لو كان هناك رجل يحمل عصا ذات مسامير فهو ليس بالضرورة مجرماً ، وربما كان يعمل سائقاً للفيلة .

وفي كثير من الأحيان يخالف الأصفياء القواعد السطحية للمظهر كي لا يتأثروا بتصرف الجماعة بمقياسه المصطنع ، وليبرهنوا في بعض الأحيان أن

السلوك وحده لا يكفي لتفسير ما في داخل الإنسان .

الدين والعقيدة

ربما أطلقنا اسم «المتدينين» على أولئك الذين يعتبرون من المؤمنين أو من المتدينين ، وأولئك الذين يتصرفون كمتدينين بحكم العادة ، على أننا لا يمكن أن نعتبرهم من المؤمنين ، فإن كانوا حقاً مؤمنين فيجب أن نستعمل كلمة أخرى للتعبير عن هذا الإيمان الذي لا ينتقل إلى الابناء من الآباء أو من المحيطين بهم .

الحب

إن ما نسميه بصفة عامة «الحب» ربما يكون ضاراً بالمحب والمحبوب ، فإذا وصل الأمر إلى هذه النتيجة ، فهذا الحب في نظر الصوفي ليس حباً وإنما هو «علاقة» يكون المرتبط فيها بالحب غير قادر على القيام بتصرف آخر .

على أن الحب له قوى كثيرة ، كما أن له مستويات عديدة ، فإذا كان المرء يعتقد أن ما يشعر به هو الحب ، فسوف يحجب نفسه عن أي تجربة للحب الحقيقي وإذا كان قد شعر فعلاً بالحب الحقيقي ، فلن يرتكب خطئاً في الإعلان عنه للتعريف به كحب جسدي أو ميل عاطفي .

دراسة التصوف في العالم

التصوف دراسة غير مدرسية ، تؤخذ موادها من كل أشكال التجربة الإنسانية أما كتبها فلا تمثل شيئاً مما يحلم به المدرسي ، ونظراً لأن هذا النمط من الدراسة يتضمن كتباً وجهداً وتدريساً ، ولأننا نطلق على معلمي الصوفية لقب «المعلمين» فإن حقيقة الاتصال المحدد قد أختلطت بالدراسة الأكاديمية أو التقليدية ، ولهذا فهناك «دراسة التصوف» و «الدراسة العادية» ، وهما يختلفان عن بعضهما .

ويمكن تشبيه هذا بالفيل والفأر ، إذ يُطلق عليهما الاسم نفسه ، فهما

متشابهان إلى حد ما في أنهما من (الحيوانات ذات اللون الرمادي والذيل) ، ولذلك يجب التمييز بين الدراستين ، ويتم هذا في الحلقات الصوفية .

مجالس الدراويش

يتخيل التلاميذ السطحيون أن الدراويش المجتمعين في المجلس من منزلة واحدة ، أو يعتقدون أن أي درويش أو متصوف يمكنه حضور إجتماع لمتصوف آخر ، ويكمن الفرق في المكانة وحدها ، والحقيقة أن المجموعة المكونة للحلقة على جانب كبير من الأهمية للحلقة نفسها ، والمنزلة في الطريقة ربما كانت جيدة في إحدى المجالس الصوفية وغير جيدة في غيرها .

وهذا هو السبب في أن معلمي الصوفيين ربما كانوا في إحدى الحلقات يقومون بدورهم كمعلمين وفي حلقات أخرى ليسوا سوى تلاميذ .

أما المجموعات التي تتألف من الفرق المتحمسة للدين والدارسين للتصوف فيطلق عليها إسم «حلقات الدرويش» لكنها خطوة تمهيدية للحلقات الصوفية .

الفرق بين المدارس الصوفية

هناك كثير من الكتابات والأقوال عن الاختلافات في الآراء والتعاليم والمؤلفات الصوفية بين المتصوفين ، إذ توجد فروق ظاهرية دعت إليها الظروف والبيئة ولكن ليس ثمة فرق أساسي .

وربما كان الجدل حول الاختلافات بين الصوفية ضرب من الغباء ، ويشبه الجدل الذي يدور حول حياكة معطف من المعاطف من هذا القطن أو ذاك ، فالاختلافات ليس لها أهمية .

المثل أو الحكاية الرمزية ، الإصطلاح ، الإستعارة

إذا تحدث إليك معلمك بلغتك الأصلية فإنك تعتبر الكلمات التي

يستخدمها في حديثه لغة اصطلاحية ، وليس المقصود تحليلها من الناحية اللغوية .

وعندما يضرب لك مثلاً أو يأتي بحكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي فعليك أن تدرك معانيها قبل استخدامها ، وعندما يتحدث أحد المعلمين عن شيء ما بالرمز أو الاستعارة ، فالمقصود التعبير بكلام مجازي .

المستويات الرفيعة للفهم

إذا استخدمت ذكاءك العادي في حل لغز يتعلق بشيء مبهم حول الصوفية لا تفهمه فسوف تضل ، واستخدام الذكاء في هذه الحالة براعة غير لازمة .

فالفهم يتم في حالة انتصار المرء ذهنياً على ما يسبب له الحيرة ، وكثير من التجارب والاختبارات كان مصيرها الفشل لأنها كانت نتيجة ذهن حاد ، فاحذر من ذلك .

القلق وراحة البال

لا يقلق الإنسان إلا إذا كان هناك سبب يدعو للقلق ، فإذا كنت تسبب قلقاً للآخرين فإن هذا يعود إلى اعتقادهم بأنك مسبب للقلق بحديثك أو سلوكك ، فإذا كنت لا تكترث بمصدر القلق فإما أن تكون جديراً بالثناء أو بالاستنكار ، فإذن لا يمكنك أن تحكم على القلق .

الحالات

«الحالات» في الأساس ثلاثة : تخيل ، عبقرية وشطح ، والشيخ الصوفي كالطبيب يعرف كيف يعالج الحالة المرضية بدراسة أعراضها ، ويدرك الرغبة في الانغماس بأي حالة من «الحالات» .

ومن الحماقة الشديدة الافتراض بأن وجود أو غياب «حالة» من الحالات ، هو في حد ذاته مؤشر لشيء طيب أو سيء .

المطالعة ، السماع ، الحضور

يُفترض أن المؤلفات الصوفية التي يستعان بها في دراسة التصوف ، تتوفر فقط ولكن دون ردود فعل قوية في إحدى مجالس الحكيم .

وربما كان المقصود في بعض الأحيان قراءتها وفي أحيان أخرى سماعها .

وربما كان القارىء أو العازف شخصاً خبيراً وربما لم يكن كذلك .

إن هذا العلم يقيني ولا يختبره إلا الحمقى .

التوبة

التوبة هي تحول المرء عن شيء كان يجذبه بقوة ، أو استغنائه عنه تماماً ، على أن السعادة التي يشعر بها المرء لدى التوبة في معظم الأحيان أسوأ من الأثم نفسه ، ولا يرجى من أولئك الذين يفخرون بإصلاح أنفسهم أن يتقدموا في تحسنهم .

والتوبة الجاهلة هي الشعور بردود فعل قوية تجاه الاستغناء عن شيء ما أو البحث عن المغفرة لشيء ما ، وهناك ما هو أرقى من ذلك ، هناك توبة الحكيم التي تقوده إلى مزيد من المعرفة والحب .

الأمل والخوف

التنقل بين الأمل والخوف هو أول حالات التصوف (أي الخوف من الله والأمل في غفرانه) ، أما أولئك الذين يستقرون على هذه الحالة فهم كالكرة التي تتدحرج من أول الملعب إلى آخره .

ولهذه التجربة فوائدها التي تأتي بعد فترة ومساوئها أيضاً .

لكن الهدف هو إتباع الطريق دون أدنى خوف أو أمل ، فالهدف الأسمى

يكون عندما لا تكون هناك رشوة أوعصا .

بعض الناس يحتاجون إلى الأمل والخوف وهم أولئك الذين وصُف لهم الأمل والخوف .

بهلوان الضيف .

. . . .

القسم السابع
ذكر جماعي

ذكر جماعي

المحفوظات الجماعية نصوص منتقاة من المؤلفات الصوفية الموجودة ، وتبرز قيمتها لدى تلاوتها والتمعن فيها بشكل جماعي ، كما أنه يمكن دراستها من قبل التلميذ منفرداً .

الثمن

سمع إبراهيم بن أدهم شيخان من المتصوفين يتجادلان فقال لأحدهما :

ـ «لقد ضاعت حياة الزهد بينكما ، لا بد أنكم حصلتم عليها بأبخس الأثمان ، ولهذا السبب لم تقدروها حق قدرها» .

فسخر منه الدرويش وقال :

ـ «وما هو هذا الثمن ؟ هل دفعتُ أنتَ ثمن كونك درويشاً ؟» .

فقال إبراهيم : «يا أخي ، لقد دفعت ثمناً للتصوف هو مملكة بلخ ، ومع ذلك فقد اعتبرتُ هذا الثمن رخيصاً» .

البستاني

كان «إبراهيم» يعمل في يوم من الأيام كبستاني ، فطلب منه سيده أن يعطيه بعض حبات من الرمان ، فأحضر إبراهيم حبات كثيرة ، لكنها كان حامضة

المذاق ، فقال له السيد :

ـ «قضيتَ في خدمتي كل هذه الفترة الطويلة ولا تعلم أياً من الرمان حلو المذاق ؟ » .

فأجاب إبراهيم :

ـ «لقد استخدمتني لأعتني بها لا لأذوقها ؛ وما أعرف الحلو من الحامض» .

«عندئذٍ أدرك صاحب البستان أن هذا الرجل لا بد أن يكون إبراهيم بن أدهم» .

النُزُل

ذهب «الخضر» ذات يوم إلى قصر الملك وتوجه إلى العرش ، وكان مظهره غريباً فلم يجرؤ أحد على إيقافه ، فسأله الملك الذي كان هو نفسه إبراهيم بن أدهم عن طلبه فقال :

ـ «أبحث عن مكان للنوم في هذا النُزُل» .

فأجابه إبراهيم : «هذا ليس نزلاً ، إنه قصري» .

فقال الغريب : «لمن كان قبلك ؟» .

قال إبراهيم : «لأبي» .

ـ «وقبل ذلك ؟ » .

ـ «لجدي» .

ـ «فهل تدعو هذا المكان الذي يأتي إليه الناس ويمكثون ثم يرحلون شيئاً آخر غير النُزُل ؟ » .

الكتاب

حلم إبـراهيم ذات ليلة أنه رأى المـلاك جبـريـل يحمـل كتـابـاً في يـده ، فسأله :

ـ «ماذا في الكتاب ؟ » .

قال جبريل : «في هذا الكتاب أسماء أحباب الله» .

فسأله إبراهيم : «وهل اسمي موجود بين هذه الأسماء ؟ » .

فرد الملاك : «يا إبراهيم ، أنت لست حبيباً لله» .

فسأله إبراهيم : «إذا كان الأمر كذلك فأنا صديق لأحباب الله» .

فلم ينبس جبريل ببنت شفة ، لكنه كلم إبراهيم فقال :

ـ «لقـد تلقيت تعليمـات كي أسجـل أسمـك على رأس هـذه القـائمـة من الأسماء ، إن الأمل يأتي من شدة الحاجة إليه» .

الدين

يختلف الـدين حسب مفهوم علمـاء الـدين أو خصـومهم عمـا يُفترض أن يكون ، فالدين أداة نقل فكرية ، صممت تعاليمه الأخلاقية ومـا يحمله من تعاليم أخرى ، ومن تعابير وطقوس لتحـدث تأثيـرات منعشة منشـطة في زمن معين وفي مجتمعات معينة ، ولصعـوبة الـوصول إلى علم الإنسـان فقد نشأ الدين كـوسيلة للإقتراب من الحقيقة ، وقد كـانت الوسـائل دائمـاً بالنسبـة للإنسـان الضحل هي الغـاية ، وأضحت أداة النقـل الفكري هي المعبـودة ، ولا يمكن أن يحـرك هـذه الأداة إلا رجل الحكمة ، أما رجل العقيدة أو العلم فلا يمكنه ذلك .

الصلاة

يقدم الشيخ سيماق هذه التلاوة للمصلي :

لا يمكن لـلإنسان أن يصلي إلا حسب استـطاعته ، فـإذا كـان وحـده ، أو

تـعـلم الصلاة من خـلال الكتب أو الحلقات الـدينية ، فلن يستـطيـع فهم حقيقـة الصلاة أو الانغماس في الصلاة الحقيقية .

أما الإنسان الذي تعلم كيف يصلي صلاة مقرونة بـإشراق روحي ، فيمكنـه أن ينقـل شيئاً من هـذا الإشـراق لشخص آخر ؛ فيتعلم الصـلاة الحقيقيـة وينمـو إحساسها في نفسه .

إن الصلاة المكتوبة لا معنى لها .

معنى الثقافة

المفهوم الصوفي للثقافة ليس مفهوم الإنسان العادي ذي التفكير المحدود .

يتحدث الشيخ «أبو نصر السراج» عن أشكال ثلاثة للثقافة هي :

الثقافة الدنيويـة ، وتنحصر في الحصـول على المعلومات والأفكـار والعلم التقليدي ، والثقافة الدينية وهي حافلة بالتكرار ، وتتبـع القواعـد والنظام ، وتـأمر بالسلوك المقبول من الناحية الأخلاقية ، والثقافـة الصوفيـة وهي تطويـر للذات أو النفس وتأمل وتركيز ، وغرس للتجربة الباطنية وتتبع لطريق البحث والتقصي .

ماذا تُعلِّم الصوفية

تعلم الصوفية الإنسان كيف يطهر نفسه ويحسن أخلاقه ويبني حياته الباطنية والظاهرية ليحصل على السعادة الدائمة .

وتهدف الصوفية إلى تطهير الروح ، أما غايتها القصوى فهي الحصول على النعيم والسعادة الأبدية .

شيخ الإسلام زكريا الأنصاري .

الاختيار

الاختيـار أو (الاصطفـاء) هـو إفـراغ القلب من كـل شيء عـدا البحث عن الكمـال ، فتتخيـل أن الجسم فـارغ وأن كـل الأفكـار قـد غـابت عنـه للحـظة ،

فانسابت إليه الأفكار الحقيقية .

الهجويري .

الطريقة التي قدموا فيها تعاليمهم

لا تتوقع أن تكون الطريقة التي قدم فيها الصوفيون تعاليمهم برمتها ضمن طريقتك العادية في فهم الأمور ، يمكن للمرء أن يحمل لؤلؤة في محفظة من الجلد ، فيصيح الجاهل : هذا الشيء المربع ذو الحاشية لا يبدو كقلادة العنق التي وصفها لي الناس .

عارف يحيى .

سئل «نظام الدين» أوليا لماذا لم يظهر الشيخ فلان للعيان ، ويكرس حياته للدين فقال :

ـ «يدفن الملوك كنوزهم في مكان واحد من مكانين ، الأول والواضح للعيان هو الغرفة المنيعة التي يمكن أن يسطو عليها اللصوص فيسلبوا ما فيها أو يغتصبوها ، والآخر وهو الأكثر بقاءً هو أرض خربة لا يفكر أحد في البحث عن كنز فيها» .

أقوال صاغها عثمان المغربي

أيها المصطفى ، أيها المصطفى .

(أيها الكامل ، أيها الكامل ، يا قائد مسيرتنا !)

باسم الصديق !

نقول لسلاسل الأولياء ، لقادة الطرق ، للمناضلين من أجل الحق

للمتصوفين في الماضي والحاضر

وننشد قدرة البركة في المجتمع والصالحين في مجتمعنا

ونهدي نشاطنا اليوم لعميق الشعور بكل أشكال الوجود !

يمكن أن نبدأ الابتهال .

ونتمنى حصول البركة في المجتمع وبركة الشيوخ العظماء في مجلسنا .

ونهدي نشاطنا في هذا اليوم إلى أعمق المشاعر في كل أشكالها الوجودية !

يمكن البدء بالابتهال الديني .

التصوف الأبدي

لقد كنا نشرب الخمر في ذكر الصديق
وذلك قبل أن يخلق الخمر .

ابن الفارض .

بذور المعرفة الصوفية

نشأت البذرة الحقيقية للتصوف في عهد آدم ، وهي أعجوبة الحياة والوجود ، وقد نبتت هذه البذرة في عهد نوح ، وهي معجزة النمو ، وأصبح لهذه النبتة في زمن إبراهيم أربعة فروع وتلك معجزة الإنتشار والبقاء ، وشهد عهد موسى منشأ العنب وهذه معجزة الفاكهة .

أما عهد عيسى فقد شهد نضوج المحصول وهذه معجزة الذوق والفرح ، أما عهد محمد (ص) فقد شهد عصير العنب الصافي ، وهذه معجزة الوصول والتحول الروحي .

أبو يزيد البسطامي .

في حضرة الحكيم

إنك تكتسب طاقة كبيرة أكبر مما تظن ولو كنت جالساً في صمت بمجلس أحد الحكماء بما تفكر من تفكير عادي .

ميرزا عاصم .

الهدف

أيها العارف

إن المعنى الخفي في الوجود كشجرة باقية

والإنسان هو الفاكهة المخبئة في أعماقها

والهدف الموجود في الغصن ـ أيها الإنسان الذي ليس له معلم هو

الفاكهة الناضجة ، وليس شجرة أخرى فحسب .

أبلهي مطلقتار .

إلى الأمير

لقد شرفت عقلي أيها الحظ

وبهذا الكتاب ارتقيت بتفكيري .

إن فكرة وجودك معي لم تكن فكرتي

لقد فتحت باب ملكوتي

وأريتني كنز الرشاد

لقد كنا معاً في هذه الرسالة

التي أرسلتها إلى الملك

لقد تفوهتُ بهذا الكلام الرفيع

عندما كبحتَ أفكاري الوهمية .

فاستحسنه الملك مئة مرة . .

عندما تأمل فيه .

من كتاب «حالنامة» لعارفي .

مجالس الحكماء

يشغل الإنسان نفسه بدراسة الكتب والحقائق ، وسوف يشغل نفسه هو أوغيره بالرياضة والمجاهدة الروحية ، وفي الحالين يتشابه الإحساس بما أنجزه

وبمغزى هذا الإنجاز ، وكما أنه يجب أن يتوفر لدينا وعاء ، إذا كان لدينا شيء نريد تعبئته ، ومقياس نقيس به ، كذلك الإنسان إذا استخدم هذه الأشياء بشكل صحيح فلا بد أن ينجح نجاحاً حقيقياً ، ولا يجد الإنسان نفسه إلا بهذه الطريقة وحدها ، ويعتقد أنه قد وجد نفسه بطرق أخرى ، أو أنه في الطريق لإيجاد نفسه ، أو أن شخصاً ما يمكن أن يساعده في إيجاد نفسه .

ولا يعنينا هؤلاء الناس إلا أننا نعجب بهدوء تفكيرهم وصحة أجسامهم ، ولكي يتوصل الإنسان إلى المقياس الذي أتحدث عنه ، عليه أن يرتاد مجلساً للحكمة ففي هذا المكان بالذات وليس في أي مكان آخر نحصل على المقياس الذي نزن به الأمور .

إذن ! لقد أخذت حذرك ، والآن أبحث عن مجلس الحكمة وسوف تجد مجلساً تنسجم فائدته الحقيقية مع إخلاصك ، إلا إذا كنت منافقاً فتسقط مع المنافقين ، مهما كان مظهرهم يبدو لك ، ومهما كان مظهرك بالنسبة لهم ، أو مهما كنت في نظرهم ، أو مهما كانوا في نظر بعضهم البعض .

قالا ندر بهادر شاه .

كيف يفشل البحث عن المعرفة

يفشل البحث عن المعرفة بسبب التظاهر ، فهناك ما يعرفه الإنسان داخل نفسه وهو لا يعرفه كما هو ، ويتظاهر بفهمه أو عدم فهمه .

ولا يدرك أنه بحاجة إلى نوع من الإعداد ، وهذه المعرفة الجزئية تكون في بعض الأحيان أسوأ من الجهل التام .

وهناك أيضاً ما لا يعرفه المرء ، وما لا يمكن أن يعرفه في مرحلة من المراحل ، ومع هذا يظن أنه يعرفه ويبحث عنه أو عن شبيهه ، ويتظاهر بالمعرفة لأنه لا يملك أداة لقياس الأمور .

من إحدى دراسات الطائفة العظيمة من الدراويش .

مقدمة للإدراك

أيها الصوفي ! لا يصبح الخمر صافياً إلا بعد أربعين يوماً .
يجب على المرء أن يكون سليمان قبل أن يبدأ خاتمه السحري بالعمل .
حافظ .

الأعراض

يشعر رجل بصداع ويشعر آخر بعدم وضوح في الرؤية ، وسبب هاتين الحالتين هو الغذاء غير الصحيح .

قل لهما : «إن جهازكما الهضمي غير منتظم» .

عندئذ سيقولان لك معاً : «اذهب بعيداً ، أيها الأحمق ! فنحن نبحث عن الراحة للرأس والعين لا عن الأمور السخيفة » .

حمامي .

التذكر

كل شيء يعتمد على التذكر ، إن المرء لا يبدأ بالتعلم بل بالتذكر والبعد الموجود بين الحياة الباطنية وصعوبات الحياة تجعل الإنسان ينسى ، ولهذا أمرنا الله بالذكرى ، فقال : «اذكروا ! » .

الشيخ إسماعيل حقي .

مشكلة الموسيقى

لا تتمرن على الموسيقى إذا كان هذا التمرين يعوقك عن الأشياء التي هي أرقى وأسمى .

ابن حمدان .

كلمات طائشة

إننا نستعمل طريقة في التعبير عندما نتحدث إلى الناس العاديين لأننا لا نستطيع التعبير عن خبراتنا بتعابيرهم العادية .

وأنا أعلم ما لا يمكن وصفه بكذا وكذا ، وأعرف ما فيه فهو يقهر كل التعاريف العادية .

ابن عطاء .

الذرة

حطم قلب أي ذرة ، وسوف ترى في وسطها شيئاً لامعاً كالشمس ، فإذا أعطيت كل ما تملك للحب ، فسأكون وثنياً لو كنت تقاسي مثقال ذرة من الضياع ، إن الروح التي عبرت من خلال نار الحب الإلهي ستريك انتقال الروح ، وإذا تخلصت من الآفاق الضيقة فسوف ترى «زمن ما لا مكان له» ، وتسمع اللامسموع وترى اللامرئي حتى توصلك إلى مكان ترى فيه «عالماً» و «عوالم» كأنها عالم واحد ، فتفضل أن تتحد مع قلبك وروحك ، لترى بعين الحقيقة وحدة الوجود . . .

السيد أحمد عاطف .

أنت هناك

أنت هناك ـ في تضاؤل النور في غسق الصحراء . .

أنت هناك ـ ترقب الواجبات المرهقة من طقوس المجوسي . .

أنت هناك ـ ترقب الحركة التي تستجيب لحركة أخرى . .

أنت هناك ـ لا في الكتاب المنسوخ بل في الابتسامة له . .

أنت هناك ـ بنعمة المنعم لا بفكر المتعم .

أنت هناك ـ في ما بين السؤال والجواب لا فيهما

أنت هناك ـ بين الخطوات المتثاقلة للفيل . .

أنت هنـاك ـ في الإنسجام ، في الحب ، في الـوجود نفسـه ، في الحق ، في الحقيقة المطلقة .

أنت هناك ـ في اللؤلؤة التي يستخرجها هاوي المحار .

أنت هناك ـ في عدم قابلية التفسير لعدم التناغم ، في التغير الظاهر .

أنت هنـاك ـ في التداخـل ، في النبض ، في الجمال والصمت والهـدوء ، في الإنسجام وعدم الإنسجام .

أنت هناك ـ في الوهج ، في الشرارة ، في الشعلة المنـطلقة ، في الـدفء والنار ، في الهدوء والثورة .

هيكلي .

الوصول إلى مرتبة الحق . . .

لا يصـل أحد إلى مـرتبة الحق مـا لم يشهـد ألـوف الأمنـاء من النـاس أنـه هرطقي .

الجنيد .

الموت لا يزور الإنسان إلا مرة واحدة فكن مستعداً لمجيئه .

أبو شفيق البلخي .

الطاعة

أدنى شكل من أشكال الطاعة هو تقديم أعمال لشخص آخر ، وأعلى شكل من أشكال الطاعة يكون عنـدما يتـوقف المرء عن القيـام بتصرف يلح عليـه ، أما أرقى أشكال الطاعة فهو القدرة على عدم تنفيذ أي عمل على الإطلاق ، وعندمـا

يصبح هذا ممكناً تكون الأشكال الأخرى للطاعة ممكنة .

إن أول شيء تتعلمه هو أن العادة أو العبودية هي ما كنت تسميه طاعة ، سواء شعرت بالسعادة أثناء تأديتها أم لا .

أنيسة امتهاني .

ما يعجبك في المتصوفين . . .

إن ما يعجبك فيما أحرزه الصوفيون هو قطرة صغيرة جداً من محيط ، إذا قيست بما أحرزوه حقاً ، فهذه الأشياء لا تبدو لك عندما تنظر إلى الوجه الخارجي للمتصوفين .

موسى كاظم .

الطريق والبوابة

لا معنى ولا فائدة للطريق والبوابة إذا كان الهدف على مرمى النظر .

الهجويري .

ماذا نعمل وماذا يجب أن يُعمل

يمكن أن نعبر عن الحكمة كلها بهذين السطرين :

افسح الطريق لما يفعله من أجلك الآخرون .
وكن واثقاً مما يجب أن تفعله بنفسك .

الخواص .

إنقاذ النفس

هل سمعت الحكاية التي رواها شيخ طريقتنا مولانا جلال الدين الرومي ؟

إنها الحكاية التالية :

كان يوجد في يوم من الأيام ، رجل يمتلك بعض الماشية ، وعندما سمع أن موسى يعرف لغة الحيوان ألح عليه ليعلمه هذه اللغة ، وبعد ذلك ، أخذ ينصت إلى ما تقوله الحيوانات لبعضها البعض .

فقال الديك للكلب : إن الحصان سيموت في وقت قريب ، ففهم الرجل ، وهكذا باع الحصان قبل أن يخسره .

وبعد فترة سمع الديك يقول للكلب : إن البغل سيموت قريباً ، وهكذا استطاع بيعه فتجنب الخسارة .

وما لبث أن سمع أن العبد الذي يخدمه على وشك الموت فباعه فرحاً ليكسب مالاً ، واعتقد أن معرفة لغة الحيوان قد أفادته ، وأن المعرفة ذات قيمة لأنها تساعد الإنسان في حياته اليومية .

وسمع الديك ذات يوم يقول للكلب بأنه هو (أي الرجل) على وشك الموت ، فهرع فزعاً إلى موسى يسأله النصيحة ، فقال موسى :

ـ «الآن يمكنك أن تذهب وتعرض نفسك للبيع !»

انتبه إلى هذه التعاليم :

ـ «لا فائدة من معرفة الإنسان لكيفية رؤية ما يمتاز به الآخرون بالنظر إلى حاجته الكبرى للمعرفة» .

أنيس أحمد بن العلوي .

الأسد الموشوم

رغب أحد الرجال في وشم صورة أسد على ظهره ، فذهب إلى فنان اختصاصي بالوشم وأخبره برغبته ، ولكن بمجرد شعوره بالوخزات الأولى بدأ يئن ويتأوه وقال :

ـ «إنك تقتلني ، ما هو الجزء الذي بدأت برسمه من جسم الأسد ؟»

قال الفنان : «الآن بدأت بالذيل» .

فصرخ الرجل : «إذن فدع الذيل» .

ثم عاود الفنان عمله من جديد ، لكن الزبون لم يصمد للوخز فصاح :

ـ «ما هو القسم الذي تصنع وشمه الآن ؟ فإنني لا أستطيع الصمود للألم» .

ـ «إنني أرسم أذن الأسد» .

فصاح الرجل : «ليكن لدينا أسد دون أذن» .

فعاد الفنان إلى محاولته مرة أخرى ، وما كاد يدخل الإبرة في الجلد حتى صاح الرجل : «في أي جزء من جسم الأسد تعمل الآن ؟» .

أجاب الفنان ضجراً :

ـ «إنها معدة الأسد» .

فقال الآخر : «لا أريد أسداً بمعدة» .

فتوقف الفنان قليلاً ، وقد أحس بانزعاج شديد ، ثم رمى إبرته وصاح :

ـ «أسد بدون رأس ، بدون ذيل ، بدون معدة ؟ من يستطيع أن يرسم هذا ؟ حتى الله لم يفعل ذلك ؟» .

جلال الدين الرومي .

القديس والجوهر

الولي تابع لجوهره
ناذر نفسه ، ولكن في طريق الجوهر
عمله يصل إلى نهايته
عندما يصل أوله مرة أخرى إلى نهايته .
الشبستري .

التطور

جاء الإنسان إلى العالم المادي ، ومن المعادن تطور إلى عالم النبات ، وبعد ذلك مر بالمرحلة الحيوانية فلم يذكر أي شيء عن وجوده النباتي فيما عدا انجذابه للربيع وزهوره .

وهذا مشابه لرغبة الرضيع في أن يرضع من أمه أو للصلة الروحية التي تربط التلاميذ بشيخهم الأكبر ، فعندما تختفي الظلمة يعرفون السبب في علاقتهم بالمعلم . .

لقد تطور الإنسان من عالم إلى عالم حتى وصل إلى حاضره العاقل النشيط المليء بالمعرفة ، فنسي الأشكال الأولى للإدراك .

وسيمر أيضاً وراء الشكل الحالي للإدراك فهناك ألف شكل آخر من أشكال الفكر . . .

لكنه غط في النوم ، وسوف يقول : «لقد نسيت وعدي جاهلاً أن النوم والخيال من أسباب معاناتي» .

ويقول أيضاً : «ليس لتجاربي في النوم أهمية» .

لقد حصل الإنسان على حاجاته بسبب الضرورة ، وأنت أيها المضطر زد من احتياجك .

جلال الدين الرومي .

الظلام والنور

المساء يسبق الصباح ، والليل يصبح فجراً .

حافظ .

الخلود

شرف المرء علمه ، والحكماء مشاعل تنير طريق الحق ، وفي المعرفة

فرصة الإنسان في الخلود ، فإذا كان الإنسان يموت فالحكمة باقية إلى الأبد .

علي ، رضي الله عنه .

الحمقى والأشرار

يصنع الحمقى بغباوتهم أسوأ مما يعمله الأشرار بشرهم .

حديث للرسول (ص) .

الناس والمعرفة

هناك أشجار كثيرة ولكن لا تحمل كلها الفاكهة .
هناك فواكه كثيرة ولكن لا تؤكل جميعها .
هناك أنماط كثيرة للمعرفة ولكن ليست كلها ذات قيمة للإنسان .

(يسوع ، ابن ماري كما جاء في كتاب «أموداريا») .

الناس والملوك

الملوك يحكمون الناس والحكماء يحكمون الملوك .

أبو الأسود .

إذا كنت تحب الزهد

الزهد يمكن أن يكون ضعفاً ، أو وفاءً لرغبة ، ويعود إلى حاجة الإنسان إلى الصبر الحقيقي .

الحسن البصري .

فكر

يموت كل الناس أما العلماء فهم خالدون .

سهل التستري .

ما هي الهوية ؟

عندما قرع أحدهم باب أبا يزيد ، قال :

«من تريد ؟»

أجاب المنادي : «أريد أبا يزيد» .

فقال أبو يزيد : «وأنا أبحث عنه منذ ثلاثين عاماً ولم أجده بعد» .

ماذا يعمل الحكيم

الحكيم هو الذي يفعل اليوم ما سوف يفعله الحمقى بعد ثلاثة أيام .

عبد الله بن المبارك .

الجواب

لقد كتبنا مائة رسالة ولم تكتب لنا جواباً واحداً ، ولكن عدم كتابتك هو أيضاً جواب .

زوقي .

النوم

أيها الإنسان ، يا من تخشى مصاعب الطريق إلى الفناء ، لاتخشى شيئاً ، فهذا الطريق سهل جداً ويمكنك أن تسلكه وأنت نائم .

المير يحيى كاشي .

الإنسان

يدور الفضاء حول الأرض مائة ألف مرة بحثاً عن الإنسان ولكن أين هو الإنسان ؟

الاسترابادي .

الكلب والضربات

رأيت حارساً يضرب كلباً بعصا وكان الكلب يعوي من الألم ، فقلت :

ـ «أيها الكلب ، لماذا يضربك الحارس ؟»

قال : لأنه لا يتحمل رؤية من هو أفضل منه» .

الشبلي .

الثمن

أنت يا من تقول : «لماذا تدفع ثمناً لحياتك الخمر ؟»

وجه هذا السؤال لمن حمل لنا الكأس :

ـ «من جعل ثمن الخمر رخيصاً بهذا الشكل ؟» .

الفغاني(*) .

نحن أحياء

نحن كالموجات ، هدوؤنا عدم

وهكذا نحن أحياء ، لأننا لا نهدأ .

أبو طالب كليم .

ما هي الفضيلة ؟

انظر حولك إلى أولئك الذين يملكون الفضائل ، تجد أن كثيراً من الناس لم تزدهم الفضيلة شرفاً ، إن ممارسة الفضيلة في حد ذاتها لا تساوي شيئاً . فالخيط لا ينقلب إلى جوهرة لأنه يمر من ثقوب مجموعة من اللآلىء ، لقد كنتَ

(*) هو باباالفغاني الشيرازي ، شاعر فارسي عاش في خراسان .

عاجزاً عن التعلم وكذلك عن التعليم إلى أن أدركت أن المكان المهجور لا يصبح أرضاً خصبة إذا خبيء كنز في ترابها .

حميد قاليندوز .

المعرفة

ذلك الذي يعرف ، ولا يعلم أنه يعرف ، إنسان نائم ، ويجب أن يصبح واحداً أو كلاً ، أيقظوه من نومه .

أما ذلك الذي عرف لكنه لا يعرف شيئاً ، اتركوه يعيد رؤية الأشياء من بدايتها .

أما ذلك الذي ليس لديه رغبة في المعرفة ومع ذلك يدعي حاجته إليها فأرشدوه إلى الأمان والنور .

وذلك الذي لا يعرف ويدري أنه لا يعرف ، لنتركه يتعلم من خلال هذا .

وذلك الذي لا يعرف بل يظن أنه يعرف ، حرره من فوضى هذا الجهل .

وذلك الذي يعرف ويعرف أنه كذلك شخص عاقل فليتبعه الآخرون فإن المرء يستطيع بحضوره أن ينتقل بالروح .

أنا ، الذي أعرف ولا أعلم أنني أعرف ، دعني أصبح واحداً أو كلاً ، دعني أستيقظ .

أنا ، الذي عرفت لكنني أجهل دعني أشهد مرة أخرى بداية الأشياء .

أنا ، الذي لا أرغب في المعرفة ، ومع ذلك أدعي أنني بحاجة للعلم ، أرشدوني إلى الأمان والنور .

أنا الذي لا أعرف وأعلم أنني لا أعرف ، دعوني أتعلم من خلال هذا .

أنا ، الذي لا أعرف ، ولكن أظن أنني أعرف ، أرجو منكم أن تحرروني

من فوضى هذا الجهل .

هــو ، من يعلم ويعلم أنـه يعلم ، إنسان عـاقل فـاتبعوه ، ففي حضـوره فقط يمكن للمرء أن ينتقل .

نحن الذين نعرف ولا نعلم أننا نعرف ، لنصبح واحداً كلًا ، لننتقل .

نحن الذين عرفنا ونجهل ذلك لنشاهد مرة أخرى بداية كل شيء .

نحن ، الذين نرغب في المعـرفة ونـدعي أننا بحـاجة للمعـرفة ، نـرجو أن ترشدونا إلى الأمان والنور .

نحن ، الـذين لا نعرف ، ونعـرف هذه الحقيقـة ، لنتعلم من خـلال هـذه المعرفة .

نحن ، الذين لا نعرف ونظن أننا عارفون ، حـرروانا من الاضـطراب الذي يحدثه فينا الجهل . .

هو ، من يعرف ، ويعلم أنـه عارف إنسـان حكيم فليتبعه النـاس فبحضوره يستطيع الإنسان أن ينتقل بالروح .

كما هو الحال مع من سبقونا .

ومع من سيلحقون بنا

ومعنا أيضاً

نؤكد هذا الميثاق

فليكن ما يكون .

تلاوة سارمون Sarmoun .

السباح

يواجه الإنسان في حياته العادية صعوبات ومشاق وينشد السعادة ، غير أنه لا يمكن أن يكون راضياً ومتغلباً على الصعاب بصفة دائمة إذا كان جاهلاً وعاجزاً .

ومع هذا ، فيمكنه الوصول إلى حالة يظهر فيها أن الصعوبات قد انزاحت ، ويظهر أنه يعرف أموراً لا يعلم في الحقيقة عنها شيئاً .

هذه حالة أولئك الذين يتلاعبون بعقولهم أو يسمحون لأنفسهم بسبب توتر حالتهم باتباع الأسلوب الذي ينتهجه الجهلاء .

الإنسان كالسباح في كامل ثيابه ولكن هناك عقبة تواجهه في كل لحظة وهي ملابسه الضيقة ، ويجب أن يعلم لماذا لا يستطيع السباحة قبل أن يتخذ الخطوات التي تمكنه منها .

ولا يكمن الحل في شعوره بنجاحه في السباحة ، لأنه سيشعر بالتفوق مما يعوقه عن الوصول إلى الضفة البعيدة للنهر .

وهكذا يغرق الرجال والنساء .

لطيف أحمد .

المعلم

ابحث عن مظهر المعلم الذي لا يبدو من النوع الذي يتوقعه المفكر أو التقي ، فهناك بعض المفكرين والأتقياء الذين يتعرفون عليه بأي شكل كان .

أما أولئك الذين لديهم جدارة ومقدرة على اتباع «الطريقة» ، ولم يعتادوا على سلوك المفكر والمتدين فسوف ينبذون المعلم إذا كان يبدو كأولئك الغير مفهومين .

نجم الدين كبرى .

لمس الثوب المرقع

إن لمس الثوب المرقع لإنسان كامل يجلب على النفس أكبر فائدة ممكنة لشخص غير متجلد ، فأنت مدين لمثل هذا الرجل بالشيء الكثير ، كذلك فإن حضورك مجلس أحد المتظاهرين بالصوفية ينتزع من حياتك جزءاً .

التفاحة السماوية

مرض «ابن الناصر» ورغب بشدة في أكل تفاحة رغم أن الموسم لم يكن موسم التفاح ، وفجأة أحضر له «الحلاج» تفاحة ، فقال أحدهم :

ـ «يوجد في هذه التفاحة دودة ، فكيف تكون فاكهة السماء فاسدة بهذا الشكل ؟» .

فشرح الحلاج علة هذا وقال :

ـ «لأنها من أصل سماوي ، وهي لم تكن هكذا في أول الأمر ، ولكن عندما دخلت هذا العالم الناقص شاركت في المرض الذي يعد من سمات هذا العالم» .

. . . .

القسم الثامن

رسائل ومحاضرات

يميز المعلمون الصوفيون تمييزاً دقيقاً بين الخطب والمحاضرات التي تلقى على جمهور محدد وبين تلك التي تتسم بالطابع الأدبي والقيمة التأثيرية أو الثقافية .

إن كل التعاليم الصوفية تنتمي في الأساس إلى الزمن الذي ظهرت فيه ، والرسالة الصوفية المكتوبة ذات تأثير محدود سواء في عمقها أو متانتها ، ذلك أن «ما هو ملك للزمن سيكون ضحية لإتلاف الزمن» .

لذا فإن الصوفية تتجدد باستمرار عندما يظهر المعلمون المثاليون تباعاً ، ولا يكتفي هؤلاء المعلمون بتفسير المؤلفات الصوفية فحسب ؛ بل إنهم يختارون ويقتبسون ويقدمون من هذه المؤلفات مقتطفات ، فيتيحون بهذا للأدب الصوفي أن يستمر في مهمته التأثيرية .

وربما تحمس التلاميذ الصوفيون أو لم يتحمسوا للتآلف مع المؤلفات الصوفية الكبرى .

ومهما يكن من أمر ، فإن المرشد الصوفي هو الذي يرشد كل حلقة أو تلميذ إلى برنامج الدراسة ، ويتألف من قطع من الأدب الكلاسيكي الصوفي ومن الخطب والمحاضرات ، والملاحظات المأخوذة من الحديث والتي تخص وجهاً

من أوجه المجتمع أو جماعة محددة أو شخصاً بعينه .

هذا الاستخدام للمؤلفات الصوفية يفصل الفكر الصوفي فصلاً تامـاً عن أي فكر آخر في المؤلفات الأخرى ، وقد منع هذا الاتجاه الصوفية من أن تتبلور على هيئة دين تقليدي .

وقد حدث هذا التبلور لدى الجماعات الصوفية الأولى ، وكان تركيزهم على الاستخدام المتكرر للمؤلفات الصوفية يدفع التلميذ الصوفي إلى التوجس من أن هذه الجماعات «متصلة بالعالم» .

والفصل التالي يتألف من كتابات مأخوذة من الاستعمال الحالي ، وينظر إليها المتصوفون المعاصرون من أتباع مدرسة التخلي عن المؤلفات سريعة الزوال «باعتبارها قابلة للتطبيق على الوضع الحالي للإنسان» .

أما المادة الصوفية فهي متنوعة فمنها أعمال وأقوال لكبار المتصوفين القدماء وهي مدونة ومبنية على التعاليم الصوفية الأصيلة .

ومن المهم أن نذكر من وجهة نظر علم النفس المعاصر ، كيف تواجه الجماعات الصوفية وغير الصوفية التحديات .

فإما أن تثبت الجماعة الصوفية نفسها بدعائم قوية (كبعض الرياضات والمطالعات والشخصيات الموثوقة) ، أو يكون لها استقرار ذاتي يؤهلها للوصول إلى الحقيقة الكامنة وراء الواقع الاجتماعي الظاهر .

إن تكوين الجماعة هو الذي يقرر هذا ، فإن كان لأفرادها توازن اجتماعي سليم فلن يحتاجوا إلى تحويل جو دراستهم إلى مصدر الاستقرار والطمأنينة وإذا كان لأفراد هذه الجماعة اكتفاء فكري وجسدي فلن يكونوا بحاجة لمحاولة انتزاع القبول والرضا من جماعتهم الصوفية .

إن أولئك الذين يبحثون عن الاستقرار الاجتماعي والفكري والعاطفي لا ينجحون في تقديم التعاليم الصوفية في مدارسها الأصلية .

إن المدارس المقلدة (سواء عن قصد أو غير قصد) تستخدم المظاهر الخارجية للتصوف بما فيها الخطب والمحاضرات ، وتعمل كجماعات نفسية مقنعة . لكن هذا النشاط عقيم جداً وغير مجد من الناحية الصوفية وليس منشوداً لمعرفة أكثر سمواً للإنسان» .

ولا يعني هذا أن الجماعات المعروفة لدى الناس بأنها صوفية هي جماعات يعترف بها المرشح لتقديم التعاليم الصوفية كجماعات عادية في المجتمع .

بل على العكس من ذلك ، إذا كان الشخص الذي سيصبح تلميذاً صوفياً هو نفسه بحاجة إلى الثقة بالنفس والإقدام والاتزان النفسي والاجتماعي ، فسوف يكون ممتناً بالانجذاب إلى هذا المستوى المتدني من النشاط . ولعل السبب يعود إلى استجابته لما تقدمه له الجماعة لا لما يمكن للتصوف أن يقدمه له .

ونعود إلى القول بأن جماعات الباحثين من المقلدين تضافرت لإحياء الرياضات الروحية والنظريات الصوفية على أمل أن تتحقق أمنياتها بظهور معلم أصيل .

هذا الأساس في الدراسة ينطوي على مخاطرة لأنه عندما تكون جماعة من الجماعات مؤلفة بشكل رئيسي من أعضاء يستخدمونها لأغراض نفسية متدنية ، فإن الجماعة ككل تفقد القدرة والرغبة في التعرف على مستويات أرقى من المادة الصوفية .

في مثل هذه الحالات يكون النمو الطبيعي للحس الاجتماعي محبطاً للطموح فلا يمكن لهذه الجماعة أن تحيي نشاطاتها إلا بدخول أنماط متنوعة من الناس إلى الجماعة ، وذلك لرفدها على الأقل بمجموعة طبيعية من الناس .

على أن جماعة من هذا النمط تنظر إلى هذه المجموعة نظرة عدائية ؛ لأن أشخاصاً يفكرون بأسلوب يغاير تفكيرهم غير جديرين للانضمام إليهم .

ما هي الصوفية ؟

ليست المسألة في «ما هي الصوفية ؟» ، ولكن المسألة هي «ماذا يمكن أن نقول عن الصوفية وماذا عن تعاليمها ؟» .

والسبب في وضع السؤال بهذا الشكل هو أن الأهم معرفة حالة السائل وبالتالي الإجابة بشكل مفيد له .

ومن هنا فقد قال النبي (عليه الصلاة والسلام) :

«خاطبوا الناس على قدر عقولهم» .

وإذا كانت مقدرة السائل على الفهم غير كاملة فإنك تسيء إليه إذا قدمت له معلومات واقعية عن التصوف .

ونأخذ مثالاً على هذا من السؤال الذي طرحناه في بداية هذا الحديث فتجيب عليه بقولك : «الصوفية رقي بالنفس» .

وفي هذه الحالة يفهم السائل رقي النفس وفقاً لمفهومه الخاص .

ولكن إذا قلت في لهجة صادقة :

«الصوفية غنىً خفي فسوف يشتهيها الطامع أو الجاهل بسبب المعنى الذي يفهمه من كلمة غني» .

على أنه لا ينبغي أن تتخيل بأنك لو وضعت السؤال في قالب ديني أو فلسفي فإن المتدين أو الفيلسوف لن يخطىء أيضاً في فهم ما ترمي إليه .

إدريس بن أشرف .

التذكر

عندما نقول : «أنت قطرة ماء في بحر لا حدود له نشير إلى أن شخصيتك الحالية كقطرة ، وإلى كل خصوصياتك الماضية كقطرات متتابعة وأمواج ، وإلى

الرباط الأكبر الذي يوحد كل هذه الأوجه مع كل القطرات الأخرى ومع الكل الأعظم أيضاً .

ولدى النظر إلى هذا الكل الأعظم ، من وجهة نظر فخامة البحر الكبير فسوف ننظر بشكل خاطف إلى شيء من عظمة القطرة في مهمتها كجزء محسوس من ذلك البحر .

ويجب أن نتوقف عن التفكير في فوائد القطرة لندرك العلاقة بين القطرة والبحر ، بيد أننا لا نتمكن من ذلك إلا عندما ننسى واقعنا ونذكر الماضي وحالنا فيه ، ونذكر اللحظة التي نحن فيها وننظر أيضاً في حقيقة أنفسنا ، فالعلاقة مع البحر في ترقب قلق ودون انقطاع .

والترقب القلق أو الشك هو الذي يحملنا على افتراض بدائل مؤقتة لأنفسنا ،ويعمي عيوننا عن الحق المطلق .

أما رياضة التذكر لما مر بنا من تجارب في الماضي والحاضر فتمدنا بقدرة على تذكر الماضي البعيد ؛ أي تذكر ما هو معطل بشكل مؤقت وما نصبو إليه رغم جهلنا به . فإذا لم ترشدنا الرياضة الأساسية في التذكر إلى تذكر وعودنا الماضية القديمة والمتواترة أو ميثاقنا فإن واحداً من ثلاثة على خطأ :

المعلم ، التلميذ أو الظروف .

وهذا هو السبب في ضرورة وجود معلم صوفي له تجارب غنية ، وتلميذ متنبه وظروف مواتية .

بل إن هذه الملاحظات لن تصل إلا إلى أولئك الذين يمكن أن تصل إليهم ، وصيانتهم البدنية ليست إلا جزءاً صغيراً من حقيقتهم ، فحررهم بوجود معلم ، وليس بدونه .

الحاج بهاء الدين الدرويش البخاري .

العلم ـ العمل ـ الحب

الحب طريقة للصدق ، للعلم ، للعمل ، ولكن لا يصل إليها بالحب إلا أولئك الذين يعرفون الحب الحقيقي ، أما الآخرون فقد أخطأوا فهم المشاعر التي يشعر بها أصحاب الحب الحقيقي .

وأضعف الناس هم أولئك الذين يجعلون الحب مثالياً ، ويسعون إليه دون أن يقدموا له شيئاً أو يأخذوا منه شيئاً .

فالحقيقة طريق للحب وللعلم والعمل ، على أنه لن يتمكن من إيجاد الحب الحقيقي سوى أولئك الذين بإمكانهم إتباع خطاه كطريق .

ويخال الآخرون (وليس صواباً لأنهم الأكثرية) أنه بإمكانهم إيجاد الحقيقة ، رغم أنهم لا يعرفون أين يجدونها لأن ما يطلقون عليه اسم الحقيقة هو شيء أقل أهمية .

أما العلم فهو طريقة للعمل ، للحب ، للحق ، ولكن ما دام العلم ليس كما يفهمه الناس فهم لا يستفيدون منه ، إنه في كل مكان ، بيد أنهم لا يستطيعون رؤيته ، فيدعونه بينما هو قريب منهم .

أما العمل فهو أيضاً طريقة ، إنه طريق للحب ، للحق ، للعلم .

ولكن أي عمل ، وأين ومتى ؟ ومع من وإلى أي مصير ؟ وما هو نمط العمل الذي نقصده عندما نقول أنه طريقة ؟

إنه عمل من نمط آخر إن كان يعني أن الإنسان يقوم به دون أن يعرفه ، وربما كان منغمساً إلى حد ما في عمل آخر بحيث لا يتمكن من تقديم العمل الصحيح الذي يحتاج إليه .

وربما كنا على خطأ في هذا القول ، لكننا نؤكد حقيقة هي التالية :

لقد أنعم الحق السامي على المعلمين بنعمة إدراك علم جميع الطرق ،

لنكف عن قـولنـا : «أنـا أبحث عن الحب ، وأرغب في العلم ، وأبغي الحق وهدفي هو العمل ، إلا إذا كنا نريد أن يعرف الناس أننا قوم فـارغون وفي الـواقع ليس لنا هدف .

الحب عمل ، العمل علم ، والعلم حقيقة ، والحقيقة هي الحب .

رؤوف مزاري ، نيازي .

الرموز

الإنسان رمز وهكذا الموضوع أو الرسم ، تعمق في النظر إلى ما وراء الرمز وإلا فإنك ستخلد إلى النوم ، فداخل الرمز شيء يتحرك ، ويجب أن تتعرف على هذا الشيء ، ومن أجل ذلك يجب أن يكون لـديك مرشد ، ولكن قبـل أن يقدم إليك المساعـدة يجب أن تستعد فتكـون أميناً في البحث ، فإذا كنت تسعى إلى الحق والعلم فسوف تحصل عليه ، وإذا كنت تبحث عن شيء لنفسك فحسب ، فسوف تحصل عليه وتخسر كل ما هو سامٍ لك .

الخواجة (المعلم) «بولاد» من «إريڤان» .

هذه وحدها هي الحقيقة

عندما يقول المتصوف : «هذه وحدها هي الحقيقة» فهو يقول : «من أجـل هذا الزمن ، هذا الإنسـان ، وهذا الهدف ، يجب أن نركز انتبـاهنا كمـا لو كـانت هذه وحدها هي الحقيقة» .

وهكذا فإن المتصوف يساعدك في التعلم كما لـو كان أستـاذاً في المدرسـة يقول لك هذه (أ) وهذه (ب) ، وهذه وحدها هي الحقيقة في الزمن الذي نقـوم فيه بدراستها» .

وبهذه الطريقـة يتعلم الإنسان القـراءة والكتابـة ، وبهذه الـطريقة يتعلم مـا وراء الوجود .

ويتعرض المتصوفون كثيراً لهجوم الأشخاص الحساسين وغير المدركين بسبب افتقارهم إلى الصبر وروح التعاون .

إنك إذا لم تهيىء للعامل فرصة لأداء عمله فلن تستطيع اتهامه بالتقصير في هذا العمل .

واذكر أنه إذا نبح أمامك أحد الكلاب بطريقة مزعجة فهو يشير إلى خطر سيحدق بك ، فتظن أنه ينبح عليك وتكون بذلك قد أسأت فهمه .

الحكيم «طاهر جان» من القفقاز .

وحدة المعرفة

إن ما تعلمته كصوفي لا يمكن أن يقبله المرء بسبب ما تعلمه فيما مضى ، وأسهل ما في الصوفية بالنسبة للإنسان ذي التفكير العادي هو أكثر الأشياء صعوبة .

إن كل ما تقدمه الأديان حقيقة واحدة بأشكال متنوعة ، سواءاً كانت أقل أم أكثر تحريفاً ، وتتمثل هذه الحقيقة في أشخاص عديدين يغارون عليها ولا يدركون أن إظهارها يتفق مع رغباتهم .

ولا يمكن لهذه الحقيقة أن تمر بالشكل نفسه لتباين التفكير في المجتمعات ، كما أنه لا يمكن إعادة تفسيرها لأنها يجب أن تعاود تطورها من جديد .

ولا يمكنها أن تنمو وتتطور إلا على أيدي أولئك الذين بإمكانهم تجريبها في كل شكل من أشكالها الإنسانية الدينية أو غير الدينية ، وتختلف التجربة تماماً عما يظنها الناس ، إذ أن الشخص الذي يعتقد ببساطة أنها يجب أن تكون واقعية كشيء منطقي ليس كمن يكتشف أنها حقيقية .

المعلم (الخواجة) صلاح الدين البخاري .

الآن بعد أن أصبحت ميتاً

الآن بعد وفاتي يمكنكم أن تقرءوا شيئاً ما عن حقيقة الصوفي ، ولو كانت هذه الحقيقة قد نقلت إليكم بشكل مباشر أو غير مباشر ، عندما كنت أعيش بينكم فربما أشبعتم كلكم عدا القليل منكم ولعكم بالإكتساب وحبكم للغرابة في هذه المعلومة أو الحقيقة .

إذن ، فلتعلم أن ما يقدمه المعلم الصوفي للعالم وللناس كبيرهم وصغيرهم ليس منظوراً في كثير من الأحيان ، فالمعلم الصوفي يستخدم قدراته ليعلم الإنسان ويعالجه ويحقق له السعادة ، وهكذا دواليك ، وفقاً لما تقتضيه الحال في استخدام قدراته ، فإذا لم يُظهر لك معجزات أو كرامات فهذا لا يعني أنه لا يقوم بها ، وإذا لم يفدك بالطريقة التي ترغب بها فليس هذا لأنه لا يستطيع ذلك ، فهو يمكن أن يقدم إليك الفائدة إذا كنت جديراً بها ، لا استجابة لطلب منك ، فلديه واجب أسمى ، هو الواجب الذي يؤديه .

لقد تحولت حياة الكثيرين منكم وتم إنقاذهم من الأخطار ، وأعطيت لهم الفرص ، لكنكم لم تعدوا هذه الأمور نعماً ، إلا أنكم حصلتم عليها بفضل الطريقة نفسها ولولا اجتهاد جماعة الأصدقاء لما عشتم حياتكم رغم أن الكثيرين منكم كانوا يتطلعون إلى حياة أكثر غنىً .

ولو كان الفقراء بينكم من الأغنياء لحلت بهم اللعنة ، ولا يزال الكثيرون منكم أغنياء بفضل رجل الحكمة ، ويظن الكثيرون من الذين التحقوا بمدرستي أنهم تلقوا التعاليم عني ، والواقع أنكم حضرتم بأجسادكم في مجالسنا في حين أنكم تلقيتم تعاليمكم في مجالس أخرى .

كل هذه الأمور دخيلة على ما اعتدتم عليه من تفكير ، ولستم بعد في وضع يتيح لكم معرفتها .

وقد كان واجبي إفادتكم ، لكن مهمة إدراك هذه الفوائد تترك للآخرين ،

وقد شعرتم بالأسى لأنكم كنتم تنتظرون مني تقديم المعجزات أو الكرامات ، فاخترعتم معجزات لم أقم بها وأعلنتم ولاءكم لي ، وهو غير ذي قيمة على الإطلاق . وتخيلتم وجود «تغيرات» و «مساعدة» و «مواعظ» لم تحدث أبداً ، ومع ذلك فهناك تغيرات ومساعدة ومواعظ .

فحاولوا أن تتبينوا ماهيتها في الحقيقة ، وإذا مضيتم في التفكير والعمل كما أرشدتكم فأنتم تعملون في أشياء ماضية سبق أن استفاد منها غيركم .

«ميرزا عبد الهادي خان» من بخارى .

البركة

أنتم يا من تتحدثون عن البركة ، ربما كنتم أعداء البركة ، وإذا كان أي من المرأة أو الرجل عدو لما يرغب في محبته ، فهذا شيء متوارث في الإنسان ويظهر بصفة خاصة في نمط محدد من الناس .

وفي التعبير الشائع بين الناس ، البركة تجعل الإنسان مطمئناً من خلال تأثير الإله ، وهذا حقيقي لكن الطمأنينة هنا لهدف من الأهداف ، كذلك فإن الناس يستخدمون لفظة «البركة» في حديثهم المعتاد ، وذلك للدلالة على شيء يُعطى لهم ، وهذا يعد طمعاً ، كأن يطلبوا البركة من أحد الأولياء ، والبركة موجودة لكن الإنسان لا يحصل عليها إلا إذا كان صافي النية .

وهي تلازم الأشياء كما تلازم الناس ، لكنها لا تمنح إلا لمن يستحقها ، فالبركة لا توجد للأغراض الدنيوية ، وعندما لا تكون هناك بركة حقيقية يتعطش الإنسان إليها فيرجع عاطفته وإحساسه ، وماله ومخاوفه إلى فضيلة «البركة» ، وهكذا يشعر بالفخر والحزن والعاطفة القوية ويُسمي كل هذا بركة ، كذلك فإننا نخطىء عندما نسمي شعور الإنسان بالألفة والاطمئنان بركة .

والصوفيون وحدهم يمتلكون البركة الحقيقية ، وهم قنالها مثلما الزهرة قناة للعطر الذي يستخرج منها ، إذ أنهم يمنحوك البركة في حالة واحدة ، إذا كنت

مخلصاً لهم أي مخلصاً لما يمثلوه .

أيها الصديق ، إن كنت تبحث عن البركة أنشد الصوفي ، فإذا كان قاسياً فهو مستقيم الجانب ، وهذه هي البركة الإلهية التي أنعم الله عليه بها ، وإن كنت تسعى وراء الخيال ، فسوف تفضل صحبة أولئك الذين يعيدون لك الطمأنينة ويساعدونك في إزاحة الكآبة والحزن عن نفسك ، فخذها إذا كنت بحاجة إليها ولكن لا تسميها بركة ، فلكي تنال البركة يجب أن تعطي بدون حساب مما أُعطي لك قبل أن تأخذ شيئاً لنفسك ، أما الأخذ قبل العطاء فهو ضلال وتفكير خاطىء ، فإذا كنتَ قد أعطيتَ فعلاً ، أعط مرة أخرى وبهذه الروح .

الشيخ شمس الدين السيواسي .

آل البيت

لقد انتقلت الطريقة الصوفية من خلال آل البيت (آل الرسول عليه الصلاة والسلام) ، ومع هذا فإنها لم تأت من خلال صلة القربى ، وهذه عبارة توهم بالتناقض ، لذا فإن البعض يقولون :

«وهل الطريقة الصوفية سر لا يتناقله إلا فئة من الناس مقربة لآل البيت ؟ ، ومع هذا فهي لم تصل بهذه الطريقة فحسب» .

أما المنطقي فيقول :

ـ «هل إذن وصلت من خلال آل البيت بعد إعادة اكتشافها من مصدر آخر ؟»

لكن الطريقة الصوفية أتت ولا زالت تنتقل بين الناس من خلال طريق رابع هو طريق «الوجود» ، وهو غير هذه كلها ، وعندما تفهم هذا تفهم السر ، وأقول لك هذا للإفادة لا للتضليل أو التحيير .

خادم آل البيت في «المخبأ» .

المعرفة

هناك خلط بصفة عامة بين المعرفة والمعلومات ، ولأن الناس يتطلعون إلى المعلومات أو التجارب لا للعلم أو المعرفة فهم لا يتوصلون إلى المعرفة .

لا يمكن أن تتجنب منح العلم لمن هو أهل له ، كما أنك لا يمكن أن تمنح المعرفة لمن هو ليس أهلاً لها ، فهذا محال ، ولكن إذا كنت تملك هذه المعرفة وكان هناك من هو قادر على اكتسابها فيمكنك أن تجعله أهلاً لتلقي هذا العلم .

السيد نجم الدين .

حول دخول العالم - العيش فيه ، ومغادرته

أيها الإنسان أنت تدخل العالم على مضض باكياً كطفل بائس .

أيها الإنسان أنت تغادر هذه الحياة محروماً باكياً أيضاً ونادماً .

عش هذه الحياة بحيث لا تفقد منها شيئاً .

وعليك أن تعتاد عليها بعد أن كنت غير معتاد .

وبعد أن تعتاد عليها ، يجب أن تتعود على فقدها .

تأمل في هذه القناعة .

مت إذن «قبل أن تموت» بكلمات الصافي .

أكمل الحلقة قبل أن تُكمل لك .

وإذا فعلت ، وإن لم تفعل ، توقع المرارة في النهاية ،

كما كانت في البداية ، في وسط الحياة كما في نهايتها .

إنك لم تشاهد نموذج الحياة عندما دخلت إلى هذا العالم ، وعندما دخلت رأيت نموذجاً آخر .

وعندما رأيت هذا النموذج الظاهر مُنعت من رؤية خيوط النموذج القادم .

ولن تقتنع حتى تراهما معاً ، فعلى من يقع اللوم ؟ ولماذا تلوم ؟

هاشم الصدقي ، عن الرومي .

الدراسة مع المشاهير

يميل الإنسان إلى الدراسة على يد مشاهير المعلمين ، ومع ذلك فهناك دوماً أشخاص لا يعدهم الناس من المشاهير لكن بإمكانهم تعليم الناس كما يفعل هؤلاء المشاهير .

الغزالي .

ربما كان المعلم دون أتباع ، أو كان له أتباع قليلون ، ومع ذلك فهو الذي يصلح لتعليمك ، إننا نجد صغار النمل لاتحتشد لتنظر إلى الفيلة طمعاً في الكسب ، وربما لم يستفد من المعلم الشهير إلا الباحثون المتقدمون .

بادخشاني .

إذا نصحك معلم شهير بالدراسة على معلم غير معروف ، فهو يعلم ما تحتاج إليه ، ويعتقد كثير من التلاميذ أن هذه النصيحة غير ذات قيمة ، مع أنها في الحقيقة لصالحهم .

عبد الرحمن من البنغال .

لقد تعلمت ما تعلمت بعد أن حررني معلميّ من عادة التعلق بالمعلمين وبالتعاليم ، وأقضي فترات أحياناً دون عمل شيء ، وفي بعض الأحيان يتوجب عليّ دراسة الأشياء التي لا أستطيع الربط بينها في تفكيري مهما حاولت بروح عالية .

زكريا ابن اليوسفي .

أولئك الذين تجذبهم المظاهر ، والذين ينظرون إلى الملامح الخارجية

للأستاذية ، ويعتمدون على الانفعال في دراساتهم أو قراءاتهم لأي كتاب يختارونه ، أولئك كذباب البركة لأنهم يثبون ثم ينزلقون كما تنزلق القشدة على السطح ، ولأنهم يستخدمون كلمات مثل «عميق» و «ذو مغزى» فهم يعتقدون وهذا غير صحيح أنهم على علم بهذه التجارب ، وهذا هو السبب الذي من أجله نقول أنهم لا يفقهون شيئاً .

طالب شمسي أردبيلي .

احذر من أن تسيء هضم شيء ما ، فربما زرت إنساناً عظيماً ، أو قرأت كتاباً له ، فشعرت بمحبة له أو عداوة ، وكثيراً ما يكون هذا سوء هضم من قبل التلميذ .

مصطفى كليبي من أنطاكية .

إذا كنت أباشر الطريقة من جديد فرجائي هو :

«علمني كيف أتعلم وماذا أتعلم» ، بل علمني قبل هذا : «أن أرغب حقاً في تعلم كيفية التعلم ، كدافع حقيقي لا كتظاهر فقط» .

خواجة(*) «علي رميتاني» يخاطب وفداً يمنياً .

«الاختلافات» في التعليم الصوفي

عندما ينشأ شكل من أشكال الصوفية يفشل كثير من الناس في إدراكه ، وهؤلاء هم الشكليون الصوفيون الذين ينقلون الفن الصوفي ويظنون أنه تماماً كالطريقة الصوفية .

ولكن طالما أن الشكل ينتمي إلى الزمن كالمعطف القديم ، فإن أولئك الذين ينقلون الأشكال القديمة لن يتمكنوا من التعرف على الأشكال الموجودة في الزمن الذي يعيشون فيه .

(*) ترد كلمة خواجة بمعنى سيد وهي كلمة فارسية وتلفظ كما لو لم يكن بها حرف الواو ، وعلى الرميتاني هو الشيخ الصوفي رميتاني من قرية رامتين في بخارى .

فالحلاج مثلاً قذفه بالحجارة بعض الناس الذين كانوا يعدون أنفسهم من المتصوفين وذلك قبل أن يتفهموا المعنى الذي يرمي إليه ، ومن هنا فعندما جرى حديث عن الطريقة الصوفية لأول مرة في المساجد قال بعض الناس : «هذه بدعة» .

وقال آخرون : «هذا سر يجب ألّا يذاع على الملأ» .

وكان أولئك الذين قالوا إنها بدعة من رجال الدين ذوي التفكير المحدود ، أما الآخرون فهم من الملتزمين بالمعاني الظاهرية للتصوف .

إن المدارس الصوفية كالموجات التي تتكسر على الصخور وهي آتية من البحر نفسه ، وبأشكال مختلفة ومن أجل غاية واحدة .

ماذا تنشد ، المظهر أم الحقيقة ؟

وقف «أويس القرني» وحيداً في الصحراء متكئاً على عصا ، ولم يسبق. لأويس أن التقى بالرسول (ص) لقاءاً بالجسد ، ولكن مع ذلك عرف كثيراً من أسرار الصحابة ، ولا ينكر أحد أنه كان ولياً من أولياء التصوف ، قدس الله سره ! أما «ذو النون المصري» فكان يتحدث بالألغاز وكان يعلم الصوفية بالهيروغليفية المصرية ، ولا ينكر أحد أنه كان معلمنا .

أما «الحلاج» و «السهروردي» فقتلتهما السلطات الحاكمة في عصرهما لأنهما تفوها بأشياء تبدو غير مألوفة في عصرنا ، وكلاهما من معلمينا .

أما «سيدنا» بهاء الدين البخاري» ، فلم يستخدم الكلمات في صلاته القلبية لكنه كان أصدق من تكلم من الرجال .

وجلب «أحمد الرفاعي» لنفسه ولأتباعه لقب «الإظهاريين(*) والمشعوذين وقد كانت له صلات خفية بنا .

(*) الإظهاريين : أصحاب النزعة إلى إظهار المقدرة أو السلوك بطريقة تلفت الأنظار إليهم .

وظن الناس أن «جلال الدين الرومي» و «فريد الدين العطار» ليسا إلا شاعرين .

لقد تحدث «حافظ» عن الخمر وتحدث «ابن العربي» عن المرأة ، أما الغزالي فقال :

«كل هذه رموز لا ينكر أحد أنها واحدة» .

لقد اندمج الجميع في عملنا المقدس ، فالشبستري تحدث عن الوثنية ، وكان مولانا «الجشتي» يسمع الموسيقى ، أما الخاجة «أنصار» فكان زعيماً دينياً ، أما «الخيام» و «أبو الخير» و «الرومي» فأنكروا الشكل الديني .

على أنه ليس بين أصحاب الطريقة من ينكر أن كل هؤلاء كانوا واحداً .

لقد هام «يوسف قالاندر(*)» على وجه البسيطة .

وكان الشيخ «شطار» ينقل الناس بنظرة واحدة .

أما «علي الهجويري» فقد ظنه الناس مفسراً فحسب .

لقد ساهموا جميعاً متحدين في واجبنا المقدس .

ومنهم «عبد القادر الجيلاني» الفارسي ، و «سلمان وسعدي» أيضاً .

و «أبو بكر والنوري والجعفري» من الجزيرة العربية .

«بابا فريد» ، و «ابن آدم» من الأفغان .

«الجامي» من خراسان ، و «بكتاش» من تركيا ، و «نظام الدين» من الهند و «يوسف» من الأندلس .

الكل انهمكوا كواحد في واجبنا القدسي .

(*) ينتمي إلى القلندرية وهم جماعة من الدراويش يحلقون ذقونهم ورؤوسهم ويمتنعون عن الزواج ويطوفون في الآفاق .

ويسأل أصحاب الفكر الضحل ما هو سلوك الصوفيين الذي تميزوا به كعارفين ؟ وما هي أشكال الرياضات الروحية التي نفتخر بها ؟، وما هي الوسيلة التي أسلك فيها طريقاً مناسباً لي ؟ وأين ولد المعلمون ؟ وما هي العادات والعهود التي تقرب الإنسان من الحق ؟ كفوا أيها الحمقى ! قبل فوات الأوان واتخذوا قراركم ، هل تريدون دراسة المظهر أم الحقيقة ؟

(نواب(*) جان ـ فيشان خان .

الطريق الصوفي

التصوف تعاليم للصوفيين وأخوة بينهم ، ويشترك هؤلاء الصوفيون في الإيمان بأن الرياضة الروحية ليست جزءاً من الحياة بل إنها الحياة نفسها ، فالتصوف يعني «الحب» .

ينتظم الأعضاء في حلقات صوفية ومحافل في المراحل الدنيا ، وفي المراحل العليا وهي مرحلة (السكينة) أو الهدوء يرتبطون معاً بالبركة ، ويؤثر هذا التفاعل بينهم وبين هذه القدرة في حياتهم بكل وسيلة .

إن التصوف طريقة في الحياة يؤمن الصوفيون بأنها جوهر وحقيقة كل التعاليم الفلسفية والدينية ، إنها تقود إلى اكتمال الإنسان ، رجل وامرأة من خلال التلمذة في هذه الحلقات والتأمل والرياضة الروحية ، وهذه الأخيرة هي «ممارسة الحقيقة» .

ويؤكد الصوفيون على ضرورة التمييز بين الحكمة والكمال وبين الأساليب العقلانية والمدرسية وما شابهها فهي أدوات فحسب .

أما الطريق فيعلمنا إلى أي مدى يمكن استعمال هذه الأدوات ويعلمنا أيضاً

(*) اسم كان يطلق على حكام المقاطعات في الامبراطورية المغولية ثم على أفراد العائلات العريقة .

كيف ندمج العمل بالمصير .

يقول أحد المعلمين :

«التصوف هو الطريقة التي يتخذها الصوفيون في حياتهم الواقعية فيعملون بشكل مختلف عن الأشكال الأخرى ، فيؤدي هذا إلى تنمية قواهم العقلية والجسدية والميتافيزيقية ، فهم ينتظمون في جماعات يرشدها مرشد (معلم) حتى تتكون العلاقة التي تدوم إلى الأبد» .

«إن الإخاء بين هذه الجماعات يسمى أخوة ، الطريقة والطريق ، وربما أطلق عليه اسم البنية تشبيهاً له ببناء يشيد دعائمه أعضاء الجماعة . أما المعلم فيسمى السيد أو الشيخ أو الحكيم أو العارف أو المرشد ، أو الكبير أو المدير ، أما التلميذ فيسمى المرشد أو الناسك أو المحب أو المرشَّح .

«أما المحفل فيسمى الصومعة أو المعبد أو الملاذ وما شابه ذلك ، وربما كان له شكل مادي ، أو لم يكن له .

والتصوف نظام ميتافيزيقي متداخل في الحياة العادية وإلى جانب ذلك يؤمن أصحاب التصوف بأن أتباعها يتفوقون في الأعمال التي اختاروها لأنفسهم . ولا تقدم تعاليم الصوفية بنصوص عادية تبدأ من الألف إلى الياء ولكن بتفاعل فكري بين كل من المعلم والمتعلم .

وعندما تصبح العلاقة بينهما متينة يستمر الصوفي في طريقه الخاص ويصبح «إنساناً كاملاً» .

الإنسان الكامل .

الصوفية ليست موعظة تقال ، وتقدم تعاليمها في بعض الأحيان بالمثل والتوجيه ، وربما كانت هذه الأمور غير معروفة بالنسبة للقدرات العادية للمتعلم .

سالم عبد الرحمن .

المتصوف

ربما كان كالخضر الذي ساح في الأرض بهيئات عديدة وبوسائل تجهلها ، فإذا توقف في إحدى «المحطات» نجده راعياً لقطيع من الأغنام ، وفي اليوم التالي يشرب من كأس ذهبية مع أحد الملوك .

فإذا كان معلمك فسوف يضفي عليك من إلهامه سواء عرفت ذلك في حينه أم لا . وعندما تلتقي به سيقوم بعمل لأجلك سواء عرفت ذلك أم لم تعرف .

أما ما يقوله أو يفعله فربما بدا لك غير منطقي أو غير مفهوم ، غير أنه هناك مغزى لما يقول ، فهو لا يعيش في عالمنا ، لكن حدسه كحدس أولئك الذين يسيرون في طريق الصواب ، وهو يعمل دوماً وفقاً للطريق الصحيح .

وربما سبب لك حيرة ، وهذا مقصود وضروري ، وربما بدا أنه يقابل الخير بالشر أو الشر بالخير ، بيد أن ما يفعله في الحقيقة لا تدركه إلا فئة من الناس .

وربما كان هناك من يعارضه ، لكن هؤلاء قلّة .

إنه متواضع يسمح لك باكتشاف ما يجب أن تكشفه ببطء .

وعندما تلتقي به لأول مرة يبدو مختلفاً عنك لكنه ليس كذلك ، وربما كان شديد الشبه بك لكنه ليس كذلك .

سالك .

الشهداء

لقد مزقت أوصال «منصور الحلاج» وهو على قيد الحياة ، إنه أعظم شهيد في تاريخ التصوف ، ولكن هل يمكنك تسمية الشخص الذي قام بذلك ؟

أما «السهروردي» فقد حكمت عليه السلطات بالإعدام ، ولكن من هو جلاده ؟ ، لقد ألقيت كتب «الغزالي» في النار ، ولكن من فعل هذا ؟ لا أحد

يتذكر أسماء هؤلاء الأشخاص لأن المتصوفين يتجنبون تكرار أسماء الأشخاص ذوي السمعة السيئة ، أما أسماء «الغزالي» و«الحلاج» و«السهروردي» فيعرفها الجميع .

وبمعنى آخر ، نحن نتذكر ونتشرف بأسماء معلمينا الكبار ، ولكن هل نذكر ما قدموا لنا من تعاليم ؟

فكم من الناس ، لا من الصوفيين ، يبجل ذكرى أي من هؤلاء الثلاثة ؟ كأشخاص دفعوا حياتهم ثمناً لما قاموا به ، ومن يبالي بالسؤال عن الأعمال العظيمة التي قام بها هؤلاء الأشخاص ؟

ربما لم نكن نعرف أسماء الآثمين ، لكن خلفاءهم قد انتقموا ؛ فقد تناسوا «الحلاج» واتبعوا خصمهم «الغزالي» كما لو كان منهم ، وتظاهروا بأن «السهروردي» تنتابه الهواجس .

لقد ثأروا لأنفسهم من الإنسانية لأنها نسيتهم ، فهل نتيح لهم أن ينتصروا مرة واحدة وإلى الأبد ؟

ومن منا سيتبع الطريق ويقول لرجال الدين والمدرسيين :

ـ «كفى ، أيها الأخوة ، فإن «الغزالي» و«السهروردي» و«المنصور» لا زالوا أحياء» ! .

اعتباري .

تعاليم الصوفيين

يمارس كثير من الناس الفضيلة أو يرتبطون بعظماء وحكماء ظانين أن هذا هو السبيل إلى رقي النفس ، لكنهم مخدوعون ، فقد ارتكبت باسم الدين أسوأ الأعمال الهمجية ، وكان الإنسان يرتكب الأعمال المشينة وهو يحاول تقديم الخير .

ويكمن العيب في الافتراض السخيف بأن الاتصال بشيء من القيم كفيل وحده بجلب منفعة لشخص غير قابل للتغيير .

وهناك المزيد من الأمور الضرورية للإنسان ، إذ لا يكفي أن يكون على صلة مع الخير فحسب ، بل يجب أن تكون له علاقة ما مع شكل من أشكاله يؤهله لتأدية عمله ويجعله من الطيبين ، فوجود الحمار في مكتبة مثلاً لا يجعله من المتعلمين .

هذا الجدل هو أحد أوجه الاختلاف بين تعاليم الصوفيين ومحاولة ممارسة الفضيلة أو الارتقاء بالنفس في الاجتهادات الأخرى .

على أن هذه الناحية لا يهتم بها أي من القارىء أو الطالب .

قال «طالب كمال» :

ـ «لا يصبح للخيط قيمة ثمينة لأنه يمر من خلال الجواهر» .

وقال أيضاً :

ـ «إن فضائلي لا ترتقي بنفسي ، كما أن الأرض المقفرة لا تصبح خصبة إذا وجد فيها كنز ما» .

الكنز هو كنز ، بيد أنه يمكن أن يستفاد منه في إعادة تكوين ما قد فسد ، فالكنز يجب أن يستخدم بطريقة ما .

وربما كان الرفع من المستوى الأخلاقي جزءاً من العملية ، فلا زالت وسائل الارتقاء بالإنسان مطلوبة ، وهذه المعاني الأخلاقية هي سر الصوفية .

إلا أن المدارس الأخرى ليست مؤهلة في كثير من الأحيان لاستكشاف ما وراء المرحلة الأولى ، فهي تنهمك في اكتشاف الأخلاق والفضيلة التي هي في نظرها دواء لجميع الأمراض .

عبد العلي حيدر .

كم هو غريب الإنسان

حاول للحظة أن تتصور أنك كـائن آخر غيـر شبيه بـالإنسان ، فـإذا دخلت مكاناً يتواجد فيه فماذا تـلاحظ في سلوكه ؟ ولنفـرض أنه ليس لـديك أي تجـربة كإنسان .

إن الإنسان الذي تـراقبه يـرقد ويستغـرق في النوم ، أمـا أنت فلا تنـام لأن طبيعتـك تختلف عن طبيعته ، فكيف يمكنـك أن تفهم ماذا فعـل ولمـاذا ؟ ربمـا اضطررت إلى القول بأنه «ميت» ، أو ربمـا قلت : «إنه مجنـون ؛ أو تقول : إنـه عضو في مجلس ديني .

وربما اضطررت من أجل تأويل تصرفات هذا الـرجل أن تنسبهـا إلى أقرب عمل معروف لديك في عالمك الخاص .

وإذا مضينا في ملاحظة هذا الرجل نجد أنه يستيقظ ، فماذا حدث ؟

ربمـا نقول لأنفسنـا : «لقد عـاد إلى الحيـاة بمعجـزة» ، أو شيء من هـذا القبيل ، ثم يذهب إلى الينبوع فيغتسل ونقول نحن : «يا للغرابة !» .

ويطبخ شيئاً في قدر وتظهر حبات العرق على جبهته ، إنه عضو في أخويـة دينية . . .

أو ربما كان عبداً لهذا الشيء المضيء الذي يسمونه النار وعليه أن يعبدهـا بهذه الطريقة . . . » .

وبكلمة موجزة نقول إن كل ما يقوم به يبدو غير معقول أو غير كامل ، أو أن الدافع إلى ذلك أسباب تنمو في مخيلتنا لو كنا ذلك الزائر الذي يستعمـل مقياسـه الخاص أو لا يستعمل أي مقياس ليزن النشاط الإنساني .

وهكذا الأمر بالنسبة للدرويش فهو يضحك ويبكي ، إنه عاطفي أو قاسٍ ، إنه ينلم يتحدث عن الخمر ، يتجنب الناس ثم يزورهم .

إنه يخدم بني البشر ويقول إنه يخدم الله ، وأنت تتحدث عن الله ، وربما اعترض ورماك بالجهل ، فماذا تفعل إزاء هذا الرجل ؟

إنه إنسان من عالم آخر وأنت تنسب تصرفاته إلى النوع الذي تألفه ، وتنسب معرفته إلى ما تدعوه علماً ، أما مشاعره فتقرنها بما تظنه فيها .

أما أصله ، طريقه ومصيره فتنظر إليها كلها من وجهة نظر واحدة فحسب .

فكم هو غريب الإنسان !

ولكن هناك سبيل لفهمه ، دع عنك كل التصورات التي تتخيلها للدرويش وسر وراء تفسيراته أو رموزه للطريق الصوفي ، كن متواضعاً ، فإن ما تعرفه أقل من غيرك ويجب أن تعرف الأشياء التي بها وحدها يمكنك أن تتعلم .

كلا ، لا يمكنني أن أعلمك الطريقة القلندرية ، لقد نبهتك فقط ، فاذهب وابحث عن أحد المتصوفين واطلب عفوه لإهمالك فقد غفوت غفوة طويلة .

خطبة لقلندر بيري(*) .

الاجتماعات

تحدث الإمام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» عن وجود العشرات من العارفين في بغداد ، إلا أن اثنين أو ثلاثة منهم هم الذين كانوا يهيمنون على السامعين أو الحاضرين في مجالسهم .

ولقد قدم لنا كثير من أهل البدايات التعاليم دون أن يكونوا من المشاهير ، وهناك آخرون من المعروفين وتلاميذهم مجهولون وسيبقون من المجهولين .

وقد لاحظ أحد السادة المتصوفين أن مجموعة المجالس أقرب إلى ما نسميه القبيلة ، فالإنسان يهوى الاجتماع ، وتشجيع الاجتماعات محفوف

(*) بيري = مريدي (شيخ المريدين) .

بالمخاطر ، إلا إذا كان من الواضح أن الاجتماعات المجردة محظورة ، فتتكون مجموعة صحيحة من الناس فيمكن للروح أن تنتقل .

عبد المجيد تانتي .

المحاكاة والأمانة

يظهر بين الحين والحين مشعوذون ودجالون يشكلون الغالبية العظمى من أولئك الذين يعرفون بأنهم من المعلمين الروحيين .

ويصدر الناس حكمهم على كل حكيم وفقاً لتشابه سلوكه مع سلوك هؤلاء الدجالين لأنهم كثيرون .

لقد اتبعوا مبدءاً خاطئاً ، فعندما تنظر إلى مئات من الأصداف تستطيع التعرف على الصدفة عندما تراها للمرة الثانية ، ولا يمكنك بالطريقة نفسها أن تقرر أيها يحوي لآلىء .

إن التفكير المتدني شريك في الصوفية الزائفة .

وربما استفهمت بقولك : «إذن كيف أعرف المتصوف الحقيقي ؟» .

فأقول لك : «كن أميناً ، فالشبيه يدعو إلى شبيهه ، ولو كنت بالفعل أميناً فلا حاجة بك إلى أن تسأل هذا السؤال ، وبما أنك لست أميناً فأنت لا تستحق أكثر مما حصلت عليه» .

حيدر السردان .

الإنسان والمعلم

كلف رجل طيب أحد المهندسين لبناء وتهيئة أحد المنازل التي ستقدم إلى أحد المعوزين .

وبدأ المهندس في العمل ، ولكن سرعان ما وجد نفسه محاطاً بالناس ، فبعضهم كان يرغب في معرفة كيفية بناء المنازل ، ولم يكن بينهم إلا قلائل ممن

يتميزون بالمقدرة المطلوبة .

وقال أحدهم مظهراً احتجاجه :

ـ «إنك لا تختار إلا من ترغب من الناس» .

وشتمه البعض فقالوا : «إنك تبني هذا البيت لتستأثر به لنفسك» .

فقال لهم : «لا أستطيع تعليم كل واحد فيكم ، وأنا أبني هذا البيت لإنسان فقير» .

قالوا : «ولكنك تنتحل عذراً لمواجهة اتهامنا فحسب» .

قال : «وماذا لو كانت هذه هي الحقيقة ؟ فهل تصرون على عدم تصديقي» .

فقالوا له : «هذه سفسطة ولن نصغي إليك» .

واستمر المعماري في عمله ، وتعلق بعض مساعديه بالمنزل فأرادوه لأنفسهم ، لكنه صرفهم .

وصاح المنتقدون :

ـ «لقد بدأ في الكشف عن وجهه الحقيقي ، انظروا ماذا فعل بأصدقائه المخلصين ، لقد طردهم !» .

وقام أحد أصدقاء المعماري بشرح ما حدث فقال :

ـ «لقد فعل هذا لمصلحة الآخرين وهو سبب مقنع» .

واتجه المعماري بنفسه إلى القوم مضحياً بالوقت الذي كان بأمس الحاجة إليه لإتمام البناء .

فصاح بهم : «أنا هنا لأخبركم ماذا صنعت ولماذا» .

فصاحوا فوراً : «انظروا إنه يحاول خداعنا بعد أن وجد أن مأجوريه لن

يقنعونا ! فلا تنصتوا إليه» .

وعاد المعماري إلى عمله ، فأخذ القوم يتحدثون عنه بقولهم :

ـ «انظروا كيف يراوغ بكلامه ، إنه لن يشوش تفكيرنا» .

وقال لهم شخص امتاز باعتدال تفكيره :

ـ «ألا نصل إلى تسوية لهذا الموضوع ؛ ربما كان المعماري يحاول القيام بعمل صالح ، ومن ناحية أخرى فإننا يمكن أن نقيم الوضع على ضوء الحقائق لا على ضوء الآراء ، إذا لم يكن في نيته العمل الصالح» .

ووافق بعض القوم رغم اعتراض الأكثرية ، وانقسم الأكثرية إلى فريقين ، فريق ظن أن المعماري قد دفع الرجل العاقل إلى قول ذلك ، وفريق ظن أنه غبي .

واقترب هؤلاء من المهندس وقالوا له :

ـ «أظهر لنا التفويض الذي قدمه سيدك المحسن حتى نقتنع برأيه» .

ولما قدم لهم التفويض تبين أنهم جميعاً من الأميين ، فقال المعماري :

ـ «أحضروا لي شخصاً يعرف القراءة وسأكون مسروراً لو وضعنا حداً لهذه المسألة» .

غير أن بعضهم انصرف بامتعاض وقالوا :

ـ «لقد طلبنا برهاناً ، وكل ما يفعله هو الحديث عن القراءة والكتابة . . .»

وذهب آخرون للبحث فعادوا بأشخاص متعلمين ، ادعوا معرفتهم القراءة ، وطلبوا من المهندس مبالغ طائلة ظناً منهم بعدم وجود من يستطيع القراءة غيرهم ، لكنه رفض الانسياق إليهم .

لقد كان المتعلمون من النادرين في تلك البلدة ، أما أولئك الذين يعرفون

القراءة والكتابة فلم يثق بهم عامة الناس ، أو كانت لديهم أعمال أخرى ينصرفون إليها ، تلك حقيقة الأمور ، لكن الناس يفسرونها وفقاً لرغباتهم .

(المدير) علي صبري .

الطاعة

إذا لم تكن مطيعاً فلن تتعلم شيئاً ، فالطاعة جزء من الانتباه ، يجب أن تكون مطيعاً لمعلمك ومن ممارسة هذه الطاعة تعرف الزائف في تفكيرك .

وربما كان الندم على عدم الطاعة مجدياً ، لكنه ليس مجدٍ إلا لأولئك الذين لا يمكنهم الارتقاء إلى ما هو أسمى .

فإذا كان عندك وقت ، ووصلت إلى مجلس معلمك مبكراً فأنت طماع ، وإذا وصلت متأخراً فهذا معناه عدم الطاعة لأستاذك ، وربما قرر أستاذك أن يمنعك من حضور الدرس لفترة ما ، ولو أهملك فعنده ما يبرر ذلك ، وربما حدث هذا في كثير من الأحيان عندما يصبح الدرس نقيصة بالنسبة لشخص ما ، فإذا حاولت تعديل سلوكه تجاهك تكون قد عصيته ورفضت طاعته .

ويذكر « شولاقي» :

ـ «التقيت لأول مرة بمعلمي ومرشدي عندما كنت في السادسة عشرة من عمري ، وقد وافق على تدريسي وبدأ بإعطائي ثلاثة دروس ، ولم أره أو أسمع عنه بعد ذلك إلا عندما أصبحت في الواحدة والأربعين من عمري ، وكانت أول كلماته لي بهذه المناسبة هي :

ـ «يمكنك الآن أن تبدأ في عملك» .

أم الحسن .

النمو ، الفساد والتجديد

يبدأ التعليم الحقيقي بالأوصياء ، سادة العلم والإدراك ، وهو لا يبدأ بالحب أو الجهد أو العمل ، لأن الحب الحقيقي والجهد والعمل لا يكونون ممكنين إلا من خلال المعرفة الحقيقية .

ولكن عندما يظهر في إحدى الطوائف أشخاص جشعون يحولون الطرق إلى عقائد ويؤمنون بما يجب عليهم ممارسته .

وهناك حالتان تؤديا إلى إفساد الجماعة ، الأولى عندما يزيد الخداع وعدم الإخلاص في هذه الفئة من أعضاء الجماعة ، وفي الثانية يتفشى النفاق بين سائر أعضاء الجماعة مما يؤدي إلى زيادة عدد الأنانيين .

هذه الموجة من النفاق والرياء تعوق مسيرة المرشدين وغيرهم على حد سواء ، ولا ينكشف هذا النفاق إلا باختبار الذات ، ولولا هذه الموجة لوصلوا هم وطائفتهم إلى مبتغاهم ، ومن المعروف بالطبع أنه إذا لم يحسن المرء تقدير الذات فإن من الصعوبة بمكان اكتشاف هذا أو التفكير فيه .

ولنعد إلى سلوك الجماعة التي دخل إليها الفساد فنقول :

إن هؤلاء الأفراد وأتباعهم يَنشدون الأفكار والأعمال التي تئد معظم أماني النجاح في ما ينجزه الإنسان ، وربما حاولوا تكوين جماعة ثابتة تبغي التنوير ، وهم يهدفون لتعريض كل واحد للتجارب والملاحظات نفسها ، وفي غمرة ذلك ينسون هدفهم الأصلي فيحولون تدريباتهم وحكاياتهم التصويرية إلى نوع من التاريخ أو القصة التي يحاولون تعليمها .

ويستخدمون الأدب أو المذكرات المعاصرة عن معلميهم لدعم آرائهم وأعمالهم ، كما أنهم يستعملون في كثير من الأحيان أسلوباً واحداً في تفسير الأدب والحديث ويحاولون تدريب الناس ويعوقون مسيرتهم نحو التنوير .

ونجد أن المجلس اختفى وأصبح أقرب إلى مملكة تميل إلى الحفظ

والصيانة ولكن لا تعرف ماذا تصون أو ماذا تحفظ .

أما المرشدون وأتباعهم فيبقون مشدودين إلى هذه الهيئة ويجعلون منها مكاناً للمحاكاة والتقليد ومهمتها حفظ وصيانة الأشكال الظاهرية ، ويأتي في الوقت نفسه التبجيل المبالغ فيه للإنسان ، للجماعات ، للحكايات ، والعداء تجاه الآخرين وفي بعض الأحيان نفاذ الصبر .

ونجد أن الجماعات التي كانت متحدة انشقت إلى جماعات ذات تأويلات مختلفة أو تركيز على ناحية معينة تكون غير مجدية بصفة عامة بالإضافة إلى ملاحظات غير دقيقة ، وهنا لا تكون الحقيقة موجودة فقد تم غزو الجماعة دون أن يتمكن أعضاؤها من كبح جماح هذا التغيير الذي حدث .

أما الحقيقة فتبقى مبهمة بالاستعمال المستمر بالمجتمع «الضعيف» ، بالكلمات والمظاهر السطحية ، بالذكريات المتعلقة بسير الأشخاص وبأوجه أخرى من المعرفة الأصلية .

ومن المؤكد أن أعضاء الجماعة يعتقدون أنهم بهذه الرموز أو الصفات يستمرون في سيرهم على الطريق الصحيح .

وأملهم الوحيد في الرجوع يكون عن طريق التدريب على الجهود المركزة في سبيل الإخلاص .

هذا المثال أو النموذج الذي تحدثنا عنه هو سبب من الأسباب التي يظهر من أجلها من وقت لآخر الأوصياء ويعلنون عن تجديد التراث السامي بالعمل المناسب . وهنا تبدو هذه العبارات بالنسبة للضالين غريبة وغير ملائمة مثلما تبدو لغة العقل بالنسبة للمخبولين شيئاً محالاً .

وكنتيجة لهذا يستهدف الأولياء للدعم المبالغ فيه وللمعارضة أيضاً من قبل طوائف مختلفة من أتباعهم ، وردود الفعل هذه لا تعد بأي توقعات وهي بغيضة تماماً كاللامبالاة .

وإذا عملت الجماعات معاً عليها التغلب على هذه المواقف إذا كانت ستحرز النجاح في تنشيط وإحياء التعاليم .

هذه قصة كل عصر مر على وجه الأرض ، والخلاف الوحيد يكمن في الفترة الزمنية الذي حدث خلالها هذا السلوك .

أما أولئك الذين لا يملكون سوى معرفة بسيطة ويظنون أنهم أكثر اطلاعاً ومعرفة من الناس العاديين فليسوا أقل عرضة للتفكير والتعليم من أولئك الذين لا يعرفون التعليم التي أتى بها الحديث الشريف .

ومع هذا فإنهم أكثر قدرة على التقدم في الطريقة عندما ترق القشرة الخارجية للزمن ، وهم في بعض الأحيان يستعيدون الإمكانيات التي بواسطتها نتمكن من تقديم العون ، ويكمن هذا في متابعة هذا الواجب الذي يبني على معرفتنا بالتعاليم المستمدة من الحديث الشريف ، وبظروف الطوائف (الجماعات) ، وبهذا نستطيع التدرب على المهارة ، العمل الجُب والجهد .

وعندما تكون القشرة الخارجية للناس أو الجماعات شديدة القسوة تبقى مثل هذه الجماعات والأفراد كالجوز أو البندق القاسي الذي يلقى في النهر بسرعة بإهمال وغفلة .

ولن تفلح مياه الحنان والفهم في تليينهم بالدرجة الكافية التي تساعدهم على إنبات نبتات صغيرة قبل أن يصلوا إلى سد حيث التراكم والهجر وعدم الإدراك .

(نواب) محمد علي شاه .

قراءات في الفلسفة الصوفية

إن قراءة أي شيء وكل شيء عن الصوفية كقراءة كل أنماط الكتب في موضوعات مختلفة دون أن يكون هناك أساس أو قاعدة .

وهذه كارثة أشبه بالمداواة دون تمييز إذ يمكنها أن تجعل المرء أسوأ مما

كان قبل المعالجة .

إن الكتابات الصوفية توجه في الغالب إلى جمهور خاص ليس في بخارى كما في البصرة مثلاً ، وهو في إسبانيا يختلف عن أفريقيا . .

ومع هذا ، فإن قيمة دراسة المجموعات الخاصة من القراءات الصوفية التي قام بها أحد الصوفيين لا يمكن المبالغة فيها .

وهذه القيم تشمل :

اختيار الفقرات التي تساعد جماعة معينة على إيجاد طريقها .

إعداد الطالب للتنوير الذي يتيحه له المعلم شخصياً عندما يحين الوقت لذلك ، وتصحيح الرتابة في التكرار العادي للمذهب والتدريب ، الذي يصبح غير واضح إذا لم ندرك تفصيلاته ونتفهمها .

تصحيح ضد الإثارة التي هي شيء يومي في حياتنا ، والتي تتلاعب بنا دون أن ندركها .

لذا عليك أن تقرأ ما أعد لك لتنال نعيم السعادة الأبدية .

بهاء الدين نقشبندي .

القسم التاسع
مسائل وأجوبة عن التصوف

١ ـ الصوفية والإسلام (محمد علي المصري)

٢ ـ الفهم العميق (رئيس نشاقمة زاد)

أجوبة على استفسارات وجهت إلى متصوف من كيرين وآخر من بخارى .

١ ـ الصوفية والإسلام

السؤال (١) : ما هي أسس الصوفية ؟

الجواب : الأساس في الصوفية هو الإيمان ، والإيمان في الإسلام له ستة أركان هي :

الإيمان بالله ووحدانيته ، الإيمان بالملائكة والأنبياء ، الإيمان بيوم القيامة ، وبالقضاء والقدر .

السؤال (٢) : كيف تدرك هذه الأمور مع أنها ليست محققة من قبل كل الناس ؟

الجواب : إنها مثبتة في العقل ومجربة في «القلب»[١] .

السؤال (٣) : وكيف يكون الكمال في الصوفية ؟

الجواب : يكون الكمال في إدراك الأمور التي هي أساس الإيمان بـ «القلب» .

السؤال (٤) : ما هو الفرق بين الذين حصل لديهم التجلي أو الانسلاخ وبين الآخرين ؟

---

(١) إن أداة المعرفة الصوفية لدى بعض المتصوفين كالغزالي هي القلب وليست الحواس أو العقل ، والقلب عنده ليس تلك اللحمانية المعروفة في الجانب الأيسر من صدر الإنسان وإنما هي اللطيفة الربانية الروحانية التي هي حقيقة الإنسان . انظر كتاب «مدخل إلى التصوف الإسلامي»/ تأليف أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢٠٧ .

الجواب : إن فهم أولئك الذين انسلخوا[٢] يختلف عن المعرفة كما يدعوها الناس العاديون .

السؤال (٥) : وما هي المعرفة عند الناس العاديين ؟

الجواب : إنها معرفة قائمة على المحاكاة والتقليد من خلال تدريبات ظن الناس أنها حقيقية ، لكنها ليست كذلك .

السؤال (٦) : كيف ينمو الإيمان الحقيقي ؟

الجواب : ينمو الإيمان الحقيقي بالوصول من خلال تدريبات روحية معينة إلى الطريق الذي هو أحد المقامات السبعة والعشرين المتاحة للإنسان ، ومن الممكن أن يصل الإنسان إلى الطريق الحقيقي وذلك بعد اتباع الطريق القائم على المحاكاة والتقليد ، غير أن هذا من الصعوبة بمكان .

السؤال (٧) : وما هي الأشكال الدينية الظاهرية التي يتبعها المنسلخ أو الذي حصل له الانسلاخ ؟

الجواب : يتبع أكثرهم تعاليم الإسلام والحديث النبوي الشريف والطقوس الدينية التي وضعها الشيخ الماتريدي السمرقندي ، أما أولئك الذين يتبعون الممارسات الدينية التي جاء بها الإسلام في مذاهبه الأربعة الرئيسية فيطلق عليهم بصفة عامة اسم أصحاب الخلاص .

السؤال (٨) : عندما سئل با يزيد البسطامي عن عقيدته قال :

«أنا من عقيدة الله» فماذا كان يعني ؟

الجواب : إن كل الملل المعترف بها والتي ذكرناها من العقائد التي تؤمن بالله .

---

(٢) التجلي أو الحلول في مفهوم التصوف هو حلول الطبيعة الإلهية في الطبيعة البشرية نتيجة حال الفناء في الله ، أنظر المرجع السابق ص ١٥٣ .

السؤال (٩) : يشير الصوفيون إلى أنفسهم بكلمات مثل ظواهر ، أفكار ، حيوانات وخضار فلماذا ؟

الجواب : قال الرسول (ص) أن الإنسان يبعث يوم القيامة في شكل أو آخر من أشكال الحيوان وفقاً لمميزاته الأساسية ، ويبدو شكله متغيراً إلى شكل من أشكال الحيوان أو غيره حسبما يمثله داخله أكثر مما يبدو بشكله الإنساني ، ففي النوم يرى الإنسان نفسه كبشر ؛ ومع ذلك فربما رأى نفسه على هيئة خروف أو قرد أو حَمَل ، وذلك وفقاً للنزعة المسيطرة عليه .

وكان فهم هذا الكلام فهماً خاطئاً هو الذي أوجد الاعتقاد بأن حياة الإنسان تمر إلى حياة الحيوان (التقمص) ، والذي يفسره الجهلاء حرفياً دون تبصر .

السؤال (١٠) : يستعمل الصوفيون رموزاً وأفكاراً مؤيدة لهم تتعارض مع مستلزمات الحياة الاجتماعية ، وهي في الوقت نفسه مغايرة للغة التي تستخدم عادةً للأمور السامية ، فهم يتحدثون عن العشق والخمر وما إلى ذلك ، فكيف يمكن فهم هذا ؟

الجواب : يعد الدين كما يفهمه الإنسان العادي ، بالنسبة للمتصوف ، مظاهر تنم عن الخشونة والقسوة ، وتشير رموز المتصوفين إلى حالات معينة وهي حقيقية أو منطقية ، كاستعمالهم الرمز «الله» ، للدلالة على شيء لا يدركه المرء على الإطلاق ، بصرف النظر عن الإشارة إليه بفعل العاطفة .

السؤال (١١) : وكيف يكون القرآن الكريم حاجباً لسيلة ؟

الجواب : وكيف يمكن صنع علامات بالفحم والصمغ على قطع من الورق والخشب آتية من مستنقع ؟

السؤال (١٢) : يقول الدراويش إنهم يشاهدون الله ، فكيف يكون هذا ممكناً ؟

الجواب : ليس هذا صحيحاً بالمعنى الحرفي ، لكنه يرمز لحالات معينة .

السؤال (١٣) : هل يمكن لأحد الأشخاص ألا يكون مرئياً بمظهره أو ظهوره الخارجي ؟

الجواب : إن لم يكن شخصاً متميزاً ، فإننا نرى شكله الخارجي فحسب ، فإنك عندما ترى شخصاً ما يتجه نحوك تقول :

«لقد رأيت زيداً ، غير أنك لم تشاهد سوى المظهر الخارجي والسطحي لزيد» .

السؤال (١٤) : بالنسبة للدين الإسلامي من الكفر أن يقول الدرويش :

«إننا لا نخشى الجحيم ولا نشتهي الجنة» .

الجواب : إنهم لا يقصدون هذا المعنى ، لكنهم يقصدون أن الخوف والرغبة ليسا من التدريبات التي يجب أن يسلكها الإنسان في طريقه .

السؤال (١٥) : إنك تقرر عدم وجود تناقض بين السلوك الظاهري أو العقيدة وبين المدركات الداخلية للمتصوفين ، فإن كان الأمر هكذا ، فلماذا يلح المتصوفون على إخفاء بعض الأمور عن الآخرين ؟

الجواب : إن ما يبطنه المتصوفون لا يتعارض مع السلوك الجيد ، لكنه يتعارض مع الفهم العادي ، إن أعظم الباحثين شأناً لا يمكنه فهم شيء لم يختبره ، لذا فهو لا يعلم عنه شيئاً .

السؤال (١٦) : إذا كان هناك شخص مؤمن من وجهة نظر الدين فحسب ، ولا يعرف شيئاً عن العلوم الدينية لدى المتصوفين فهل إيمانه أقل من إيمان المتصوف ؟

الجواب : كلا ، فربما كانت عقيدته أكمل المعتقدات الدينية ، ولا يمكن أن

تكون أقل شأناً من المعرفة الدينية لدى المتصوف .

السؤال (١٧) : ما هو الفرق بين الأنبياء والقديسين ، وأولئك الذين حازوا المعرفة السامية والكثير من الأتباع .

الجواب : إذا كان لدى هؤلاء إيمان بالدين فهم متساوون في إيمانهم ، إنما الفرق في معرفتهم لا في مشاعرهم ، فالملك لا يختلف عن رعيته ، فله عينان وأنف وفم ، على أنه يختلف في شخصيته وفي المهام الموكلة إليه .

محمد علي المصري .

٢ ـ الفهم العميق

السؤال (١) : كم مضى من الزمن على وجود التصوف ؟

الجواب : وجد التصوف منذ القِدم ، لكن الناس مارسوه بطرق عديدة متنوعة ، فقد كانت هذه الطرق في مظهرها الخارجي متباينة ؛ لكن الأشخاص ذوي الثقافة السطحية اعتقدوا أن هذه الطرق مختلفة في أساسها ، وهذا إعتقاد خاطىء .

السؤال (٢) : هل التصوف هو المعنى الباطني للإسلام ، أم أن له معنى أكثر شمولاً .

الجواب : التصوف هو المعرفة التي يحقق بها المرء نفسه ويؤكد وجوده ، ويمكن للصوفية أن تقدم تعاليمها بأي وسيلة لنقل الأفكار ، وقد اتخذت أدوات الفكر في العصور التاريخية أسماء عديدة .

السؤال (٣) : لماذا يجب على المرء دراسة التصوف ؟

الجواب : ذلك لأنه خلق ليدرسه ويتمعن فيه ؛ فهو الخطوة الثانية له في الحياة .

السؤال (٤) : ومع ذلك فإن كثيراً من الناس يعتقدون أن خطوتهم التالية هي

تلقي تعاليم أخرى .

الجواب : هذا يتعلق بالإنسان فإنه إما أن يفهم فهماً كاملاً أو فهماً بسيطاً ، أما الفهم الكامل فيكون إذا توفرت لدى الإنسان رغبة في الفهم واقتناع بأن طريقاً محدداً هو الطريق الصحيح ، أما الفهم البسيط فهو صورة باهتة للفهم العميق لكنه تحريف للحقيقة لا يحفظ منها إلا جزءاً يسيراً من الأصل .

السؤال (٥) : هل يعود السبب في انجذاب الناس للتصوف إلى وجود شخصيات متميزة بين المشاهير والصالحين المتصوفين ؟

الجواب : إن المشاهير من المتصوفين قلائل بالنسبة للأعداد الكبيرة من المتصوفين .

كما أن انجذاب التلميذ لشخصية بارزة من المتصوفين يعد ضرباً من الفهم البسيط لمعنى التصوف ، إذ ستزداد معرفته بحقيقة التصوف فيما بعد ..

السؤال (٦) : هل هناك صراع بين التصوف وأساليب الفكر الأخرى ؟

الجواب : ليس ثمة صراع فالصوفية تشمل كل أساليب الفكر ولكل أسلوب فائدته .

السؤال (٧) : هل تتقيد الصوفية بلغة معينة ومجتمع محدد أو بفترة من الفترات التاريخية .

الجواب : إن الوجه الواضح للتصوف ربما اختلف اختلافاً بيناً في زمان ما أو مكان أو مجتمع لأن التصوف يجب أن يبرز بشكل يجعله مفهوماً من قبل أي فئة من الناس .

السؤال (٨) : هل هذا هو السبب في وجود معلمين صوفيين تختلف أساليبهم عن غيرهم ، ونجحت أساليب بعضهم في بلدان معينة ؟

الجواب : ليس هناك سبب آخر .

السؤال (٩) : ومع ذلك فإن الناس يرحلون لزيارة المعلمين الصوفيين في البلدان الأخرى ولو كانوا يجهلون اللغات التي يتكلم بها هؤلاء الصوفيون .

الجواب : هذا تصرف مقبول بناءً على تعليمات خاصة وأغراض معينة .

السؤال (١٠) : هل هناك فرق بين ما يريد تعلمه كل من الرجل والمرأة ؟ ، وما هو الشيء الذي يحتاج إليه كل منهما في حياته الباطنية ؟

الجواب : نعم هناك فرق دائماً ، ومهمة المعلم تلبية الاحتياجات لا تلبية الرغبات ، فالرغبات تنتمي إلى عالم الفهم البسيط .

السؤال (١١) : هل تصنيف الفهم على أساس فهم شامل وفهم بسيط أمر معروف لدى كل المتصوفين ؟

الجواب : ليس كل ما يعبر عنه بكلمات معروف لدى جميع المتصوفين .

السؤال (١٢) : إذن فما هو الشيء المشترك في كل أشكال التصوف ؟

الجواب : وجود المعلم ، قدرة التلميذ ، الأشياء التي يتميز بها بعض الأشخاص ، التفاعل بين أعضاء الجماعة ، والحق الذي هو وراء جميع أشكال التصوف .

السؤال(١٣) : لماذا يقدم بعض المعلمين الصوفيين لتلاميذهم طرقاً عديدة للتصوف ؟

الجواب : لأن هذه الطرق الصوفية تمثل تعاليم الوجود التي نظمت بشكل يتلاءم مع شخصية كل إنسان على حدة ، نظراً لوجود اختلافات بين الناس .

السؤال (١٤) : أليس جمع المعلومات عن الصوفيين وتعاليمهم عملاً جيداً يقودنا إلى المعرفة .

الجواب : هذا سؤال يتعلق بالفهم البسيط فإن المعلومات حول أنشطة مجموعة

من المتصوفين ربما كانت ضارة لبعض الناس .

السؤال (١٥) : ما هو السبب في عدم الإشارة إلى المدارس الصوفية والإتجاهات في التصـوف لـدى كـل من أحمـد يسـاوي التـركستـاني وابن العـربي الأندلسي إلا ضمن نطاق محدود .

الجواب : إن الحلقة الدراسية للتصوف تنفك بعد انتهاء الدراسة مباشرة ، وهـذا معروف في عالم الفهم العميق .

رئيس تشاقمة زادة .

. . . .

